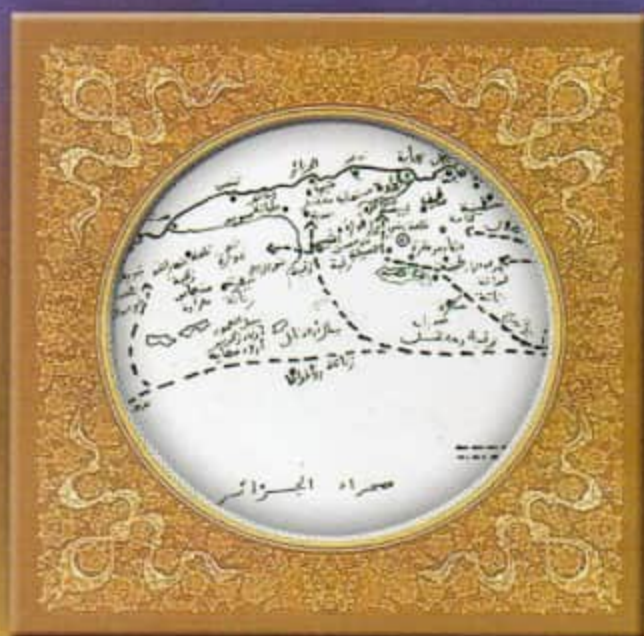


المغرب الأوسط في ظل صنهاجة



محمد الطّمّار

المغرب الأوسط

في

ظل صنهاجة



ديوان المصبوعات الجامعية

© ديوان المطبوعات الجامعية: 2010-05

رقم النشر: 4.07.4796

رقم ر.د.م.ك (ISBN): 978.9961.0.0872.0

رقم الإيداع القانوني: 2010/1887

تقديم

أ.د. عبد الجليل مرتاض

الجانب السياسي:

كل من يتاح له أن يقرأ مقدمة الكتاب الذي رصده الأستاذ محمد الطمار للصنهاجيين الذين برزوا على مسرح التاريخ الجزائري زهاء قرنين من الزمن (من منتصف ق4 إلى أواسط ق6هـ)، لا يتردد في إدراك المغزى الوطني من تأليف هذا الكتاب، فالمؤلف لا يتهم من سبق لهم أن درسوا تاريخ صنهاجة بالتقصير، ولكن يأخذ عليهم أنهم اهتموا بالجانب العسكري والسياسي لهذه الدولة على حساب الجانب الحضاري الذي بقي مغموراً وسط الأحداث السياسية والعسكرية، ويأتي هذا العمل المتميز بعد كتابه "تلمسان عبر العصور".

إن كتابنا هذا يتناول أحداثاً مغربية مؤلمة شائكة تارة، ومفرحة لبعض الفرق والميولات السياسية والمذهبية تارة أخرى، وكان الصنهاجيون ممن أسهموا في ترجيحها لصالح طرف على حساب طرف آخر، وكان طرفهم المرحّج والمتعصّب له سلالة الفاطميين على حساب الأمويين في الأندلس وطوائف أخرى طموحة لاعتلاء سدة الحكم، والاستئثار بجهة من الجهات، لذا فإن المعز، وهو يهم بالرحيل إلى مصر عام 361هـ لم يتوان لحظة ليرك الولاية لبلكين الذي كان لقبه يوسف تارة، وأبا الفتوح مرة.

ما كاد الخليفة الفاطمي يستقر في القاهرة حتى نشبت الفتن البرية في معظم الحواضر التاريخية، فتصدى لهم بما في ذلك تلمسان التي طرد منها الزناتيين، غير أن التلمسانيين رفضوا الخنوع له، وفي النهاية استسلموا له، فعفا عنهم آمراً إياهم بالانتقال إلى أشير قاعدة الزيريين.

قويت شوكة بلكين، ونشر سلطانه على تونس والمغرب الأوسط، وجزء كبير من المغرب الأقصى، حيث فتح فاس، وقطع دابر زناتة التي كانت استولت على سجلماسة، بل لم تنج منه إلا سبتة، حتى وإن دفع حياته ثمناً لتلك الفتوح، وهو عائد لقاعدة ولايته، ليخلفه ابنه المنصور عام 375هـ، الذي عظمت الفتن والخروج عن طاعته الأمر الذي جعل هذا الأخير يلاحق أعداءه في كل مكان من المغرب الأوسط، وبلغ الحقد بالصنهاجيين أنهم لم يتورعوا في سلخ عدوهم وأكل لحمه البشري، مثلما فعلوا ذلك مع أبي الفهم الخراساني المتمرد عليه في كتامة، على الرغم من نهي العزيز للمنصور من التعرض له.

قبل أن يتوفى المنصور عام 386هـ، كان ما يعرف بالمغرب العربي قد دخل طوعاً أو كرهاً تحت لوائه، فألقى ولي عهده باديس، وهو غلام حديث السن، الملك ممهداً أمامه، وسبل الحكم مهياً له، في ظل طاعة عمياء لأوامر الخليفة الفاطمي العزيز بالله في مصر، وواصل الحرب ضد كل مناوئ من مناوئيه، إلى أن وصل الأمر إلى تمزيق البيت الزيري الصنهاجي من الداخل، أخطر ذلك خلع حماد مع شقيقه إبراهيم الطاعة لابن أخيهما أبي مناد باديس، بل أظهر حماد العصيان للفاطمييين، والدعوة للخليفة العباسي منذ عام 405هـ، مما غاظ باديساً وعمق حفيظته، وأزمع أن يلاحق عميه أينما حلا، وطاردهما

حتى الشلف، وانتصر عليهما، وكاد يخذل نار الفتنة لولا قضاء باديس
نحبه بلدغه عقرب ليلا، وهو يحاصر قلعة عمه حماد التي صمدت أمام
جنده أشهراً، لكن وفاة باديس بعثت في نفوس قاداته إشكالات،
فاضطروا إلى الرحيل لمبايعة ابنه المعز الذي لم يكن سنه بتجاوز الثماني
سنين وستة أشهر.

إن العفو الذي سيضفيه المعز بن باديس على عميه حماد
وإبراهيم، سيعقبه تفاهم واتفاق عائلي بتجزئة دولة صنهاجة إلى
دولتين: زيرية، وحمادية منذ سنة 407هـ، فال المنصور بن بلكين
بقوا في قيروانهم، وآل حماد بن بلكين، استأثروا بالقلعة ثم بحاية.

نفذ حماد ما جال. بخلده من نبذ الطاعة للفاطميين ومذهبهم
الشيوعي والدعوة إلى الخليفة العباسي، وملاحقة الرافضة والترحم على
أبي بكر وعمر، وفرضه المذهب السني، وبعد وفاته عام 419هـ،
واصل ابنه القائد بن حاد مسيرته في الرعية وتدبير شؤون بلاد المغرب
الأوسط، واستطاع بدهائه أن يتجنب حروباً مع ابن عمه المعز، بل
اقتنع هذا الأخير بإلغاء الدعوة إلى الفاطميين، وأمر رعيته في إفريقيا
بتبني مذهب أهل السنة اقتداءً بما كان رسمه عمه حماد، فلقي ذلك
استحساناً وارتياحاً لدى العامة والخاصة.

كان طبعياً أن يغضب موقف المعز بن باديس المستنصر
الفاطمي الذي أراد أن ينتقم من الدولتين في تونس والجزائر بطريقته
الخاصة، أن يرسل أعراباً أجلاً عرفوا في التاريخ المغربي ببني هلال،
وهم قبائل عربية، كان لها وقعها المهمجي، مثلما كان لها أثرها
الإيجابي، غير أن هؤلاء ما لبثوا أن اندمجوا مع المغاربة بالمعاصرة

والمصاهرة، وذابوا في بعضهم بعضاً، وإليهم يرجع الفضل في تنشيط الحواضر والبوادي اجتماعياً ولغوياً.

ولا تزال الدولة الحمادية في بداية نهض تارة، وتعثر مرة، وتناوش شرقاً وغرباً وجنوباً من بني جندتها والأعراب وقوات خارجية جديدة طوراً، حتى تضعضعت على يد الموحدين عام 547هـ، وملكها يومئذ يحيى بن العزيز الذي وهبه عبد المؤمن الأمان، وصحبه معه إلى مراکش، وأمر بعناية به لا تفوقها عناية، ليتوفى بعد ذلك في سلا عام 558هـ.

الجانب الحضاري:

وبعد أن يفرغ الكتاب من سرد أحداث أليمة شائكة ومعقدة في المغرب الأوسط، بل في تونس والمغرب الأقصى أيضاً، في قرنين من الزمان، يأبى إلى أن يرسم معالم مشرقة للجانب الحضاري الذي وره الزيريون من الإمارات والدول السابقة، وزادوا عليه زيادات لا تبرح تشهد أطلالها ورسومها عليهم في القيروان، والمهدية وأشير، وبجاية... بله الحداثق، والمزارع، والأشجار، والحمامات والطرقات، والآبار والعيون، والصناعات المعدنية والنسيجية والجلدية، والأسواق الأسبوعية والموسمية...

فهذا ابن حوقل الذي زار جزائر بني مزغنة عام 337هـ، يصفها بأوصاف حضارية وثقافية وعمرانية تدل كلها على الرخاء والتمدن والتعايش المدني، وبعد تجديدها من بلكين بن زيري بن مناد زادها المقدسي اتساعاً في إضفاء معالم حضارية عليها، وبعدهما البكري الذي وصفها بأنها مدينة جليلة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف

الأمم، ولم يقصُر الإدريسي دون الثلاثة في ذكر ما كانت تتمتع به جزائر بني مزغنة من تعمير سكاني، وعيون وآبار عذبة، وتجارة مربحة، وصناعة مزدهرة، وتجارة رائجة، تسوّق مواد منها إلى بلاد وأقطار مجاورة.

ويستمر هذا المشهد الحضاري على عهد الحماديين ليشمل المغرب الأوسط كله (الجزائر)، وخاصة بعد بناء بجاية التي أشار إليها البكري بأنها مدينة أزلية تزيناها جبال جرجرة وطبيعتها الخلابة المحيطة بها براً وبحراً، هي مدينة عامرة شامخة ظلت تقاوم الزمان والدخلاء، على الرغم من احتلالها من الإسبان عام 1510م انتقاماً منها لإيواء المسلمين الفارين من جحيمهم بشرفهم ودينهم، مدينة تتألف من واحد وثلاثين حيّاً، فيها ما يربو على الخمسين مسجداً. أما المصانع والأسواق، والشوارع، والحمامات، والمدارس، والبساتين ومدّ قنوات المياه، والمشاهد المعمارية، والظواهر الإبداعية،... فأكثر من أن تحصى في مجلدات.

ومثل جزائر بني مزغنة وبجاية مدن وحواضر أخرى كتلمسان، وجيجل، وبسكرة، وقسنطينة، والمدينة، وأشبر، وسطيف، ولبؤيرة، ومسيلة، وتيهرت، ووهران، ومازونة،... إلى جانب الموانئ والقلاع، عرفت استقراراً نسبياً، وتحسناً اجتماعياً، رغم القلاقل والفتن المستمرة، في عهد الزيريين بعامة، والحماديين بخاصة.

وبالنسبة للجانب الإداري، فإن الحماديين ظلوا منذ عهد حماد يخطبون لبني العباس في بغداد بدل الفاطميين في مصر، وكانوا سلاطين مترفعين عن لقب الخليفة أو مؤمنين بالسلطة المركزية الروحية

لها، مما يدل على نزعتهم إلى الوحدة ومد الجسور أكثر من ميلهم إلى
الفرقة وشق عصا الطاعة، ولم يتخذوا حجاباً ليكونوا وساطة بينهم
وبين الرعية، ولا نجد لروح العصبية أثراً فاحشاً في تعيين كتابهم
وولائهم ووزرائهم، وما من شك في أن نبذهم الدعوة للفاطميين شفرة
واضحة تدعو إل التمسك برأي أهل الجماعة، علما بأن المغرب
الأوسط ظل محميا من المذهب الشيعي السائد في جهات أخرى من
إفريقية، وخاصة بعد دعوة الحماديين لبني العباس، وهم سنيون، وبعد
انقراض دولتهم، خلفهم سنيون مالكيون (المرابطون والموحدون)، مما
عزّز رسوخ المذهب المالكي وانتشاره في المغرب العربي كله، إلا في
جهات متروية ظلت متمسكة بما ورثته عن أسلافها من مذهب آخر.

الجانب الأدبي والعلمي:

وفي الناحية العلمية والأدبية والفكرية والفنية، فإن الجزائر لم
يَعْمَمها الله في جميع عهودها الحضارية من أن تنجب رجالات أسهموا
في الرقي الثقافي المحلي والإنساني، ومن ثم فإن القرنين اللذين عاشتهما
بلادنا في الفترة الصنهاجية عرفت علماء وفقهاء ومحدثين وشعراء
وأدباء... تجاوز صيت بعضهم آفاق المغربي العربي، من هؤلاء المحدث
الكبير أبو بكر بن يحيى الوهراني (431هـ) الذي كان رائد رجال
الدين في الكتاب والسنة، وكان معاصراً لبني عبد الملك مروان
(439هـ) الذي تعاطى الفنون الدينية ولاسيما الحديث، وجال في
الأندلس والمشرق لطلب العلم والتعمق والتفنن فيه، ومنهم العالم
اللساني أبو القاسم يوسف البسكري (465هـ) الذي تخصص، بوجه
أخص، في علوم اللغة والقراءات القرآنية مما جعل نظام الملك يستدعيه

وينصّبهُ أستاذًا في مدرسة نيسابور، يعضده في النحو والصرف الحسن بن علي التيهري (501هـ) الذي تخرج على علماء في الأندلس حتى أصبح من أئمة عصره في هذين العلمين العربيين.

ومن ثم، فإن الحواضر والمراكز العلمية والثقافية عرفت علماء جزائريين خلال هذين القرنين، لم يستغن اللاحقون لهم عن بصمات أفكارهم النيرة في اللغة والأدب والحديث والشريعة والعلوم الفلكية والرياضية، من هؤلاء عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي الكاتب، والشاعر البارع، والناقد الثاقب الذي تأثر به مواطنه ابن رشيق تأثرًا لا تستخفي معلمه في العمدة، أما ابن رشيق المسيلي نفسه فأشهر من أن يشار إليه، غير أنه لا بد من الإشادة بهذا الرجل الذي عمل على تغيير منهجية النقد التقليدي عند العرب، وخاصة نظرته إلى النص الشعري على أنه بنية كلية، كل جزء فيه من لغة وبلاغة وتركيب ووزن وقافية... لا يستغني عن صنوه الآخر.

وكان لثورة الأعراب على المعز بن باديس الذي هاجر القيروان إلى المهدية فوائد للحماديين، إذ هاجر إلى عاصمتهم والحواضر المحمية تحت سلطتهم علماء وأدباء وفنانون ماهرون، فنهضت الثقافة بها نهضة كبيرة، خاصة وأنها صادفت قائدًا يحب العلم، ويصطفي أهله إنه الناصر بن علناس، من هؤلاء الذين شاهدتهم قلعة بني حماد، أبو الفضل بن النحوي الذي تجول في المغرب الأقصى، ودخل سجلماسة ليعلم بها أصول الدين والفقه، ويذكر الدارسون العارفون بآثاره أنه كان متأثرًا بأبي حامد الغزالي، ولاسيما كتاب "إحياء علوم الدين" الذي انتسخه أبو الفضل في ثلاثين جزءًا، حتى أنه

كان يقول عن نفسه "وددت لو أني لم أنظر في عمري سوى هذا الكتاب"، ومن أشهر إبداعاته الشعرية "المنفرجة" التي أثبتتها الغبريني في "عنوان الدراية"، وحققها الدكتور أحمد بن محمد، لتنتشر عام 1984م.

وما أن انتهى الحماديون من تأسيس مدينتهم الجديدة (بجاية) في عهد الناصر حتى تقاطر إليها الطلبة والعلماء من كل الأصقاع والجنسيات والأديان، يشهد بهذا شارل سينيوبوس صاحب "تاريخ الحضارة" الذي ذكر أن أهل بيزا الإيطاليين كانوا يترلون مدينة بجاية، فتعلموا منها صنع الشمع الذي نقلوه إلى بلادهم وإلى أوروبا، وببجاية نفسها تعلم فييناتشيو العلوم الرياضية وعلم الجبر العربي والمقابلة ليدخل كل ذلك إلى أوروبا التي كانت حتى ذلك الحين في غفلة من أمرها.

ومن دخل الجزائر حواضرها بما في ذلك عاصمة الحماديين، الشاعر المفلق ابن حمديس الصّقلي الذي تزامنت موهبته الشعرية مع استيلاء النورماند على جزيرته، فاستقبله الحماديون بكرامة وحفاوة، فتفجرت قريحته، وانبرى إلى وصف أهم مآثر بني حماد في بجاية، ومن أجمل ما قال في ذلك رائيته الشهيرة في وصف مسكن فخم بناه المنصور:

قَصْرٌ لَوْ أَنَّكَ قَدْ كَحَلْتَ بنوره	أَعْمَى لَعَادَ إِلَى المقام بَصِيرًا
وَأَشْتَقُّ مِنْ مَعْنَى الجنان نَسِيمَه	فَكَادَ يُحْدِثُ بالعظام نُشُورًا
نَسِي الصَّبِيحِ مَعَ الفَصِيحِ بَذَكَرَه	وَسَمَا فَفَاقَ خَوَرَتْقًا وَسَدِيرًا
لَوْ أَنَّ بِالْإِيوَاءِ قُوبِلَ حُسْنُهُ	مَا كَانَ شَيْئًا عِنْدَهُ مَذْكُورًا؟

ولبت عبد الجبار بن حمديس (447-527هـ) في بجاية يشيد بمبانيها ومعاملها، وجد في هذه والمدينة المضيفة أجواء حضارية من تجارة، وصناعة، وصيد، ومواصلات، ربما أنسته نكبته وفواجعه التي لحقت بوطنه وبجياته الخاصة، مما حدا بصاحب "نفع الطيب" أن يشيد بشعره في وصف المعالم الحضارية الحمادية، بل أعجبه المقام في بجاية، وبقي فيها إلى آخر حياته.

إشارتنا إلى عبد الجبار ليست إلّا مثلاً عارضاً، وإلا فهناك رجالات ألمعيون أربيون في اللغة والأدب والفقه والتاريخ والجغرافيا والعلوم والحساب، قصدوا بجاية هروباً من اضطهاد النورماند في صقلية التي سقطت في أيديهم بصفة نهائية بعد عز عربي، ومنعة إسلامية، فهؤلاء العلماء عاشوا كلهم في كنف المنصور ومن جاء بعده من الملوك والقادة الحماديين الذي كرموهم، وقدموهم في المجالس وأغدقوا عليهم عطايا وهبات نفيسة، مما شجع النازحين إليها بالشعور بالطمأنينة والاستقرار، والباقيين غير المستقرين في المغرب الأقصى والأندلس، وإفريقية، بشد الرحال إلى بجاية والمكوث بها إلى آخر حياتهم، والحمد لله أولاً وأخيراً، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أ.د. عبد الجليل مرتاض

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه. أما بعد، فقد سبق أن تحدثنا عن تلمسان ومساهماتها في سياسة وحضارة الجزائر عبر العصور، وقد عاهدنا أنفسنا أن نتمادى في تسجيل تطورات تاريخ بلادنا، نريد أن نحیی الوعي الوطني الذي يركز على معرفة تاريخ أمتنا العريقة وتحلیه معالیه فی میادین السیاسة والعمران وإظهار ما ساهمت به على مر الأيام في بناء صرح الحضارة الإنسانية.

فحدثنا هذه المرة سيكون إن شاء الله، عن بلادنا في ظل الصنهاجيين، وهؤلاء قد ساسوا البلاد ولم يألوا جهدا في تطويرها عمرانيا وحضاريا.

قد حدثنا عنهم المؤرخون القدماء، ولكنهم عنوا بالوقائع الحربية والتراعات السياسية أكثر من عنايتهم بالناحية الحضارية، فبقيت الأخبار المتعلقة بالتاريخ الحضاري مغمورة وسط الأحداث السياسية، فنأبى إلا أن نسد هذه الثلمة حتى يكون بحثنا جامعا مانعا. سنعتني بجميع جوانبه السياسية منها والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والفنية والثقافية والحضارية، وذلك طبعا، حسب المستطاع.

وتاريخنا ليس مجرد أنوار ساطعة وحياة سعيدة على الدوام، فبينما كانت القصور، لا يرى مثلها شرقا وغربا، في العواصم مثل القلعة وبجاية وتلمسان كان بعضهم يسكنون الأخصاص في الجبال

واحيين في البسائط، وبينما كان الشعراء والعلماء يتطارحون في تلك القصور كان الجهل في كثير من جهات بلادنا، فتسجيل كل هذا واجب، فالمؤرخ الذي لا يتحرى الحقيقة ليس بمؤرخ.

وعلى كل حال، فإننا نسأل الله أن يعيننا على مشروعنا هذا ونتمنى أن يجد فيه القارئ اللبيب ما يعينه على معرفة حقيقة ماضي بلاده في فترة الصنهاجين الذين ظهروا على مسرح التاريخ الجزائري في نصف القرن الرابع للهجرة وذهبت ريجهم أواسط القرن السادس (547) والله الأمر من قبل ومن بعد.

تمهيد

التعريف بصنهاجة:

إن علماء النسب متفقون على أن البربر ينقسمون إلى فرعين: البرانس وهم أبناء برنس والبتر وهم أبناء مادغيس الأبتري. وبين النسبين خلاف، هل برنس ومادغيس هما أخوان لأب واحد أم لا؟ فابن حزم⁽¹⁾ الأندلسي يرى أن للبربر جدين برنس ومادغيس وهما لجد واحد والجميع من نسل كنعان بن حام بن نوح. وعند المطمطي وغيره من نسابة البربر أن البرانس فقط من كنعان، وأما البتر فهم بنو برقيس عيلان. ويزعم السلاوي أن الشعبين معا عريقان في البربرية، وأن الجميع من ولد مازيغ ومازيغ من ولد كنعان بن حام بن نوح. أما ابن خلدون فيضطرب فيما يخص نسب صنهاجة وكنامة، فمرة يؤيد ابن حزم وأخرى يرجعهم حمير مؤيدا النويري والطبري وابن الكلبي.

والحاصل أن أقوال نسابة العرب متضاربة في شأن أصل البربر ولا يؤيدون آراءهم بقرائن علمية ولا بحجج دامغة يقنعوننا بها. ولعل السبب في ذلك أن الموضوع لم يطرقه أحد قبل العرب، فبقي غامضا يحتاج إلى بحث علمي دقيق عميق. ألم يكن المغرب أهلا قبل هذه القبائل التي تخالف النسابة في إثبات أصلها؟ ألم نعثر على عظام يرجعها علماء الآثار عهد سحيق؟ ألم نكشف أحجارا منحوتة قد تفنن في صنعها الإنسان البدائي، وآلات منزلية تدل على أن هذا البدائي نما

(1) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (384 — 456)

عقله على مر الأيام، فتطورت حياته وكثرت حاجياته؟ أليست إذن هذه القبائل التي تضاربت أقوال النسابين في أصلها من خلف هذا البدائي كما قد تكون من نسل الطارئين على البلاد في مختلف العصور القديمة؟ فكل القبائل البربرية التي عمرت البلاد في نظر هؤلاء النسابين هم من نسل الوافدين الجدد، أما الأقحاح فلم يبق لهم أثر. فلا شك أنهم لم يفكروا تفكيراً علمياً في الموضوع، فاكثفوا بتقسيم البربر إلى جذمين كما انقسموا هم إلى قحطانيين وعدنانيين.

فالموضوع في الحقيقة شائك، إلا أن حله ممكن على كل حال إذا عالجناه بطريقة جدية علمية بدون تحيز ولا تطرف.

وبناء على خلاصة آراء النسابين التي تقضي بأن البربر جمعهم جنسان هما البرانس والبتر يتحتم علينا أن نميز القبائل البرنسية من البترية.

فمن البرانس مصمودة التي استوطنت المغرب الأقصى ومنها غمارة بالريف وبرغواطة ودكالة وحاحة بساحل البحر الأطلنطي وبطون أخرى بالأطلس الكبير منها هرغة قبيلة المهدي بن تومرت. ومنهم هواره التي عمرت جنوب إفريقية وأوروبا التي حلا لها المقام بالأوراس وجنوب الزّاب، وكتامة التي استقرت بشرق المغرب الأوسط وانتشرت بين قسنطينة وسطيف وميلة وسكيكدة، وصنهاجة التي منها بنو زيري وبنو حماد الذين نتصدى إلى التحدث عنهم. وعلى جانب هذه القبيلة الشرقي كانت عجيسة وعلى جانبها الغربي بنواحي وهران ازداجة التي تليها زناتة بجبال الأطلس الصغير جنوبي تازة، وقبائل بإقليم الريف.

وصنهاجة من ولد صنهاج وهو تحريف عربي للفظ صناك البربري. وقيل ان بطون صنهاجة تنتهي إلى سبعين بطنا، وتنقسم إلى أهل مدر كتلكات وأنجفة بالمغرب الأوسط وإلى أهل وبر وهم كدالة ومسوفة ولتونة وغيرهم. فبينما كان هؤلاء يضربون في فيافي الصحراء كان الأولون مستوطنين المغرب الأوسط منتشرين في قطعة كبيرة من البلاد تمتد بين كتامة وعجيسة شرقا وزواوة وساحل البحر شمالا وزناتة غربا وجنوبا، أي من غربي سطيف إلى وادي الشلف. فلا يكاد يخلو منهم مكان، فجدهم بجبال المسيلة وتيطري والونشريس وزكار، ونجدهم كذلك في السهول حيث يتوفر لديهم في فصل الشتاء، ما تحتاج إليه مواشيهم من كلاء وكانوا يشكلون الثلث من شعب المغرب الأوسط مسالمين لا يعتدون على الغير، ولكنهم يأبون الضيم ويعرفون كيف يصدون العدو ويذودون على كيانهم. وكانت قبائل زناتة ومغراوة ويفرن ودمره تجاورهم. وكثيرا ما كان يتفاقم هذا الجوار. وكيف لا وأسباب العيش عند الجنسين متناقضة والأمزجة متباينة. فقبائل تلكاتة وأنجفة وغيرهما مستقرة عاملة في مداشرها. وأما زناتة فهي في أغلبها قبائل بدوية متنقلة، لكنها من أكثرها جمعا وأشهرها قوة وأشدّها منافسة في السيادة والنفوذ، وما أكثرها ما كانت تسّول لها نفسها الإعتداء على صنهاجة والإغارة على ثغورهم! ومن البديهي إذن أن يحدث بين العنصرين تنافر وشحناء لم تردهما الأيام الا حدة ولا سيما في عهد الرومان الذين استغلوا هذا الإنشقاق وتمكنوا بسياسة" فرق تسد" من السيادة وهي الطريقة التي سلكتها فرنسا في العصر الحديث عندما فرقّت بين العرب والبربر. فالتاريخ يخبرنا بأن معارك طاحنة كانت تقع بين صنهاجة وزناتة فتذهب إثرها الآلاف من الأرواح

وتتعدّر أسباب التقدّم والرّخاء فتضعف البلاد اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا.

فالحضارة لا تقوم ولا تزدهر إلا في جو يسوده الإستقرار والحب والتعاطف بين أفراد المجتمع. ولكن المجتمع في ذلك الوقت البعيد لم يكن له وعي قومي فقومية الناس مركزها القبيلة التي بها ولها يعيشون.

فقد ساد الصنهاجيون غيرهم من البربر ويرجع ذلك إلى كثرة عددهم وشجاعتهم وحسن تدبير زعمائهم. إلا أن تفوقهم على أعدائهم في المعارك كان يتحقق غالبا في الجبال والأوعار التي ألفوها. وأما في السهول فكثيرا ما كانت الدائرة تدور عليهم، وذلك لأنهم لا يتزلون إليها إلا عند ميسس الحاجة. فهي مسرح للبدو الذين اكتسبوا بتنقلهم الدائم في أرجائها على متن جيادهم مهارة وخفة في حركاتهم كانتا لهم أحيانا أحسن عون على المعارك ضد أهل الجبال.

القسم السياسي

الصراع بين الأموية والعلوية وموقف صنهاجة منه

وقف البربر في طريق الفاتحين العرب لشمال افريقية، وحاولوا كلهم صدّهم إلا صنهاجة، فانهم لم يحركوا ساكنا. إلا أنهم في القرن الثالث هجري (التاسع ميلادي) أخذوا يظهرون على مسرح التاريخ حيث برزت على رأسهم شخصية تتمثل في مناد بن منقوش بن صنهاج، وكان مواليا للعباسيين وخاضعا للدولة الأغلبية الحاكمة بإفريقيا وشرق الجزائر الحالية باسم هؤلاء. ومناد هذا كان كبيرا في قومه، كثير المال والولد، حسن الضيافة لمن يمر به.

وحدث حادث خطير غير مجرى التاريخ اضطربت له البلاد ألا وهو ذلك الصراع بين الأموية والعلوية، وكان لكليهما أولياء ومناصرون. يعزو بعضهم هذا الصراع للعداوة المنيمة بين العلويين والأمويين، ويرى البعض الآخر أن العقائد هي محور دعوة كل من الفريقين، وما العواطف والعقائد لم تكن في الحقيقة إلا وسيلة لتقوية عدد المشايعين ولبسط النفوذ في أكثر ما يكون من المراكز في المغرب. وأبى الفاطميون إلا أن يكون نفوذهم ضاربا أطنابه على الأقل في المغرب الأوسط. فبادروا إلى الاستيلاء على تيهرت وسجلماسة لأنهما مركزان مهمان للتجارة تقصدهما القوافل من السودان والشرق. وهذه الحركة التجارية تدرّ على أصحابها الأموال وتستفيد منها الخزينة السلطانية.

والأندلس هي الأخرى كانت تستورد من الأسواق المغربية السلع ولا سيما الذهب الذي يأتي من بلاد السود عن طريق سجلماسة، ويصاغ في هذا البلد وفي أغمات وفاس ويصل إلى الأندلس عن طريق سبتة وتلمسان. فمن البديهي ان لا يرى الأمويون بعين الرضى أن يزاحمهم الفاطميون في ذلك. فلم يروا بدءًا من الوقوف في طريق التيار الشيعي وذلك باستجلاب قلوب المعارضين له من قبائل زناتة والأدارسة. فمدوا إذن لهم اليد فانضوا اليهم فيقوى بذلك جانبهم ويمكّنهم أن يقاوموا أعداءهم المضطهدين لهم. فأصبحت الحروب القائمة بين الفاطميين والقبائل الزناتية والأدارسة صراعاً بين الدولتين الفاطمية والأموية. فهيهات أن يكون سبب هذا الصراع الخلاف العقائدي. فالعقائد الشيعية والعقائد السنية ليست في الواقع السبب المهم في هذا الصراع. فالسبب الحقيقي هو التكالب على الاستيلاء على المدن ذات استراتيجية تجارية. فالدولة لا تكون قوية مزدهرة مهابة إلا إذا كانت غنية، والغناء لا يضمنه إلا الحركات الإقتصادية القوية المثمرة فالأمويون يريدون أن يكون لهم قوة عسكرية هائلة يذودون بها عن كيانهم ضد أعدائهم المتربصين لهم من الاسبان، وأن يواصلوا تشييد تلك الحضارة الأندلسية "الزاهية" فيفاخروا بها العباسيين. أما الفاطميون فيريدون أن يجمعوا ذخيرة مالية تمكنهم من القيام بفتح مصر ومن بسط نفوذهم في المشرق العربي ضد الخلافة العباسية. فالعباسيون استبدوا بالخلافة على حساب العلويين. فلا بد إذن، من إرجاعها لهؤلاء، فهم أحق بها، لأنهم من بيت علي الخليفة الشرعي. فسياسة الفاطميين لم تكن ترمي إلى الاستيلاء على المغرب العربي والتربع فيه على الدوام. فقد اتكأوا على قبيلة كتامة لتأسيس

دولتهم ولما استفحل أمر هذه الدولة مالت إليها قبائل أخرى منها مكناسة تاهرت، وكان رئيسها مصالة بن حبوس. فجعله الفاطمي، عبيد الله، واليا على تاهرت، وكانت الحالة السياسية مضطربة في المغرب وقتئذ فالحروب متواصلة بين الأدارسة ومناوءتهم النفوذ الشيعي لفائدة بني أمية متتابعة. فأمر الخليفة الفاطمي مصالة أن يجعل حدا لتصرفاتهم التخريبية بقطع دابرهم والقضاء عليهم. فقصده مصالة يحي الإيدريسي وأزاله ونصب في محله موسى بن أبي العافية واليا على شمال المغرب من الريف إلى وادي أبي الرقراق. أما سجل ماسة فعمل عليها المدراري. ولكن لم ترجع الجيوش العبيدية على قاعدتها بالمغرب الأوسط حتى قام الأدارسة يسترجعون ما سلبوا منه. فاضطر حينئذ الفاطميون، إرسال جيش آخر سنة 309هـ/921م نحو المغرب. فأخرج الأدارسة من تلمسان ومن قواعدهم الأخرى. ولكن لم تنطفيء نيران ثورة الأدارسة حتى عمد الأمويون إلى أوليائهم مغراوة وأغروهم بالثورة على مكناسة تيهرت فقتلوا مصالة بن حبوس فاغتاز الفاطمي لذلك وأرسل جيشا على رأس أبي القاسم بن المهدي. فزحف إلى مغراوة وأخرجهم من ديارهم ودخل تلمسان سنة 315هـ/927-928م.

وفي سنة 318هـ/931م، مال موسى بن أبي العافية إلى الأمويين. فأمر الفاطمي مكناسة تيهرت تحت رئاسة حامد بن يصلتين أبي أخي مصالة بمحاربة موسى بن أبي العافية الثائر على الدولة في المغرب وإخراجه من فاس. ولكن عبيد الله المهدي مات إثر ذلك سنة 322هـ/934م. فشجع موته موسى بن أبي العافية، فجسر على الرجوع إلى فاس كما جسر مغراوة على الإياب إلى المغرب الأوسط.

فإذن لابد من مسيرة أخرى. فكانت سنة 325 هـ/935 م تحت قيادة ميسور. فمال إلى هذا الأدارسة انتقاما من موسى الذي طالما نكل بهم، إلا أن موسى عند موت القاسم الفاطمي استولى على شمال المغرب وشتت شمل الأدارسة.

ولم تلبث مكناسة أن رفضت بدورها الطاعة للفاطميين. فالتأت الأمر على هؤلاء، فالمغرب الأوسط أصبح تحت نفوذ الأمويين. ولكن الفاطمي لم يبق مكتوف الأيدي أمام هذه الثورات التي قد تكون خطرا على كيان دولته. فخرج بنفسه سنة 315-316 هـ على رأس جيشه وزحف إلى مغراوة، ورئيسها حينئذ محمد بن خزر. فهزمهم ودفع جموعهم إلى الصحراء، ثم احتل تاهرت.

وإلى متى تبقى صنهاجة ملتزمة موقف الحياد اتجاه الأحداث الخطيرة التي تهمز المغرب منذ ظهور دعوة الشيعة؟ يقول ابن الأثير: "ان مناد ابن منقوش كان يقدم ابنه زيري في أيامه"⁽¹⁾ أليس هذا دليلاً على أن الفتى كان شجاعاً محنكاً؟ ولو لم يكن كذلك لما قاد كثيراً من صنهاجة وأغار بهم وسي⁽²⁾. ولا شك أن ابن الأثير يريد بقوله صنهاجة قبيلة تلكاة قومه لا أولئك الذين حسدوه على مآثره وحاولوا ان يقاوموه، ولكن بدون جدوى. ففتكاته ببعضهم أرغمتهم على الإذعان له والالتفاف به. وقد وصلت أخباره إلى زناتة، فتخوفوا منه وجمعوا له ليسيروا إليه ويحاربوه.

فبادر إليهم أن يستكملوا استعدادهم وهجم عليهم ليلاً بأرض مغيلة. فقتل منهم كثيراً ورجع مثقلاً بالغنائم وأخذ من خيلهم ثلاثمائة

(1) الكامل ج 8 ص 623 .

(2) نفس المصدر ص 623

فرس وزعها على أصحابه⁽¹⁾. وقد شاع خبر هذه المعركة، فذاع صيته بالمغرب الأوسط.

ولما استوثق الملك للشيعة بإفريقية تحيز إليهم انتقاما من خصومه زناتة ومدّ يد العون للفاطميين في قضية محمد بن خزر. فليس غريبا أن يكون ظهر له خصومه زناتة. فاستطال عليهم، فكثرت تبعه حتى ضاقت بهم أرضهم. فسألوه أن يتخذ لهم بلدا يجمع شملهم ويكون لهم حصنا حصينا. فلبى دعاءهم وسار بهم إلى موضع مدينة أشير فأعجبهم الموقع لخصائته ولما فيه من عيون دافقة. فاختطها زيري على قمة جبل يبلغ ارتفاعها حوالي 1400 متر عن مستوى سطح البحر وهي أعلى قمم الجبل الأخضر بتيطري وذلك في سنة 324 هـ⁽²⁾ / 935/936م، فالوقت حان لبناء قاعدة يدير منها شؤون قبيلته وتكون مقرا لحكمه. فأمر بإحضار البنائين من سوق حمزة والمسيلة وطبنة وبعث للخليفة القائم بأمر الله أن يرسل إليه مهندسا. فسر⁽³⁾ القائم وبعث له بمهندس لم يكن في إفريقيا أعلم منه. وكيف لا والخليفة في حاجة إلى من يرتكز عليه لضمان استقرار حكمه في المغرب الأوسط. والرجل الوحيد الذي يمكنه أن يعول عليه هو زيري الذي استفحل أمره واجتمع عليه خلق كثير.

(1) الكامل ج 8 ص 624 والنويري عن هادي روجي إدريس: المغرب الأدنى في ظل

زيري الجزء الأول ص 13 / و. ل. فلنان: المغرب الأوسط في عهد بني زيري ص 53

(2) النويري: عن إدريس الجزء الأول ص 15.

(3) الكامل ج 8 ص 624.

والمؤرخون والجغرافيون متفقون على أنه هو الذي أسس أشير.
فقال البكري: "إن الذي بنى أشير هو زيري والدليل على ذلك
الأبيات التالية التي هجا بها عبد الملك بن عيشون تلك المدينة
وبانيها".

يا أيها السائل عن غربنا وعن محل الكفر أشير
عن دار فسق ظالم أهلها قد شيدت للأفك والزور
أسسها الملعون زيرها فلعنة الله على زيري

وقال ابن عذاري في بيانه⁽¹⁾ "أما مدينة أشير فبناها زيري بن
مناد الصنهاجي" ثم ذكر نفس الأبيات التي زدنا بها البكري و لكنه
أبدل لفظة غرب بحرب في الشطر الأول للبيت. أما صاحب
الاستبصار⁽²⁾ فقال: "بناها زيري بن مناد الصنهاجي وتعرف بأشير
زيري". وقال النويري وسماها الإدريسي⁽³⁾ بأشير زيري. وقال
النووي⁽⁴⁾ وصل زيري مكان أشير وقال لأصحابه: "هذا هو المكان
الذي يلائمكم"، وأسس فيه مدينة. وقال ابن الأثير⁽⁵⁾: "إن تبع
زيري كثروا بعد انتصاره على زناتة"، فضاقت بهم أرضهم فقالوا له:
"لو اتخذت لنا بلدا غير هذا فسار بهم إلى موضع مدينة أشير
وسكنها وأصحابه" أما ابن خلدون فيقول: اختط زيري مدينة أشير
للتحصين بها، وحصنها بأمر المنصور الفاطمي.

(1) ج 1 ص: 61

(2) ص: 58

(3) وصف إفريقية الشمالية والصحراوية ص: 59

(4) انظر ماضي إفريقية الشمالية، القرون المظلمة ص 366 ل: قوتي

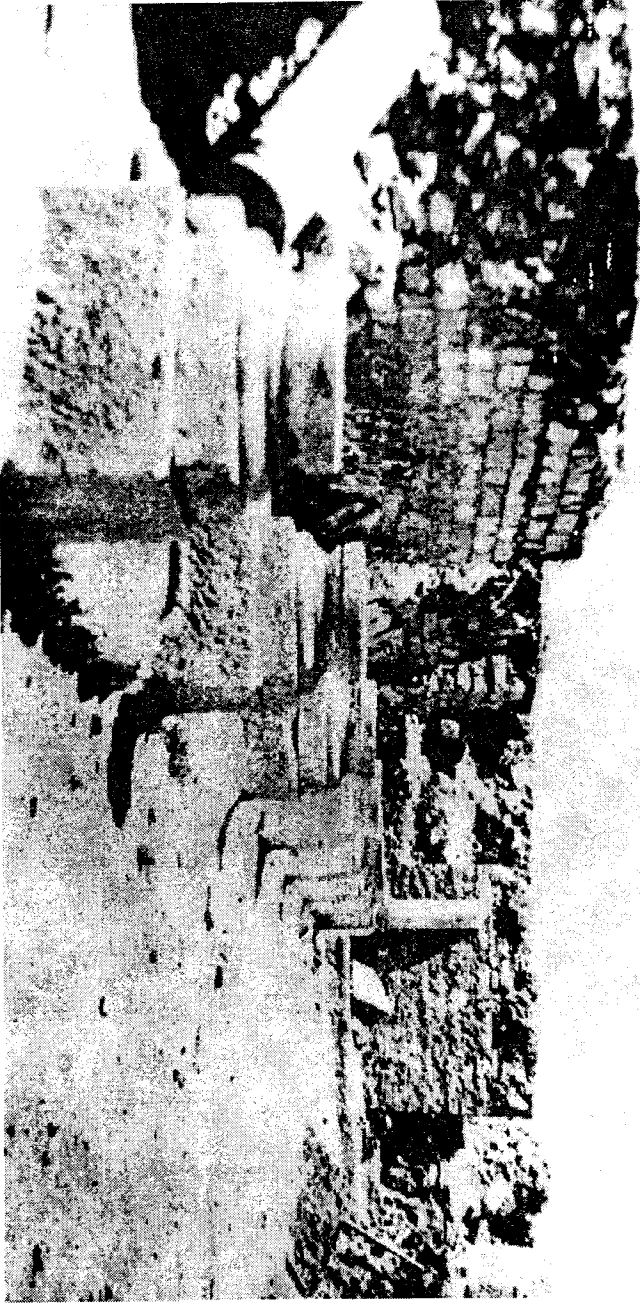
(5) الكامل: ج 8 ص: 47

فمدينة أشير أسست، إذن، في عهد زيري سنة 324 هـ ولم يقنع باختطاطها. فقد عمرها ونقل إليها السكان من الأقاليم المجاورة. فاتسعت خطتها واستبحر عمرانها ورحل إليها العلماء والتجار من القاصية⁽¹⁾. ويذكر النويري أن أشير شهرت بفقهاءها وعلمائها وتجارها⁽²⁾ ويخبرنا أيضا بأن سكانها في ذلك العهد، كانوا لا يستعملون الذهب والفضة في تجارتهم، بل كانت معاملتهم بالمقايضة. وهذا ما دفع زيري ضرب السكة. فأعطى جنوده مالا كثيرا ودفع لهم أجرهم في مواعيدها— مايفسر وفاءهم وإخلاصهم في الحروب — حتى أصبحت الدنانير والدراهم وافرة عند سكان المدينة. وسكنها بعده ابنه يوسف بلكين، وأضاف سنة 367هـ/377 — 378هـ— ماشيده أبوه فيها مباني جديدة توائم منزلته الجديدة حيث صار حكمه سائرا على إفريقية والمغربين الأوسط والأقصى، ثم نقل إليها أهل تلمسان سنة 361هـ/972م فبنوا مدينة سموها باسم بلدهم المحبوب. فأصبحت من أعظم مدن المغرب تحتوي على أشير زيري وأشير بلكين التي يطلق عليها اسم البنية. يخبرنا صاحب الاستبصار بأن بالقرب من المدينة بنيانا عظيما عجيبا يعرف بمحراب سليمان لم ير بنيان أعظم منه ولا أحكم فيه من الرخام والأعمدة والنقوش ما يقصر عنه الوصف. فلا شك أن ما رآه هو بقايا قصر زيري الذي جاء لتشييده بأمر البنائين والمهندسين والذي كان شبيها بقصر الخليفة بالمهدية.

(1) ابن خلدون

(2) أنظر ماضي إفريقية الشمالية، القرون المظلمة ص 366 لـ: قوتي، والمغرب الأدنى في ظل بني زيري، الجزء الأول ص 14 لهادي روجي إدريس، والمغرب الأوسط في عهد بني زيري ص 54 لـ. قلغان.

شكل 1 قصر زيري بأشير (عن الأستاذ قلفان)



فكانت أشير تقع بين جبال شامخة محيطة بها⁽¹⁾ لا تحتاج سوراً فزاد
بلكين في تحصينها ببناء سور بحيث لا يوصل إلى شيء منها بقتال إلا
من موضع يحميه عشرة رجال وهو في شرقيها الذي بنفذ إلى عين
مسعود، وسائر نواحيها تزل عنه العيون فكيف الأقدام⁽²⁾. وهذا
الموضع قد ذكره النويري⁽³⁾ أيضاً حيث يقول. "إن أشير مدينة حصينة
لا يوصل إليها من موضع من شرقيها يحميه عشرة رجال".

وتحصين المدينة أمر ضروري في ذلك الوقت نظراً للحروب
الباغثة القائمة في المنطقة بين صنهاجة وزناتة، إلا أن الماء أكثر
ضرورة، وأشير تحتوي على عيون ثرة⁽⁴⁾ ففي داخل المدينة عينان
(ثرتان) لا يبلغ لهما غور ولا يدرك لهما قعر⁽⁵⁾. فالمدينة في مأمن من
شر العدو الذي كثيراً ما يغير مجرى العيون فتصبح حياة السكان في
خطر. ويوجد أيضاً خارج المدينة وشرقيها عين ثرة تسمى عين مسعود
تساعد على ازدهار الزراعة في الناحية الخصبة. ذكر النويري⁽⁶⁾ أن
الشعوب الرحالة التي مساكنها بنواحي أشير رضيت بخدمة الأرض
نظراً لخصوبتها من جهة ولما يسودها من الأمن والاطمئنان في ظل
أميرها زيري من جهة أخرى. ويقول ابن حوقل⁽⁷⁾ "لمدينة أشير بساتين
وأراض تصلح للفلاحة".

(1) كتاب الاستبصار ص: 58.

(2) البكري،

(3) أنظر المغرب الأوسط في عهد بني زيري ص: 54 ل. قلقان،

(4) ابن حوقل،

(5) كتاب الاستبصار ص 56،

(6) النويري: انظر المغرب الأوسط في عهد زيري ص: 54 ل قلقان،

(7) ابن حوقل

بني زيري عاصمته، والتفت بعد ذلك إلى إنشاء، بل إلى إحياء مدن أخرى يدعم بها مملكته. فأمر ولده يوسف بلكين بتجديد بناء جزائر بني مزغنة والمدية ومليانة. فقد لعبت دورا في تاريخ البلاد. فلماذا لا تستأنف وظيفتها سياسيا واجتماعيا واقتصاديا؟

ثورة أبي يزيد

ساد المغرب نوع من الهدوء بفضل جيوش الفاطميين المظفرة وضرب زيري على يد عناصر الفساد والإضطراب في المغرب الأوسط. وما هي الا حتى اعتكر الجو وتكهرب بفتنة الخوارج. اندلع لهيب الثورة على يد أبي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي وليد مدينة توزر وذلك في سنة 316هـ/928م.

"كان من قبيلة بني جعفر من أحد بطون جانا. أبوه كان يسكن طقيوس، من أعمال قسطنطينية، وكان يذهب إلى السودان من قصد التجارة. اشترى بتاد مكة (أوتاد مكة) جارية تسمى سبكة. فولدت له ولدا أعرج له أمانة بلسانه فسماه أبا يزيد. فخطر بباله أن يذهب به إلى كوكو ويقدمه إلى عراف. ففحصه هذا وقال: "هذا الولد سيقع له أمور خطيرة، فسيصير يوما ملكا..." فسر الخبر ورجع به إلى طقيوس حيث مات⁽¹⁾. أما أبو يزيد فقد تعلم القرآن وخالط جماعة من النكارية. فمالت نفسه إلى مذهبهم. وكان مذهبه تكفير أهل الملة واستباحة الأموال والدماء والخروج عن السلطان⁽²⁾.

(1) القاضي عبد الله محمد بن علي بن حماد . (قد عثر العالم الفرنسي شيربونو على قطعة من كتاب هذا الأديب المؤرخ في تاريخ العبيدين وبعض دويلات المغرب العربي حتى سنة 612هـ/1220م، وقد تناول ثورة أبي يزيد وقد ترجمها اللغة الفرنسية في المجلة الآسيوية، السلسلة الرابعة ج 20 — باريس. وقد ترجمنا منها هذه الفقرة العربية لعدم وجود الأصل.
(2) الكامل ج 8 ص: 422 وكتاب العبر ج 7 ص 34

فقام على الفاطميين سنة 322 هـ / 943 — 944 م. فانتشرت دعوته في قبائل نفوسة وهوارة والزاب والمغرب الأقصى انتشار النار في الهشيم. وفي عهد القائم بأمر الله قويت شوكته وكادت جموعه تقضي على السلطان الفاطمي وأمكنه أن يعسكر بجندة على بعد خمسة عشر ميلا من المهديّة حتى غادرها كافة أهلها قاصدين طرابلس وصقلية ومصر عن طريق البحر⁽¹⁾ فلم يخطر حينئذ ببال القائم أحد غير زيري بن مناد الصنهاجي يستحنه على معونته. فكتب إليه يخبره بالخطر المحقق بعرضه وبما نال الناس في المهديّة من الجهد والغلاء من جراء الحصار. فلم يقرأ زيري الكتاب حتى أرسل عاصمة الفاطميين بألف رجل من الحنطة وأخرج إليها مائتي فارس وخمسمائة من عبيده، وذلك بدون أن يرجوا جزاء ولا شكورا. فإنه حليف وفي مخلص وعدو للشغب والاضطراب.

توفي الخليفة القائم في رمضان سنة 334 هـ، وخلفه المنصور. فقويت جيوش هذا وازداد عددها بانضمام قوة صنهاجة إليها وأصبح في إمكانه أن يصد زحف العدو، وأن يوقع بالجيش الخارجي كله. فقبض على أبي يزيد وبعث به إلى المهديّة، وهناك مات متأثرا من جراحه 30 محرم⁽²⁾ سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة⁽³⁾. ولما قام المنصور بمطاردة أبي يزيد في جبال القلعة ووصل إلى موضع يسمى قرية دمرة استقبله زيري بعساكر صنهاجة. فأكرمه المنصور وأحسن إليه.

(1) الكامل ج 8 ص 429 والمؤنس 55.

(2) المؤنس ص: 60 والكامل ج 8 ص: 441

(3) ابن خلدون ج 7 ص: 34

وحيث نازل المنصور أبا يزيد لقلعة كتامة جاء زيري قومه ومن انضم إليه من حشود البربر وعظمت نكايته في العدو، وقد طعن الخارجي. ولو لم ينقذه أصحابه لقضى عليه نهائيا. وكان الفتح وصحب المنصور إلى أن انصرف من المغرب. فوصله بصلات سنية، وعقد له على قومه، وأذن له في اتخاذ القصور والمنازل والحمامات بمدينة أشير وعقد له على تاهرت وأعمالها⁽¹⁾ فالحق أن زيري كان أهلا لهذا كله. فلولا له لما استطاع الفاطميون أن يقهروا ذلك الخارجي وأن يأتوا على ثورته التي هددت كيانهم.

انتقض حميد بن يصلتين، عامل المغرب، واخرف عن طاعة الشيعة ودعا للأمويين وزحف تاهرت، فحاصرها. فنهض إليه المنصور في صفر 336هـ—/947م، وجاء سوق حمزة⁽²⁾. فأقام بها وكان مصحوبا بزيري بن مناد في جمع صنهاجة، فأخرج حميد بن يصلتين عن تاهرت وعقد عليها ليعلى بن محمد اليفرني، وعقد لزيري بن مناد على قومه وعلى سائر بلاد صنهاجة. ثم رحل المنصور إلى القيروان بعد أن خلع على زيري وحمله.

وفي سنة 343هـ، استقدم المعز لدين الله زيري بن مناد أمير صنهاجة. فقدم من أشير، فأجزل صلته وردّه إلى عمله بأشير، وكان وقتئذ على تاهرت وايفكان يعلى بن محمد اليفرني وعلى المسيلة وأعمالها جعفر بن علي الأندلسي، وعلى باغاية وأعمالها قيصر الصقلي، وكان على فاس أحمد بن بكر بن أبي سهل الجذامي، وعلى سجلماسة

(1) ابن خلدون: كتاب العبر ج 6 ص: 313

(2) البويرة الآن

محمد بن واسول المكناسي. فبلغ الخليفة سنة 347 هـ أن يعلى بن محمد اليفرني داخل الأموية وأن أهل المغرب الأقصى نقضوا طاعة الشيعة، فأمر وزيره وقائده جوهر الصقلي أن يخرج اليهم. ففعل ومعه جعفر بن علي صاحب المسيلة وزيري بن مناد صاحب أشير. فأول مرحلة كانت تاهرت. فتلقاهم يعلى بن محمد مخفيا طوينه. ولما ارتحل الجيش إلى ايفكان تقبض جوهر على يعلى وقتله، ثم أمر بهدم ايفكان وحرقتها بالنار. وكان ذلك في جمادى الأخيرة وأسر يدو بن يعلى. فهكذا خلا الجو لزيري في المغرب الأوسط. ثم تمادى جوهر إلى فاس. إلا أنه لم يتم فتح هذه المدينة فتجاوزها إلى سجلماسة، وكان صاحبها محمد بن واسول. فقد تلقب بالشاكر لله ولا يخاطب بأمر المؤمنين، وضرب السكة باسمه. ولم يزل ملكا مستقلا مدة ست عشرة سنة، فسمع بمجيء جوهر اليه. فهرب، لكنه لم يفلت؛ فلقيه أعداء له، فأخذوه أسيرا وحملوه إلى جوهر.

ثم واصل هذا سيره حتى انتهى إلى البحر المحيط. فأمر أن يصطاد له من سمكه. ففعلوا فجعل السمك في قلال الماء وحمله المعز يرمز بذلك إلى أن نفوذ الشيعة يمتد من البحر المتوسط إلى البحر المحيط لا يعارض الخليفة أحد في إمبراطوريته. وفتح كل بلد مر به. ثم عاد إلى فاس. فقاتلها مدة طويلة ولم يقدر عليها. فقام حينئذ زيري بن مناد، فاختار من قومه رجالا أشداء وأمرهم أن يأخذوا السلايم، وقصدوا البلد. فصعدوا على السور الأدنى وأهل فاس آمنون. فقتلوا الحراس ونزلوا السور الثاني وفتحوا الأبواب وأشعلوا المشاعل، وضربوا الطبول، وكانت الإمارة بين زيري وجوهر. فلما سمعها هذا ركب في

العساكر ودخل فاس. فاستخفى صاحبها أحمد بن بكر بن أبي سهل الجذامي لكنه أخذ بعد يومين وجعل مع صاحب سجلماسة. وكان فتحها في رمضان سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة (348هـ) وولى على فاس من قبله، وطرده عمال بني أمية من سائر المغرب وأعطى تيهرت زيري بن مناد، وحمل الأسيرين في قفصين، وانقلب إلى القيروان ظافرا عزيزا.

فبسيرته عاد النفوذ الفاطمي على جميع المغرب باستثناء طنجة وسبتة التي تحصنت بهما الأموية.

إلا أن رغم الجهود التي قام بها جوهر وزيري، فلم يصف الجو تماما في المغرب. لم تلبث مغراوة أن تحركت تحت ضغط الحكم الأموي وأخذت تدعو له على حساب الفاطميين وتتنح في الشيعة كلما سنحت لها الفرصة ورئيسها حينئذ محمد بن الخير بن محمد بن خزر. فأهم المعز لدين الله أمرهم وبادر إلى حسم الداء قبل استفحاله، فأوعز الخليفة إلى زيري بن مناد أن يقوم لهم فيحبط أعمالهم ويشتت شملهم. فأمدّه بالأموال والعساكر وعقد له على المغرب وأقطع له ما قد يفتح من أقطاره. فلبى زيري في الحين أمر الخليفة وجيش جيشا سنة 360 هـ (971م) وجعله تحت قيادة ابنه بلكين. فأعدوا السير نحو العدو وهجموا عليه قبل استكمال التهيئة فدارت بين الفريقين حرب ضروس بعد العهد بمثلها في ذلك الوقت⁽¹⁾. فالقضية قضية حياة أو ممات بالنسبة لزناتة. وما هي الا حتى اخلّ مصاف مغراوة وأحلافهم من زناتة. فأيقن رئيسهم محمد بن الخير بأن لا مفر له من الهلك، فمال ناحية

(1) ابن خلدون : كتاب العبر ج 6 ص: 315.

من العسكر وتحامل على سيفه، فذبح نفسه. فزاد موقفه هذا الطين بلة، ففشلت زناته، وانفض جموعها، وهلك منهم بضعة عشر أميراً، وبعث زيري برؤوسهم إلى المعز لدين الله بالقيروان. فعظم سروره لها وغم لها الحكم المستنصر بالأندلس. فأصبح إذ ذاك المغرب الأوسط في قبضة زيري بن مناد، وطار صيته. فعلت بذلك يده على جعفر بن علي صاحب المسيلة والزاب وسما به في الرتب عند الخليفة وتآخه في العمالة⁽¹⁾. فساء ذلك جعفراً، وكانت بينهما محاسدة وضغائن في النفوس بسبب الولايات⁽²⁾ قد أمر المعز ببناء دار رابح بالقيروان. وكان قد عزم على أن يستخلف جعفراً على إفريقية وزيري بن مناد على المغرب عند اللحاق بمصر. فقد شاع بين الناس أن هذه الدار سيسكنها جعفر. وأما زيري فله قصره بأشير فمنه يدير شؤون المغرب الأوسط. إلا أن جعفراً قد سعى به عند الخليفة المعز لدين الله أنه يميل المروانية والموالين إليها من مغراوة. جاء في المقتبس لأبي مروان بن حيان القرطبي أن محمد بن يوسف بن عبد الله الوراق الحافظ لأخبار المغرب قال: (لما قتل محمد بن الخير) أخذ له زيري فرسا من عتاق الخيل كان معد بن اسما عيل قد حمل عليه جعفر بن علي، فأهداه جعفر إلى محمد بن الخير، فأرسل به زيري إلى معد، وبعث إليه يكتب أصابها في بيت ابن خزر بخط جعفر بن علي يכתب بها زناته ويطلعهم على عورات زيري ويحذرهم منه متى اطلع أنه يريداهم. فبلغ من معدّ أشد مبلع، وتكلم في جعفر أسوأ الكلام، وتهدده بالقتل. فبعث بعض المقدمين عنده معلماً له بذلك. وكتب معد جعفر بعزله عن المسيلة ويأمره بالقول

(1) نفس المصدر جـ 315

(2) ابن أبي دينار: كتاب المؤنس ص: 72

إليه بجميع أهله وولده وماله حضرته، وكتب إليه في فصل من كتابه يعزيه عن محمد بن الخير خليله متقرعا إليه، ويخبره عن الفرس التي ذكرنا صرف زيري إليه. فقال له: "أعظم الله أجرك في خليلك، فقد أجاد قتالنا على الفرس الذي كنا حملناك عليه وآثرناك به على أنفسنا".⁽¹⁾ فاستراب جعفر ولم يسنجب. ثم أرسل إليه الخليفة ثانية فرجا الصقلي. بينما كان هذا في طريق نحوه وعلى مرحلة للوصول إليه خرج جعفر من المسيلة بعسكره وسلاحه وأمواله وذويه متظاهرا بالمسير القيروان تلبية لدعوة الخليفة، ثم غير اتجاهه وفر إلى مغراوة "وخلع الطاعة وأظهر أن الذي حملة على ذلك عداوته لزيري بن مناد مجاوره في عمل المغرب لتحامل زيري، عليه واذاه له في عمله واجحافه على قبائل البربر الذين في عمل المسيلة"⁽²⁾. وكان الزناتيون يستعدون لأخذ الثأر من صنهاجة وحضور جعفر كان لهم فرصة سانحة لجمع شتاتهم والمهجوم على عدوهم، وكان جعفر قائدا خبيراً. فاشتملوا عليه، وألقوا بيده زمام أمرهم، وقاموا جميعاً يناوؤون الفاطميين. فأبى المعز لدين الله أن تقوى شوكة زناتة فتستولي على المغرب وإفريقية من بعده، ولم يشك فيما اتهم به جعفر. فأمد زيري بن مناد بالأموال والعساكر وسوغه ما تغلب عليه من أعمالهم. فنهض زيري، وهو على غاية الثقة بنفسه ومن معه بجمعهم، وابنه الأكبر يوسف، فارس كتيبته ومدبر حربه، غائب بقاصية عمله⁽³⁾. فزحف على أعدائه. فاشتبك الفريقان بالقرب من ملوية يوم الخميس لعشر خلون من شهر رمضان سنة 360هـ.⁽⁴⁾ وأقبل زيري وهو إلى حام مغضب ليحرك الرجال ويذمر

(1) المقتبس في بلد الأندلس ص: 36.

(2) جعفر الجزائر: التعريف في أخبار أفرقية

(3) بأشير / (4) محمد بن يوسف بن عبد الله الوراق: المقتبس ص: 36

الأبطال على الإقدام وتوسط المأقط بفضل ما فيه من الشجاعة والجرأة، فكبا به فرسه.⁽¹⁾ فسقط، فوثبوا عليه وقتلوه وحزوا رأسه تشفيا منه ورؤوس كثير من أصحابه الأبطال.

ويخبرنا عيسى بن أحمد بن محمد الرازي أن لم يحز رأس زيري ورؤوس أعلام أصحابه حتى بادر بإرسال كاتبه إلى البغدادي الأندلس بكتابه الخليفة (الحكم) ملقيا بنفسه اليه معتصما بدعوته راغبا في تقبل فيئته وانزاله منزلة من اعترف لحقه واهتدى بهديه. فوافى كتابه ذلك على باب الخليفة الحكم المستنصر.⁽²⁾ أجمع جعفر وحلفاؤه على ان يبعثوا بالرؤوس الحكم. فخرج بها وفد من أمرائهم "مزدلفين بصنعهم داعين تقريهم"⁽³⁾ وكان مقدم الوفد يحيى بن علي أخا جعفر. فلما كان يوم السبت لست بقين من شوال خروج ناجيت بن محمد وأحمد بن عبد الملك بجانة لتلقي يحيى بن علي و من معه من اهله ومن بني خزر الوافدين معه ومعهما 68 فرسا لركوبهم. وفي يوم الاثنين لثلاث خلون من ذي القعدة سنة 360 هـ خطب القواد والعمال إلى بكور الأندلس المجندة في استقدام بياضها وأعلام رجالها لمشاهدة دخول يحيى وبني خزر القادمين برأس زيري ورؤوس أعيان أصحابه.

قد لحقت جعفرا في مقامه لدى زناته مخافة من مكرمهم وشرهم فأعمل الحياة في باطنه حتى انحاص إلى الأندلس، فعبّر البحر في مركب اتخذ عدة لنفسه فتم له⁽⁴⁾ ذلك ووصل الأندلس ونزل بمرسى بزيلانة من عمل كوره رية ومعهم اهله وولده ووجوه رجاله المختصين به وثقة

(1) أبو جعفر بن الجزار: التعريف في أخبار إفريقية (المقتبس: ص: 37)

(2) عيسى بن أحمد الرازي: المقتبس ص: 39

(3) و(4) أبو جعفر بن الجزار: التعريف في أخبار إفريقية . المقتبس ص: 38

مواليه وعبيده مملصا عن برابر زناته مستعجلا إلى جوار الخلافة يوم الجمعة لسبع خلون من ذي القعدة سنة 360هـ. فظهر العمل في التاهب إلى لوروده و إلى الاستعداد لتلقيه.⁽¹⁾ فلما ان كان يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة من نفس السنة خرج صاحب السكة والمواريث وقاضي اشبيلية محمد بن ابي عامر فتى الدولة، لتلقي جعفر بن علي ومعه 14 من عتاق الخيل وبغل اشهب و50 فرسا من جياذ خيل الجند حملانا لفرسانه ومائه زاملة لاحتمال أثقاله، وخرجت عدة من البغال الظهيرة محملة عدتها من العماريات والهوارج المثقنات الصناعات لصيانة عيال جعفر فيهن في طريقه إلى الحضرة.

وأمر الخليفة المستنصر بالله غداة يوم الثلاثاء لخمس بقين من ذي القعدة مولاه أحمد بن سعد الجعفري صاحب الشرطة العليا بالنهوض فيمن استركب معه من طبقات الجند والوفود والحرس في التعبئة بالعدة الكاملة إلى مكان اضطراب جعفر ويحي ومن معهما من بني خزر بمحلة فحص السراق وإدخالهم قرطبة والتقدم بهم عنها المنية المنسوبة إلى ابن العزيز. فأحكم ابن سعد العمل. فاندفع الأجناد من قصر الزهراء، فانتهوا مظل الرئيسين جعفر ويحي وقد رفع إزاءه رأس زيري بن مناد في قناة عالية وحفه برؤوس أصحابه الغلاة المحليين لأهل السنة في حراب سامية توفي عدتها مئة رأس. فتناولها فرسان الحرس المأمورون لحملها عندما عهد أحمد بن سعد إلى جعفر ومن معه بالركوب. فركب جميعهم وحفهم أصحاب السلطان المرسلون. ولما انتهوا باب السدة من قصر قرطبة استقبلهم هناك من تعبئة المحارس

(1) عيسى بن محمد الرازي (المقتبس ص: 41).

والعرفاء المدرعين ورجالات الأرباض بقرطبة. وتقدم الحفل إلى قصر الخليفة بالزهراء. فخرج الفتیان الكتاب اليهم بالإذن في دخولهم. فتقدموا وتقدم بهم محمد بن أبي عامر، فنهضوا داخلين أن صاروا في السطح العلي ثم استنهضوا إلى المجلس الذي قعد فيه الخليفة. فلما انهضوا بابه قبلوا البساط مرة بعد أخرى. ثم تقدم بهم إلى السرير وناولهم الخليفة يده. فتقدمهم جعفر بالتقديم والتسليم، ثم تلاه يحيى أخوه، ثم قدم بنو خزر الأسن فالأسن. فأمرهم الخليفة بالقعود إكراما لهم. وشافه الخليفة جعفرا قبلهم، فأوسع يسأله عما لديه، وبسطه، وفعل ذلك بأخيه يحيى وبني خزر أصحابهما، ونطق بتقبيل نزوعهم وتحقيق رجائهم. ووعدهم بالإحسان إليهم والتشريف لهم. فأعلنوا الشكر، واستهلوا بالدعاء واكثروا من الثناء، وحمدوا الله على ما منحهم إياه وألهمهم له من تجديد إسلامهم، وتأكيدهم إيمانهم، في قصدهم حرم أمير المؤمنين وإسنادهم عز سلطانهم ونبذهم لدعوة الضلال وشيعة الكفار واعتياضهم من ذلك بالسنة والجماعة والعز والطاعة.

وانطلقت الجماعة من المجلس عند انتهائه. فصاروا إلى مقعدهم الأول في مجالس الجند ومحمد بن أبي عامر وصحبه الموكلون بهم لا يفارقونهم إلى أن ركب بهم صاحب الشرطة العليا القائد هشام بن محمد بحضرتهم إلى منصرتهم. فخرجوا من قصر الزهراء مع هشام بن محمد والترتيب الذي جاؤوا فيه على هيئته. فبلغوا زعيمهم جعفر بن علي دار يوسف بن علي بن سليمان التي أنزل فيها أهله وثقله، ونهضوا بأخيه يحيى إلى دار قاسم بن يعيش، وانتهوا ببني خزر إلى دار إبراهيم الفتى الخليفة الموسومة. ولما استقر جعفر ويحيى بداريهما

واطمأنا فيهما عهد أمير المؤمنين بإجراء ألفي دينار دراهم على كل واحد منهما للشهر ومن القمح لنفقاتهما لكل شهر لكل واحد منهما سبعين مديا توسعة عليهما، وأخرى أيضا على بني خزر من الدنانير والقمح والعلوفة ما يفيض ولا يغيض. والشعر في وصف هذا اليوم كثير⁽¹⁾.

فذلك الاستقبال الرسمي الرائع الذي خص به جعفر وأخوه وأشراف خزر إن دل على شيء، فإنه يدل على شدة فرح الحكم لزوال زيري. ولا غرو فإن هذا الأمير كان حجر عثرة لبسط نفوذ الأموية في المغرب حيث كان الساعد الأيمن للدولة الفاطمية. إلا أن قتله لم يجعل حدا لمعارضة ومقاومة النفوذ المروانية بالمغرب، فقد خلف ابنه يوسف الذي قام بأمره من بعده، وقام التيار الأموي، ومحا أثره من سبته وأجلى زناته ما وراء ملوية كما سنرى بعد. وشد ما كان فرح جعفر بن علي بذلك الاستقبال أيضا، ولكن، كما تدين تدان. فقد حز رأس زيري في المغرب. فكفر عن ذلك بالمثل، فحز رأسه مع بن عبد العزيز التجيبي، فارس العرب في الأندلس، مع طائفة من أصحابه الأندلسيين بأمر المنصور بن أبي عامر في ليلة الأحد ثالث شعبان سنة 372هـ (31 يناير 983م)⁽²⁾.

فهكذا هلك زيري الشجاع المقدام الذي طالما سعى في نشر الأمن وتطهير البلاد من عناصر الفساد والاضطراب والذي أخذ في تعمير

(1) المقتبس في أخبار بلد الأندلس لأبي مروان بن حيان القرطبي ص: 52

(2) تاريخ العرب في اسبانيا: عنصر المنصور الأندلسي لخالد الصوفي ص 93.

رقعته وفي مسيرها نحو تأسيس قواعد دولة ستبسط نفوذها في المغرب كله وحتى في الأندلس بغرناطة وألبيرة. توفي ذلك البطل سنة 360 هـ - لست وعشرين سنة من ولايته، ولكن، لم يمت ذكره، وبقيت مآثره يتحدث عنها الأجيال.

وسبق أن قلنا ان يوسف بلكين كان بأشير حين قضى على أبيه. فلم يطرق أذنه خبره حتى نهض يطالب بدمه. فخاف الزناتيون وأظهروا الغدر بجعفر، فأصبح هذا بين نارين ولم يسعه الا أن يعبر البحر ويلحق بسدة الخلافة الأموية مرفوقا بعظماء بني خزر الذين أعطوه الصفقة على القيام بدعوته. فهكذا نجوا جميعهم ولكن قومهم لم يفلتوا من فتكاته. فعقد له المعز على حربهم واستئصالهم وأمدّه بالأموال والعساكر وسوغ له ما تغلب عليه من أعمالهم. فنهض في خريف سنة 360 هجرية (971م) في جيش قوي لم ييح لمن حضرو الموقعة التي قتل أثناءها زيري، الانخراط فيه لأنهم في نظره غير أوفياء إذ لم يضحوا في سبيل إنقاذه من يد العدو. تقرى أقاليم طبنة وباغاية والمسيلة وبسكرة، فأرغم مزاة ونفزاوة وهوارة على الطاعة والولاء للفاطمين، وتقدم تاهرت، فمحا أثر زناتة، ثم واصل زحفه نحو المغرب الأقصى تابعا آثار الخضير بن محمد وقومه. فلحقهم بسجلماسة، فأوقع بهم وتقبض على رئيسهم فقتله، وبقي ثلاثة أيام في ساحة الوغى حتى اشتكى الناس من رائحة الجثث، وأمر أن تكون أثافي قدورهم من رؤوس القتلى، وأن تجعل الجثث أكواما يصعد عليها المؤذنون ليؤذنوا للصلاة⁽¹⁾. فخاف المدراري صاحب المدينة وبايع للفاطمين.

(1) النويري: أنظر المغرب الأدنى في ظل بني زيري الجزء الأول ص37 لهادي روجي إدريس.

وبعد أن ثأر بلكين لأبيه وقومه تمادى في فتحه مواطن زناته حتى يستأصلهم. فبادرت مكناسة إلى الاعتراف بالزيرين والدخول تحت حمايتهم. ثم انكفأ بلكين راجعا، ومر بالمغرب الأوسط. فاستلحم بوادي زناته ومن إليهم من الخصاصين. واتصلت أخباره بالخليفة. ففرح وتأكد له أنه الرجل الوحيد الذي يمكنه أن يلقي على عاتقه عبء ولاية افريقية والمغرب عند مغادرته لهما. فعزم على استخلاف سيد صنهاجة التي وقفت إلى جانب الدولة الفاطمية في أحلك الأوقات. وريثما يعلن له بذلك عقد له على عمل أبيه بأشير وتاهرت وسائر المغرب، وضم إليه المسيلة الزاب وسائر أعمال جعفر. فاتسعت ولايته وعظم شأن آل زيري.

انتقال السلطة من الفاطميين الصنهاجين

وفي شهر محرم من سنة 361 هـ كتب المعز لدين الله إلى يوسف بلكين يستدعيه إلى القيروان، وأمره ألا يقوم بحملات عسكرية أخرى وألا يشغل بقتال أحد ولا يتعرض لزناته ولا لغيرها في ذلك الوقت ونصحه أن يستعمل الرفق واللين بزناته وأن يرد لهم ما سبي من نسائهم وأولادهم حتى يخفف من حقدهم وغضبهم على بلكين وبالتالي على الدولة الفاطمية التي يتفانى في توطيد أركانها بالمداينة واللين حيناً وبالقوة والعنف أحيانا ، فمرحلة انتقال السلطة من الخليفة بلكين تقتضي التظاهر بالكياسة والرفق بالرعية والسعي في خير جميع عناصرها وطبقاتها. فامتثل بلكين لأوامر الخليفة ورد على زناته سبائهم.

ثم عين عمالا من عبيده على مختلف الأقاليم والمدن الواقعة تحت نفوذه. فقصده عند ذاك قاعدة المعز. فدخل عليه فأكرمه وأثنى عليه وحمد أفعاله وذكر له اختياره لتدبير شؤون افريقية والمغرب بعده.

فقال بلكين: "يا مولانا"، أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما صفا لكم المغرب فكيف يصفو لي وأنا صنهاجي بربري؟"⁽¹⁾.

فألح عليه المعز فقبل بلكين. الا أنه لم يجعل له حكما على جزيرة صقلية ولا على مدينة طرابلس الغرب ولا على أجدبية وسرت. فعين على صقلية حسن بن علي أبي الحسين وعلى طرابلس عبد الله بن يخلف الكتامي، وكان أثيرا عنده. وجعل على جباية أموال افريقية زيادة الله بن القديم وعلى الخراج عبد الجبار الخراساني وحسين بن خلف المرصدي وأمرهم بالإنقياد ليوسف بن زيري⁽²⁾ فإن إسناد هذه الوظائف غيره يشكل قيذا. ولكن لم يضق به لأن الفاطميين كانوا أصحاب فضل فيما وصل إليه بنو زيري من عزة وسلطان⁽³⁾. فتم تسليم الحكم رسميا إلى بلكين لسبع بقين من ذي الحجة من سنة 361هـ/5 غشت 972م⁽⁴⁾. وقد سماه الخليفة يوسف بدلا من بلكين وكناه أبا الفتوح ولقبه بسيف الدولة وجعل خاتمه في يده⁽⁵⁾. ثم خلع عليه كسوته التي كانت عليه وأمر أن يحمل بين يديه عند خروجه من عنده

(1) المقرئزي: اتعاظ الخنفاء ص: 64 والخطط جـ 1 ص: 352.

(2) الكامل جـ 8 ص : 46

(3) تأريخ الفاطميين لحسن ابراهيم حسن

(4) النويري وابن أبي دينار وعبد الرحمان الجليلي وغيرهم متفقون على أن تسليم الحكم

قد تم رسميا لبلكين في ذلك اليوم .

(5) ابن الأثير: الكامل .

أربعون تخنا من فاخر الكساء ومعها رزم مما يخلع على أصحابه، وقادوا بين يديه أربعين فرسا بسروج الذهب المثقلة. فكانت هذه الهدية في محلها ووقتها. فأبى بلكين إلا أن تكون هديته في محلها ووقتها كذلك، فقاد إلى المعز حينما عزم على الرحيل إلى مصر ألفي جمل لحمل أمواله وكان بعض هذه الجمال من ابل زناتة.

وفي يوم الإثنين 13 من شهر شوال لا يوجد فيه 31 يوماً سنة 361هـ / يوليو 971م، غادر الخليفة المعز مدينة المنصورية وقال لبلكين عند وداعه: "أترك لك زيادة الله بن القديم عوناً لك على جمع الأموال وأوصيك بأن لا ترفع الجباية على البلاد ولا ترفع السيف عن البربر ولا تول أحداً من أهل بيتك، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك"⁽¹⁾. فودعه بلكين ورجع المنصورية يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة 362هـ". فترل بقصر السلطان. وخرج إليه أهل القيروان". وهنأوه وأظهروا الفرح بقدمه. فالعبء ثقيل يتطلب اليقظة والحزم والعزم والنظام الدقيق. فأخذ في تنظيم الأمور السياسية والجباية في جميع الأقاليم، وعقد الولايات للعمال، ثم راح يجول في عرض البلاد يطيب قلوب الناس. إلا أن البربر كانوا خاضعين رهبة لا رغبة، وبلكين على بينة من ذلك. فإنه يعرف نفسية البربر لكثرة احتكاكه بهم، فإن روح العصبية تسيطر على عقليتهم وحركاتهم. فهم في نظرهم أهل للسيادة كغيرهم، فلماذا يفرضون عليهم إرادتهم ويستأثرون وحدهم بالجاه والنفوذ؟ فلماذا نرى انتقال السلطة إلى يد الزيريين يثير حقدهم فيقومون بانتفاضات في مختلف الجهات. وثب أهل

(1) النويري وابن أبي دينار وإعلام الأعلام وعبد الرحمن الجليلي وهادي روجي ادريس، لـ، قلقان.

باغاية على عامل أبي الفتوح فقاتلوه وهزموه. فسير لهم جيشا فقاتلهم فلم يقدر عليهم، فأرسل إلى يوسف يعرفه الحال. فتأهب يوسف وجمع العساكر ليسير اليهم. فبينما هم في التجهز اذ أتاه الخبر عن تاهرت أن أهلها قد عصوا وخالفوا وأخرجوا عامله، فرحل إلى تاهرت فقاتلها، فظفر بأهلها وخرّبها. ولا زالت أخبار الفتن ترد عليه. فلم يبارح تلك المدينة حتى اتصل به أن زنّاة نزلوا على تلمسان فقصدها، ولم يدن منها حتى هربوا. ولكن المدينة لم تفتح أبوابها له. فحاصرها حتى استسلم أهلها ونزلوا على حكمه. فعفا عنهم، إلا أنه أمرهم بانتقالهم إلى اشير قاعدة الزيريين، فامثلوا وبنوا مدينة بجانب آشير سموها تلمسان. ولم يقنع بلكين بذلك. فأصدر أمرا صارما يحرم على كل زناقي ركوب الخيل وشراءها ويحكم بالموت على من سولت له نفسه مخالفة ذلك الأمر. فأقفر المغرب الأوسط حينئذ من زنّاة وساروا إلى ما وراء ملوية من بلاد المغرب الأقصى، وذلك في سنة 362هـ. ولكن بلكين لم يجر في إثرهم. فالخليفة أمره ان لا يتوغل في المغرب. فانكفأ راجعا ومر بباغاية، فاستولى عليها وولى قاعدته قبل صفر سنة 363هـ / نوفمبر 973م.

فلاحظ أن أبا الفتوح هجم على المغرب الأوسط مرتين دون أن يفكر في أبعاد غزواته. فقد أضعفه أثناءها بشريا ومن ثم اقتصاديا. فخلت الأرياف من السكان، فتوقف بذلك النشاط الفلاحي زراعا وضرعا وكسدت الأسواق، فلم يعد يقصدها التجار لعدم من يساومهم. فصارت للقوافل طرق أخرى تذهب من افريقية إلى السودان ومصر على حساب المغرب الأوسط فازدهرت التجارة

والفلاحة في افريقية وعمها الرخاء وامتألت الخزينة السلطانية بما يرد عليها من الضرائب والإتاوات حتى صارت ثروة الدولة الإفريقية يضرب بها المثل. والأندلس هي الأخرى انكملت حركاتها التجارية. فالمغرب صار في قبضة الشيعة باستثناء سبتة. ولكن، متى تبقى منعزلة و متى أيضا تبقى زناتة طريدة متبددة محرومة من السيادة؟ فلا بد من ان تسترجع هذه مكانتها وأن تستأنف الأخرى نشاطها السياسي لبسط نفوذها من جديد في المغرب. فقاتلوا الأدارسة. وفي سنة 365هـ / 975م، كلفوا جعفر بن علي وأخاه يحي أن ينتقلا إلى المغرب ويؤلفا جيشا من المغاربة . فرحب بهما الزناتيون وأعانوهما على مهمتهما. وعند موت الحكم الثاني 366هـ / 976م، بايع زيري بن عطية المغراوي وأخوه مقاتل ويدو بن يعلى رئيس يفرن ومكناسة للمنصور بن ابي عامر، وكان هذا يعمل ما في وسعه لتقوية السياسة الزناتية ويحصن سبتة. إلا أنه وقع انشقاق بين جعفر وأخيه يحي. فاستولى هذا على البصرة، وأما الآخر فأراد الاستيلاء على إمارة البرغواطيين. فهجم عليهم. فكانت الدبرة عليه. ولم يلبث أن عاد إلى الأندلس تاركا زمام الأمر لأخيه يحي سنة 367 هـ / 978م. وفي شعبان تلك السنة هجم خزرون بن فلفون بن خزر الزناتي على سجلماسة وقتل صاحبها المدراري وبعث برأسه إلى قرطبة. الا أن حملة بن بلكين بن زيري على المغرب الأقصى التي قام بها سنة 368 هـ / 979م أحبطت سياسة الأندلس. أما بلكين فبعد عودته من المغرب الأوسط جعل على ولاية القيروان وصبرة جعفر بن قمرت، لكنه مات في جمادى الثانية من سنة 363 هـ / 974م. فأخبر زياد الله بن القديم يوسف بالحادث وسأله أن يرسل إليه من يخلفه، فعين عبد الله بن الخطيب

التميمي واليا على افريقية، وكان أدبيا كاتباً بارعاً يحسن اللهجة البربرية، وقد كتب لزيري بن مناد. ولما ولي بلكين احتفظ به وقربه. وبتوالي الأيام جرى بينه وبين زيادة الله بن القديم منافسة صارت محاربة أسفرت عن إلقاء هذا في غياهب السجن أن توفي يوم الأربعاء 11 جمادى الأولى 366 هـ/977 م. وكان بلكين مائلاً مع عبد الله. وكان من أصحاب زيادة الله المساعدين له خلف بن حسين، صعد إلى قلعة منيعة، فاجتمع له خلق كبير من البربر الناقمين على السلطة. فسمع بذلك يوسف. فسار اليهم. ففرض عليهم، وأخذ خلفاً وأمر به فطيف به على حمل، ثم صلبه وبعث برأسه إلى مصر مشفوعاً بستة آلاف رأس، يريد بذلك أن يعبر للخليفة الفاطمي عن تفانيه في فرض الطاعة والولاء على أهل المغرب بكل ما استطاع إليه سبيلاً فيكون على حسن الظن به فيرضى عنه. فلما سمع أهل باغاية بذلك خافوا، فصالحوا يوسف ونزلوا على حكمه. فأخرجهم من حاضرتهم وخرب سورها⁽¹⁾.

بعث أبو الفتوح هدايا للمعز، فإذا به أخبر بموته، وذلك في ربيع الثاني من سنة 365 هـ/976 م. فأمر القافلة بالعودة، وكانت قد وصلت إلى طرابلس. وأرسل هدايا أخرى إلى العزيز. فرجع رقادة بعد تشيعها. فتلقيها أهلها فرحين. وما هي حتى وردت عليه من الخليفة دنائير مضروبة باسمه تعامل بها الناس وعقد له على الولاية.

أمر بلكين في ذي الحجة من سنة 365 هـ، عامله على افريقية، عبد الله بن محمد الكاتب، أن يقيم أسطولا بالمهدية معداً من الرجال

(1) البيان ج 1 ص: 237 والكامل ج 8 ص: 623 .

والسلاح، فامتثل، ولم تحل سنة 366 هـ حتى خرج الأسطول من المهديّة في أول محرم، فتعذرت الريح عليه. فأقام بحارته ونوتيته فيه. ولما نفدت أزوادهم وعدموا الماء نهبوا ما في المراكب من عدة وسلاح ونزلوا إلى اليابسة وهربوا. فجعل عبد الله العيون عليهم. فمن ظفر به قتله.

وفي نفس السنة التي نحن بصددّها زحف خزرون بن فلفول بن خزر الزناتي على سجلماسة في جيش قوي من زناتة واستولى عليها وأخذ ما فيها من الأموال وقتل واليها المعتز المتشيع للفاطمين، وبعث برأسه إلى الأندلس واستحكم بها ملك زناتة وأتباعهم، ولكن لأمد قليل. فإن بلكين قد استتب له الأمر في إفريقية والمغرب الأوسط، وأبى إلا أن تكون سيادته مطلقة من البحر المتوسط إلى المحيط. فخرج من إفريقية على المغرب يوم الأربعاء من شعبان، سنة 368 هـ/27 مارس 979م، في ستة آلاف فارس. فدخل فاس وكان بها عاملان واحد بعدوة الأندلس والآخر بعدوة القرويين. فقتل هذا وصحبه الثاني في سبّة.

وأراد بلكين أن يترك بفاس أثر سلطانه عليها. فأمر بصنع منبر على الطراز الشرقي مكتوب على رأسه التاريخ التالي: شوال سنة 369 هـ/980م، وأتحف به مسجد الأندلس. ثم جعل على رأسها من يدير شؤونها تحت لواء الشيعة، وقصد سجلماسة لقطع دابر زناتة ومحو الأمويين. فاحتل المدينة وتقبض على خزرون فقتله وجعل عاملاً من قبله. أما زناتة فافترق جمعهم وهربوا إلى أقاصي الغرب في الرمال والصحاري. ثم احتل بلكين الهبط، فلم ينفع عمال بني أمية وبني يعلى بن محمد اليفري وبني عطية بن عبد الله بن خزر وبني فلفول ويحيى بن

علي إلا الفرار إلى سبتة معقل الأمويين. فذهب في إثرهم، وكان في طريقه شعابٌ مشتبكة لا تسلك. فأمر بقطعها وإحراقها⁽¹⁾. فأمكنه أن يتمادى في سيره إلى أن دنا من المدينة، فأشرف عليها من فوق جبل النور، ووقف نصف نهار لينظر من أي جهة يحاصرها ويقاقلها. فوجدها صعبة المنال لا تؤخذ إلا بأسطول. فخاف أهلها وبعثوا صريخاً إلى المنصور بن أبي عامر⁽²⁾. فجاء في الحين في جيش إلى الجزيرة الخضراء، وأرسله إلى سبتة على رأس جعفر بن علي عدو بلكين ودفع له مائة حمل من الذهب، فإنه حارص كل الحرص على مقاومة الشيعة والتفوق عليها في المغرب بأي ثمن كان. فعبأ جعفر زناتة ووقف بالمرصاد لبلكين فاستشار هذا رجاله ووالي فاس عبد الكريم، فنصحوه أن لا يقتحم المدينة. ففكر ملياً ثم أمر بقتل عبد الكريم حتى لا يخبر زناتة بسر أمره. ثم ابتعد عن سبتة، وقصد البصرة، وكانت قديمة أزلية عامرة بزناتة والبربر وأهل الأندلس. فلم ينج إلا من هرب. فاستولى بلكين على خيراتهم وخرّب المدينة، ثم واصل فتوحاته، فملك أصيلاً، ومنها رحل بعساكره المظفرة إلى بلد برغواطية، وكان ملكهم صالح بن عيسى بن أبي الأنصار وكان فصيحاً شاعراً، فأطاعوه حتى جعلوه نبياً، وشرع لهم فاتبعوه، فضل وضلوا⁽³⁾. فغزاهم أبو الفتوح. فكانت بينهم حروب لم يجر قبلها مثلها، وكان الظفر حليف بلكين. قتل ابن عيسى وقتل أصحابه قتلاً ذريعاً وسى من نسائهم وذريتهم

(1) الكامل جـ 8 ص: 638

(2) ابن خلدون : العبر جـ 7 ص: 81

(3) ابن عذاري البيان جـ 1 ص: 338 والكامل جـ 8 ص:

عددا لا يحصى، وأرسل سبيهم إلى افريقية. فلقبهم عبد الله الكاتب مع أهل القيروان والمنصورية، ولعله فعل ذلك إنذارا لمن قد تسول له نفسه أن يخالف.

وبينما كان بلكين ينشر الأمن في ربوع المغرب الأقصى ويمحو أثر دعوة الأمويين ظهرت حرة في السماء ليلة الأربعاء لحمس خلون من ربيع الأول سنة 369هـ. فخرج الناس من المساجد للضحج والتضرع إلى الله تعالى وفي غد تلك الليلة هرب كباب ومغنين، ابنا زيري بن مناد، من قصر أخيهما السلطان أبي الفتوح الذي كانا فيه محبوسين وقد لبسا ثياب النساء وخرجا في نسوة دخلن إليهما لزيارتكما. فوجدا عبيدهما قد أعدوا لهما خيلا وسلاحا. فركبا ومضيا نحو المشرق حتى وصلا إلى مصر. فأنزلهما الخليفة العزيز وخلع عليهما ووصلهما. فبقيا في القاهرة بقية هذه السنة. وفي عام 370هـ صرفهما إلى أخيهما أبي الفتوح، وأمره أن يعفو عنهما وألا يتعرض لهما بسوء. ففعل ذلك، وهكذا كان دأبه مع الفاطميين. فكان دائما مطيعا لهم يليي أوامرهم. وفي نفس السنة بعث ابنه المنصور إلى القيروان يعد هدايا للخليفة بالقاهرة. فخرج المنصور من أشير، قاعدة أبيه، وقصد افريقية، ولم يظأ أرضها من قبل، وقام بمهمته ورجع المغرب.⁽¹⁾

وكانت السجلات ترد على بلكين من مصر، فتصله على البريد في فاس وغيرها، ثم يرجعها إلى عامله بافريقية، فتقرأ بعد مدة من تاريخها.⁽²⁾

(1) المؤنس

(2) ابن عذاري: البيان جـ 1 ك: 338

في سنة 371هـ — وصل باديس بن زيري من مصر برسالة إلى أبي الفتوح يأمره بتخير ألف فارس من إخوته الأبطال منهم حبوس وماكسن وزاوي وحمامة بنو زيري وبنو حمامة وبنو زاوي ومن نظائريهم.

فأجابه بلكين من المغرب أن بني أمية يريدون أن يتغلبوا على بلاد المغرب وأن الدعاء لهم فيه على المناير وأنه قد خرج لمحاربتهم بهؤلاء الرجال الذين سماهم أمير المؤمنين، فإن عزم على بعثهم له ترك المغرب وسار بنفسه في جملتهم. فالجواب كان مسكتا. ويحلوا لنا أن نطرح سؤالاً هنا . فما عسى أن يكون قصد الخليفة من طلبه؟ أكان في ميسيس الحاجة إلى هؤلاء الرجال أم كان يريد أن يضعف شوكة بلكين حتى لا يقوى على زناتة وألا تسول له نفسه يوماً ما أن يخلع طاعة الشيعة فيستقل فلن تعود أموال جبايات المغرب ترد على خزينته؟ ولعل الاحتمال الأخير هو الصواب لأن الخليفة لم يلح في طلبه.

فقد انتهز عبد الله بن محمد الكاتب غياب مولاه. واشترى الآلاف من العبيد السود سنة 373هـ — وجعلهم بالمنصورية، وأرغم كل عامل أن يدفع له ما يشتري به ثلاثين عبداً، ولم يستثن عمال الخراج ولا وجوه رجاله. ولم يقف عند هذا الحد، فقد بنى دار الحديد ودار الخشب وملأهما بالخيرات. وكان يترك جعفر بن حبيب بالمنصورية ويستقر هو، بالمهدية، وذلك كل سنة⁽¹⁾

(1) ابن عذارى جـ 1 ص: 341

ملك بلكين المغرب كله ولم يعوزه منه إلا سبتة. فراح يستعد للقفل
ببرغواطة إذ أتاه الخبر بأن وانودين بن خزرون ضرب على سجلماسة،
فدخلها، وأخذ ما كان فيها من الأموال، وكان بها عامل أبي الفتوح.
فرحل إليها هذا، فاعتل في طريقه بقولنج، فمات بالموضع المسمى
واركنفو، وذلك يوم الأحد لتسع بقين من ذي الحجة سنة 373هـ.
فأوصى لبني زعبل بن هشام وكان من خاصته. فأرسل ولده المنصور
يعرفه بوفاة أبيه أبي الفتوح.

المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد

توفي بلكين وقد أوصى بولاية ابنه المنصور. وكان هذا بمدينة
أشير، فولي الإمارة بالإجماع في أوائل سنة 374 هـ، قبل أن يأتيه
التعيين بصفة رسمية من القاهرة. وكان صارما عازما. فأول ما قام به
هو إرسال أخيه يطوفت من أشير إلى القيروان للقبض على عبد الله بن
محمد الكاتب، وذلك احتياطا على ما نفهم. فلا شك أنه كان
يتخوف منه لاستبداده بشؤون الولاية الإدارية والعسكرية بحيث أنه
يستطيع القيام بما قد يهدد سلامة الإمارة. وكان له نائبان جعفر بن
حبيب على المنصورية وبرهون العامل على القيروان.

فذهب يطوفت على جناح السرعة، لا يلوي على شيء، فوصل بغة
سحر يوم الثلاثاء منتصف محرم. فعمد توًّا إلى الخزائن، فوجدها
مغلقة. فتسلم المفاتيح وفتح بيت المال وبيت السلاح، فأخذ كمية من
ذا وذاك، وفرق على أصحابه، وركب من كان مرتجلا من الصنهاجيين
بالمنصورية. فلا شك أن عبد الله بن محمد الكاتب لما سمع بقدم

يطوفت أسرع إليه من المهدية بينما بادر يطوفت للحاق بها. فتلاقيا. فوثب الأمير على الوالي وأرجله عن فرسه واعتقله. ولكن المنصور أمر بإطلاقه بعد أيام وإيقافه عن وظيفته، إلا أنه لم يلبث أن أرجعه إليها. فأول ما فعله عبد الله إثر هذه المحنة أن أمر بالقضاة والعلماء والأشراف وتوجه معهم إلى أشير يهنتون ويعزون المنصور. فتقدموا بين يديه وعبروا له عن أسفهم لفقدان بلكين وعن سرورهم بجلوس فخامته على عرش أسلافه الكرام، وأعربوا له عن ولائهم وتعلقهم المتين بسلطانه، فأجابهم قائلا: "لقد شق علي تعبكم في حركتكم غير أن سروري في رؤيتكم"⁽¹⁾ ثم شكر عبد الله الكاتب وضم فعل أخيه يطوفت، وأمره بأن يدفع للوافدين عليه عشرة آلاف دينار ضيافتهم. فدعوا له وانصرفوا. وبعد خمسة أيام استدعاهم، وفي أثناء حديثه قال لهم: "إن أبي وجدي أخذنا الناس بالسيف قهرا وأنا، لا آخذكم إلا بالإحسان وما أنا في هذا ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب لأبي ورثته عن آبائي وأجدادي حمير"⁽²⁾ ثم أمرهم بالانصراف مع عبد الله الكاتب. فكانت مدة مسيرهم خمسة وثلاثين يوما.

فهذه الوفادة أتاحت لنا أن نقف على طوية المنصور. فيظهر هنا متملقا ذا وجهين ولو لم يكن كذلك لما ذم أخاه يطوفت، مع أنه هو الذي أرسله إلى عبد الله الكاتب برسم القبض عليه. ويتجلى من حديثه للوافدين عليه قبل أن ينصرفوا أنه يريد أن يحيد في سياسته عن الجادة نحو الفاطميين. فإنه ليس تحت رحمتهم، فلا يقدرّون على عزله

(1) ابن عذاري ج 1 ص: 343.

(2) نفس المصدر ص: 343

بمجرد كتاب. إلا أن أفعاله تكذب أقواله إذ لم يلبث أن أخذ في جهاز هدية، حين قدم إلى رقادة، بعثها إلى مصر مع زروال بن نصر كانت قيمة ما فيها من الأمتعة والدواب والطرف ألف ألف دينار على قول ابن الأثير وابن عذارى⁽¹⁾ فالمنصور لا يعاب من حيث موقفه هذا، فالسياسة تقتضي أن يكون متناقضا.

في ليلة الأحد لثلاث عشرة من ربيع الأول من سنة 374هـ (984م) حدث حادث انشرح له صدر المنصور، فقد ولد له ولد سماه باديس سيكون ولي عهده. قدم المنصور بعد ذلك إلى رقادة يوم الإثنين 19 رجب من نفس السنة (6 ديسمبر) فتلقاه عبد الله الكاتب في خلق عظيم من أهل القيروان. وأشد ما كان سروره بذلك الاستقبال الحار وتلك الهدايا التي تقاطرت عليه من طرف العمال وعبد الله الكاتب. فأظهر للناس الخير ووعدهم بكل جميل⁽²⁾ ما يدل على أن الحالة الاقتصادية كانت حينئذ لا تبعث على الإرتياح.

فطاب للمنصور المقام برقادة. ولما قرب العيد أمر بصنع سرح مكمل بالدر والياقوت خرج به في أحسن زي إلى المصلى في حفل من أهل القيروان وضواحيها. فصلى وخطب القاضي ابن الكوفي.

فولى الأعمال واستعمل الأمراء واستخلف على جباية الأموال بالقيروان والمهدية وجميع افريقية عبد الله الكاتب، ثم عاد إلى أشير. لما مات بلكين خرجت البلاد الغربية على طاعة صنهاجة ما يدل على أنها كانت منحازة إليهم رهبة لا رغبة. فتمكن خزرون بسجلماسة

(1) الكامل جـ 9 ص: 34 والبيان جـ 1 ص: 344

(2) البيان جـ 1 ص: 343

وزيري بن عطية بفاس. إلا أن المنصور لم يبق مكتوف الأيدي. لما استقر وأتته الخلع والعهد بالولاية من الخليفة بالقاهرة سير إليهما جيشا كثيفا تحت قيادة أخيه يطوفت ليريهما طاعته. فعسكر يطوفت بضواحي فاس. فعاجله صاحبهما زيري بن عطية بالخروج إليه والهجوم عليه. فقاتله قتالا شديدا. فانهزم يطوفت، وظفرت زناتة بصنهاجة. فاتبعوهم وقتلوا منهم خلقا لا يحصى عدده وأسروا آخرين، وهرب الباقون إلى تاهرت. وقبض في هذه الواقعة على قائدتين له اسمهما ابن شعبان وابن عامل، فقتل هذا شر قتلة وسمم الآخر على باب فاس، وثبتت قدم زيري بن عطية في ولايته. فشاع خبر هذه الهزيمة التي من شأنها أن تشجع المخالفين لصنهاجة والتي لم يتعرض المنصور بعدها بلاد زناتة. فقد تظاهر بالخروج إلى الغرب إنقاذاً لعزة جيشه ومجد صنهاجة وقد رافقه عبد الله الكاتب، وقد استخلف هذا على القيروان ابنه يوسف. وفي ذلك الوقت بالذات ظهر أبو الفهم حسن بن نصر الخراساني الداعي. قد أرسله العزيز بالله العلوي بمصر إلى كتامة يدعوه طاعته، وغرضه ان تميل كتامة إليه وترسل إليه جندا يقاتلون المنصور ويأخذون منه افريقية لما رأى من قومه وما سمع من حديثه حيث زاره وفد القيروان أوائل جلوسه على عرش الولاية. فاستقبله يوسف بن عبد الله الكاتب، وفرح به، وأجرى عليه الجراية. فعزم على الخروج إلى كتامة. فكاتب يوسف أباه في ذلك. فأجابه عبد الله أن يعطي له كل ما طلب وأن يتركه يتوجه حيث شاء. فامتثل يوسف أمر أبيه، فزود أبا الفهم بالمال والخييل. وهل المنصور كان على بينة من هذا كله؟ فهذا ما سكت عنه المؤرخون ولكن ستتجلى لنا الحقيقة فيما بعد.

فالمنصور عقد لعبد الله الكاتب على افريقية كلها وبعث ليطوفت
بجيش آخر، فتلقيه بتاهرت. فساد افريقية حينئذ استقراراً مكنه من
القيام بإنجازاته. فأمر بأن تكون أبواب جامع القيروان من حديد وبأن
يشيد له قصر وذلك في سنة 375هـ/986م.

وفي السنة التالية 376 هـ جد يوسف بن عبد الله الكاتب في
تشيد قصر المنصورية للمنصور أبي الفتح. فبلغ إنفاقه فيه قبل تمامه مائة
ألف دينار⁽¹⁾. فلم تحل السنة السابعة والسبعون والثلاثمائة حتى كان
مشيداً مؤثلاً مفروشا. فترل فيه السلطان حين وصوله إلى المنصورية
وكان مرفوقاً بعبد الله الكاتب وجموع عساكره ووجوه بني عمه
ورجاله. فقضى أياماً كلها أفراح ومسرات. ولكن دوام الحال من
الحال. فاتصل به خير أبي الفهم الخرساني الداعي الذي دخل بلاد كتامة
وصار يركب الخيل ويجمع العساكر ويعمل البنود ويضرب السكة،
فعظم أمره وشاع خبره⁽²⁾. فعزم المنصور على قصده. وقبل أن يفعل
أرسل العزيز بمصر يعرفه بالحال. فبعث إليه رسولان ينهانه عن التعرض
لأبي الفهم وكتامة، وأمرهما أن يسيرا إلى كتامة بعد الفراغ من رسالة
المنصور. فلما وصلا تقدما بين يدي الأمير الصنهاجي وأبلغاه رسالة
العزيز. فلم ينه قراءتهما حتى أغلظ لهما القول وللعزيز أيضاً. فأجاباه
بالمثل. فلم يبطش بهما، ولكنه أمرهما بالقيام عنده بقية شعبان ورمضان
ومنعهما من المضي إلى كتامة. وفي غضون ذلك تجهز لحرب كتامة
وأبي الفهم. وسار بعد عيد الأضحى سنة 378هـ. فأمر مدينة ميلة،

(1) ابن عذاري: البيان ج 1 ص: 345.

(2) ابن عذاري: البيان ج 1 ص: 315.

ورام قتل أهلها وسبي نسائهم وذراريهم. فخرجوا إليه يتضرعون ويكفون. فعفا عنهم وأمرهم بالمسير إلى باغاية. فاجتمعوا وساروا إليها. فلقيهم ماكسن بن زيري بعسكره فأخذ ما كان من مال وغيره فخرّب المنصور بلدهم. وسار منه إلى كتامة والرسولان معه. فكان لا يمر بقصر ولا منزل إلا هدمه حتى بلغ مدينة سطيف وهي كرسي عزهم⁽¹⁾. فاقتتلوا عندها، فانهمزمت كتامة وهرب أبو الفهم إلى جبل وعرف فيه ناس من كتامة يقال لهم بنو إبراهيم. فأرسل إليهم المنصور يتهددهم إن لم يسلموه. فأجابوه: "هو ضيفنا فلا نسلمه، ولكن أرسل انت إليه، فخذنه ونحن لا نمنعه" فأرسل المنصور من أخذوه، وأمر بضربه ضربا شديدا، ثم قتله وسلّخه بعد ذلك. فأكلت صنهاجة وعبيد المنصور لحمه. وقتل معه جماعة من الدعاة ووجوه كتامة. ورواية أخرى تقول: "لما صار أبو الفهم بين يديه أمر به فلطم لطمًا شديداً وتفت لحيته حتى أشرف على الموت. ثم أخذه بعض رجاله فنحره وشق بطنه وأخرجت كبده فشويت وأكلت. وأخذه عبيد المنصور، فشرحوا لحمه وأكلوه حتى لم يبق إلا عظامه متجردة، وذلك في يوم الثلاثاء لثلاث خلون من صفر⁽²⁾. وقتل بسببه والي ميلة وجماعة من كتامة. ونزل بهذه القبيلة الذل والهوان بعدما صالت في أيام عبيد الله المهدي. وبقيت ميلة خرابا ثم عمرت بعد ذلك. بث المنصور عماله فيها، ولم يدخلها عامل قبل ذلك، فجبوا أموالها، وضيقوا على أهلها وإثر ذلك رجع المنصور إلى المنصورية ورد الرسولين إلى العزيز. فأخبراه بما فعل بأبي الفهم وقالوا: "جئنا من عند شياطين يأكلون الناس". فتيقن عند

(1) الكامل ج 9 ص: 54.

(2) البيان ج 1 ص: 349.

ذاك أن المنصور قد فهم قصد العزيز بإرساله أبا الفهم، فبعث له يطيب قلبه وبعث له هدية ولم يذكر له أبا الفهم.

يخبرنا النويري بأن نزار العزيز بالله كتب للمنصور يخبره بأن الدعوة الشيعية يقوم بها عبد الله الكاتب. فلا مناص من تنفيذ هذا الأمر. فامثل المنصور. فأمر ببسط القطائف في قصر السلطان المعروف بقصر البحر. وفي يوم الاثنين سابع جمادى الثانية من سنة 377هـ/ أكتوبر 987م، جلس المنصور محفوفاً بأهله وعمومته. فدخل عبد الله الكاتب. فقلده الأمير أمور الدعوة بصفة رسمية. فما أشد ما كان فرحه عند ذلك! فمسح رأسه وقال: فلست الآن مأموراً منفذاً ولا خوف على شعري ولا على جسدي، يريد بذلك أنه استقل، لن يمثل لأوامر المنصور ما لم يبلغه أحد من قرابته ودولته وانحجرت أموره كلها تحت قبضته، فجمع الأموال.

وبما أن عبد الله رتب الأعمال وأعطى السياسة والرئاسة حقهما حسده كبراء أهل الدولة وألقى عنه حسن بن خالة المنصور أمورا من القدح في دولته، وأنه هو السبب في خروج الداعي الثائر أبي الفهم بكتامة وكان يغض من استفحال أمره حتى كاد يؤدي إلى مالا يحمد عقباه.. وأضف إلى ذلك أن عبد الله الكاتب كان، لثقتة بنفسه، لا يداري أحداً من أولاد زيري ولا أكابر الدولة. فلما أحسوا من المنصور بعض التغير عليه، أكثروا من الدم فيه والوشي به إليه حتى عظم الأمر على الأمير وتخوف منه. فعزم على خلعه، فقال له "اعتزل من عمل إفريقية واقتصر على الكتابة، وكل من تولى متصرف بين يديك وتحت أمرك،

فكان جوابه أن قال: "القتلة ولا العزلة"⁽¹⁾. فلما كان يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من رجب غدا إلى ديوان كان قد بناه. فجلس فيه لانتظار ركوب المنصور ويده جزء من القرآن يقرأ فيه حتى قيل له: "قد ركب السلطان. فأطبقه وركب فرسه برسم لقائه وهو يقول:

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض على الماء خائنه فخرج الأصابع

فلما وصل إليه المنصور نزل عبد الله الكاتب إليه وسلم عليه ثم وقف. فدار بينهما كلام كثير لم يقف أحد على صحته. ثم باغته المنصور بطعنة برمحه. فجعل عبد الله أكمامه على وجهه وقال: "على ملة الله وملة رسوله". لم يُسمع له غير ذلك. وضربه عبد الله أخو المنصور برمح بين كتفيه، فسقط على الأرض ميتا. ثم أتى بابنه يوسف، فضربه المنصور وماكسن بن زيري، فسقط ميتا بجانب أبيه. ولم يكتف المنصور بذلك، فأمر بهما أن يدفنا في الإسطبل دون غسل ولا كفن⁽²⁾. ولا تسلم عن سرور أهل القيروان بهذا الحادث. فكانوا يمقتون عبد الله الكاتب لإثقاله ظهرهم بالضرائب وإكراهه الفقهاء وحتى الأدباء مثل ابن بقال على التشيع.

فلم يسمع العسكر بقتل عبد الله الكاتب حتى داروا على الناس، فانتهبوهم وغلبوهم وقطعوا الطرق، فأخذوا كل من وجدوا من المسافرين وغيرهم، ومالوا إلى وادي القصارين وباب تونس، أحد

(1) ابن عذاري: البيان ج 1 ص: 346

(2) نفس المصدر : 348

أبواب القيروان، فنهبوا ما كان عند القصارين. فذهب في ذلك اليوم أموال المسلمين، وقتل خلق ممن دافع عن نفسه وماله.

لم تبق أعمال إفريقية شاغرة طويلا، فولّاها من قبل أبي الفتح المنصور يوسف بن أبي محمد، وكان عاملا على قفصة. فأعطاه البنود والطبول، وخلع عليه، وذلك يوم الخميس لخمس بقين من شعبان 377هـ، وجعله في دار القائد جوهر⁽¹⁾. إلا أن يوسف بن أبي محمد ظل مشغلا بالأكل والشرب وكلف بالورد. فإذا دخل إبانة اصطبح عليه، فلا يظهر حتى يفنى الورد وينقطع، وكان يجلس فيه وينام عليه، فسمي شيخ الورد. أما الأمور المنوطة به فأسلمها أبي البوني. فكان أهل الحاضرة معه في أمن وعافية. أما أهل البادية فكانوا في عذاب وغرامة. وكان جبارا عنيدا وسمحا جوادا. وكان يخرج في كل سنة، فيدور على كور إفريقية ويحيي الأموال ويأخذ الهدايا من كل بلد ويرجع. يقول ابن الرقيق: "كنا ندور مع يوسف بن أبي محمد على البلدان، إذا استطاب موضعا وأعجبه حسنه أقام فيه مصطبحا الشهر والشهرين، وأبو الحسن البوني يحيي الأموال، ويقبض الهدايا ويقوم بأمور يوسف وعسكره، ويعطي لخاصة يوسف في كل يوم خمسة آلاف درهم وينفق على يوسف لمطبخته وفاكهته نحو هذا القدر من المال. فأخبار⁽²⁾ تصرفاتهما العقيمة وصلت إلى المنصور، فانتقم منهما سنة 382 هـ. فقبض على أبي الحسن البوني وابنه وطلب منهما مالا كثيرا فأنكراه، فأمر بذبح البوني، ثم عزل يوسف من عمالة إفريقية، وولى مكانه محمد بن أبي العرب الكاتب.

(1) البيان ج1 ص: 348

(2) مصلحة الأخبار كانت موجودة حينئذ

وقد توفي الحسين بن خلف المرصدي صاحب خراج القيروان وأمر أبو الفتح بولاية محمد بن خلف الخراج مع سلامة بن عيسى. فجلسا معا في ديوان خراج المنصورية⁽¹⁾. هيهات أن ينسى الكتاميون فتكات جيش المنصور بهم أيام أبي الفهم. فلم تحل سنة 379 هـ حتى خرج رجل منهم يقال له أبو الفرخ، وزعم أن أباه ابن القائم العلوي. فكانت ثورته أشد خطرا من ثورة أبي الفهم على حد قول ابن الأثير. اجتمعت اليه كتامة واتخذ البنود والطبول وضرب السكة وجرت بينه وبين نائب المنصور وعساكره بمدينتي ميله وسطيف حروب كثيرة. فلم يهزم. فسار المنصور اليه في جيشه، فهزمه، وقتل من كتامة مقتلة عظيمة. فاختمى أبو الفرخ في غار جبل. فوثب عليه غلامان كانا له، فأخذاه وأتيا به المنصور، فسره ذلك وقتله شر قتلة. فشحن المنصور بلاد كتامة بالعسكر وبث عماله فيها من جديد، فحبوا أموالها. فلم ترفع تلك القبيلة رأسها بعد ذلك ورضخت نهائيا لسلطان صنهاجة.

وكيف كانت الحالة السياسية وقتئذ في المغرب الأقصى؟ ان لم تخني ذاكرتي فإن بني أمية بعدما قضوا على الحسن بن كتون سنة 375 هـ/986م مدوا يدهم إلى مغراوة وأعلنوا شأنهم على حساب أمراء زناتة ويدو بن يعلى اليفري.

فاستقبلوا زيري بن عطية المغراوي استقبالا حارا بقرطبة ورفعوا جانبهم إلى رتبة وزير. فعاد إلى فاس. فلم يلبث أن فسد ما بينه وبين ابن أبي عامر، فحاول هذا أن يجذب اليه يدو بن يعلى. فأمره أن يشخص قرطبة، لكن يدو رفض وخالف، فرجع زيري بن عطية

(1) البيان ج 1 ص: 351

إثر ذلك إلى الرومانية. فاتفق أن هجم يدو على الجيش العامري وهزمه. فأمر أمير الأندلس زيري بن عطية بإرجاع الأمور نصاها بفاس وتدير شؤون هذه المدينة مكان واليها عبد الودود الذي قضى عليه في المعركة التي وقعت بين الجيش الأندلسي ويدو. فشأن بني عطية أصبح خطرا ما أثار حسد بعض الأمراء من زناتة ورجعوا مكائهم.

وكان من بين هؤلاء سعيد بن خزرون الزناتي، وكان أبوه قد تغلب على سحلماسة سنة 365هـ. فصار في طاعة المنصور أبي الفتح الزيري. فوافاه بأشير، واختص به وعلت منزلته عنده. فقال له المنصور يوما: "يا سعيد هل تعرف أحدا أكرم مني؟" وكان قد وصله بمال كثير - فقال: "نعم أنا أكرم منك" فقال المنصور: "وكيف ذلك؟" قال: "لأنك جدت علي بالمال، أما أنا فجدت عليك بنفسي". فاستعمله المنصور على طبنة وزوج ابنه ببعض بنات سعيد إحصاها للمخالصة⁽¹⁾. فلامه على ذلك بعض أهله. فقال: "كان أبي وجدي يستبعاهم بالسيف وأما أنا، فمن رماني برمح رميته بكيس حتى تكون مودهم طبعاً واختياراً".

كان أبو البهار بن زيري عاملاً على تاهرت. واتفق أن فسدت ذات بينهما. فخالف أبو البهار على المنصور. فزحف إليه هذا، فوجده قد فارق تاهرت إلى الغرب بمن معه من أهله وأصحابه. فدخل العسكر المدينة، فانتهبوها ولم ييخلوا بالقتل على الناس. فطلب أهلها الأمان، فأمنهم المنصور. ثم سار في طلب عمه أبي البهار حتى تجاوز تاهرت سبع عشرة مرحلة، فلم يعثر عليه. فرجع عن تبعه، وولى على تاهرت

(1) ابن خلدون: العبر جـ 7 ص : 82 .

أخاه يطوفت، ومضى إلى أشير حيث كان مقامه في أغلب أيامه قبل أن يبنى له قصر خارج المنصورية. أما أبو البهار فقد كتب إلى ابن أبي عامر يسأله الدخول في طاعته وأن يكتب إلى زيري بن عطية، صاحب فاس، أن يكون عنده. وكان هذا مواليا ومصافيا لابن أبي عامر. فكتب هذا أبي البهار قائلا: "ان كنت على نية فيما وصفته عن نفسك فأرسل إلي ابنك يكون رهينة عندي فلك ما تريد" فوجه أبو البهار إليه ابنه في مركب مع ميمون المعروف بابن دابة كاتبه. فعطب المركب، فغرقا جميعا. فوجه إليه ولده الآخر، فوصل إليه. فعند ذلك أرسل ابن أبي عامر لأبي البهار أموالا وكسى وطرفا مع خلوف بن أبي بكر بن حبوس بن زيري، وكان وفد عليه في جماعة من ذويه من قبل أبي البهار، وكتب إلى زيري بن عطية في حقه أن يعاضده ويصبر ويكون معه. فلما بلغ ذلك أبا البهار، قدم إلى فاس واتفق مع زيري بن عطية صاحبها. فاتفق رأيهما مدة⁽¹⁾. حارهما يدو بن يعلى اليفري فهزمه وملك فاس. وما هي الا عشية أو ضحاها حتى خالف خلوف بن أبي بكر وانضوى اليه جماعة من الصنهاجيين. فقصدهم عسكر زيري بن عطية وأوقعوا بهم سنة 381 هـ. فاختلف إثر ذلك ذات ما بين زيري وابن أبي البهار. فتزاحفا، فانهمز أبو البهار في سبته. فأجمع العودة إلى قومه، فقصد، عن طريق جراوة، ابن أخيه يطوفت. فكتب هذا إلى أخيه المنصور يخبره بوصول عمه أبي البهار إليه. فأجابه أن يبعثه اليه. فكان وصول أبي البهار المنصورية ليلة الإثنين منتصف شعبان. ففرح به المنصور وحمل إليه كل ما يحتاج إليه من مال وغيره⁽²⁾.

(1) ابن خلدون : العبر ج 7 ص: 81.

(2) ابن خلدون العبر : ج 7 ص : 69

فقد نجح بنفسه. وذلك أن ابن أبي عامر لما سمع بمخالفته أرسل جيشا عرمرما تحت قيادة كاتبه عيسى بن سعيد بن القطاع لمراقبة حركاته.

قصد المنصور ثانية المنصورية في عام 381هـ/992م، ودخل قصره الجديد. فخرج إليه أهل القيروان يتلقونه. فأدناهم وأثنى عليهم ووعدهم خيرا.

وفي يوم الأضحى خرج إلى المصلى في حفل يسوده التهليل والتكبير. ولعله بمناسبة هذا العيد ترك البقايا في الخراج لأهل البادية. وإثر ذلك رفع له في عبد من عبيده، انه قذف بعض الصحابة رضي الله عنهم. فصلبت جثته ونؤى عليه بمدينة القيروان.

ظهر باديس بن المنصور في ربيع الأول من سنة 382 هـ/991م بقصر والده فقدم له جماعة من الأشراف هدايا متفاوتت ثروتهم ومترلتهم. وبهذه المناسبة قدم له ابن الخطاب عامل زويلة هدية فيها، زيادة على أشياء أخرى. زرافة وطرفا سودانية. أما عامل طرابلس فقد أعطاه مائة حمل من المال زيادة على خيل وطرف مشرقية. والخليفة العزيز بالله، من جهته، وصل منه بولاية العهد لأبي مناد باديس. فسر المنصور بذلك أكثر من سروره بالهدايا التي تقاطرت عليه من كل فج وصوب. وأبى المنصور إلا أن يشاطره الشعب في فرحه فترك البقايا للرعايا⁽¹⁾. وإثر ذلك وصل سعيد بن حزررون من مدينة طنبنة إلى المنصورية. فلقية المنصور وعانقه. ثم دخل معه القصر وأنزله وأجرى عليه الأرزاق الواسعة. فاعتل سعيد بن حزررون أياما ومات في أول رجب سنة 382هـ. فكفنه المنصور بسبعين ثوبا.

(1) البيان ج 1 ص: 352

ووفد عليه فلفول بن سعيد. فعقد له على عمل أبيه، وخلع عليه، وزف إليه ابنته وسوغه، ثلاثين حملا من المال وثلاثين تحتاً من الثياب، وقرب إليه مراكب بسروج مثقلة، وأعطاه عشرة من البنود مذهباً⁽¹⁾. فشكر فلفول وانصرف إلى عمله. وفي سنة 383 هـ، خرج باديس بن المنصور إلى مدينة أشير مرفوقاً بجذته يعلان. فكان أول سفر قام به. ولم يرجع المنصورية إلا سنة 384 هـ. فلقية أبوه في عسكره وحاشيته وسكان القيروان، فكان يوماً مشهوداً.

هذا ما كان في إفريقية. أما في المغرب الأقصى، فجمع المنصور بن أبي عامر لزيري ابن عطية أعمال المغرب وعهد إليه بمناجزة أبي البهار. فزحف إليه زيري في حشود كثيرة من قبائل زناتة والبربر ففر أمامه أبو البهار ولحق بالقيروان. واستولى زيري على تلمسان وسائر أعمال أبي البهار واختط مدينة وجدة سنة 383 هـ، 993-994م وأنزلها عساكره وحشمه⁽²⁾. فوجدة، إذن، مدينة جزائرية أحدثها جزائري لحما ودما وروحا، إذ هو من بني عطية المغراويين. وفي سنة 385 هـ فجعت الأسرة الحاكمة بوفاة الأمير عبد الله بن يوسف بن زيري بن مناد. ولم يزل عنها حزناً حتى نزلت بها رزية أعظم في شخصية قائدها الأكبر أبي الفتح المنصور عدة العزيز بالله، وذلك في يوم الخميس لثلاث خلون من ربيع الأول سنة 386 هـ. ودفن في قصره خارج المنصورية. وكانت أيامه أحسن أيام. كان ملكاً شجاعاً حازماً محباً للعدل والرعية، وخير دليل على ذلك إسقاطه البقايا عن أهل إفريقية وكانت مالا جليلاً، وخلع يوسف بن محمد وقتل أبي الحسن البوني

(1) ابن خلدون : العبر ج 7 ص: 82

(2) ابن خلدون : العبر ج 7 ص: 65

اللذين أثقلا ظهر الشعب بالضرائب الفادحة. والشيء بالشيء يذكر فإنه لم يحقد على يوسف هذا، فقد عينه عاملا على متيجة، كما أنه لم يحقد على عمه أبي البهار.

رأى المنصور أن سياسة العنف والقمع لم تجد طائلا. فقد استتبع جده وأبوه الناس بالسيف ولم يفارقا الحياة حتى خرجت البلاد المغربية عن طاعة صنهاجة.

فاختار سياسة اللين والإحسان والمساملة. فلماذا يقلق راحته ويضيع ماله ورجاله لإخضاع بلاد تزول عن طاعة دولته بزواله؟ فإن سياسته هذه صالحة ولكن إلى حد ما. فإن لها آفاتهما. فإن العدو إذا عاملته باللين أرجع ذلك إلى ضعف قد ألم بك، فلا يقنع حينئذ بشق عصا طاعتك، فيعمل ما في وسعه لقطع دابرك. فإن المنصور لم يزحف إلى زيري بن عطية بعد انهزام يطوفت وآثر مسالمته. فلم يفكر في إبعاد موقفه هذا، فشجعه به لا على إقصاء صنهاجة من المغرب الأقصى فحسب بل على الدخول إلى أرضهم، فعاث فيها وكسح وخرّب ودمر.

وما يجدر بالإشارة إليه أن المنصور كان لا يطيق صبرا على العنوّ الأعمى لإرادة الفاطميين. فيظهر من موقفه من العبد الذي قذف بعض الصحابة ومن حديثه يوم زاره الوفد القيرواني زفقة عبد الله الكاتب أنه في نيته أن يشق مسلكا يفضي بالزيريين إلى الاستقلال وعدم التبعية للغير. فمن نكد الدنيا أن يولى بكتاب ويعزل بكتاب ومن العار أن يتغاضى عن قذف الصحابة في دولته.

باديس بن المنصور بن بلكين

توفي أبو الفتح المنصور، فولي بعده ابنه أبو مناد باديس سنة 386 هـ. وكان حديث السن، إذ كان مولده عام 374 هـ. فخرج اثر البيعة إلى قصره بسرمانية حيث قصده الناس من كل صوب للتعزية والتهنئة وللإعراب له عن ولائهم المطلق.

أما بنو زيري وبنو حمامة، أعمام أبيه، فأرادوا أن يخالفوا عليه. الا أن أصحابه وأصحاب أبيه حالوا دونهم. فلا غرو من موقعهم المعادي فإن انتقال السلطة من يد إلى يد أخرى يوقد أحيانا نار الحسد في قلوب الطامعين.

رجع باديس إلى قصره بالمنصورية. ثم خرج يتفقد سوسة حيث قضى أياما بالمهدية حيث لعبت المراكب بين يديه ورمى النفاثون بالنفط. ولم يلبث أن عاد إلى المنصورية. فوفد عليه عمه يطوفت يعزيه ويهنئه. ثم رجع إلى طبنة ومن ثم إلى تاهرت. فإن هذه الزيارة لدليل على أن انتفاضات عمومة باديس قد انتهت في ذلك الوقت. ولعل موقف بني زيري من ولاية أبي مناد كان مشجعا لرجل صنهاجي اسمه خليفة بن مبارك على القيام بثورة كان مصيرها الفشل. فأمر بالقبض عليه وتأديبه. فأخذ وأركب حمارا وجعل خلفه رجل أسود يطوف به ويصفعه، ثم ألقى في غياهب السجن ولم يقتل احتقارا له. وجعلهم رجلا أسود خلفه كان عندهم احتقارا له أيضا، فإنهم كانوا يؤمنون بالعنصرية ويعتقدون أن الأسود دون الأبيض، ولو لم يكن كذلك لجعلوا وراءه رجلا أبيض.

احتفظ باديس بمحمد بن أبي العرب على رأس ولاية افريقية نائباً عنه. فهو أديب تحرير وقائد شجاع أقر بدوره رجاله على مراتبهم واستعان بهم. وبقي عاملاً ثلاث عشرة سنة أخرى إلى أن مات سنة 396هـ/1006-1007م. فخلفه حينئذ ابنه أبو القاسم بن محمد بن أبي العرب سنة 396هـ. وكان باديس يتمثل أوامر الخليفة بدون تردد. فبعث له هذا سجلاً يأمره فيه برفع القاضي محمد بن عبد الله بن هاشم إلى مصر⁽¹⁾.

وكان هذا وقتئذ مريضاً وكان باديس هياً هدية ليعيها للعزير. فخرج بها جعفر بن حبيب من المنصورية إلى رقادة لست خلون من رمضان سنة 386هـ. فرأى باديس أن يبعث القاضي مع الهدية. لكن هذا اعتذر بعلته. فأرسل إلى دار محمد بن أبي العرب وجماعة من رجال الدولة، وذلك لثلاث خلون من ذي القعدة. ووقف العسكر بباب القاضي أبي الربيع حتى يقفوا دون أهل القيروان إذا ما أراد أن يحولوا بينه وبينهم. ثم ولجوا بيت العليل وحملوه ببساطه الذي كان مضطجعا عليه في ثيابه التي يلبسها في داره، لأنهم فاجأوه، وخرجوا به محمولاً ومشوا به إلى رقادة وخلفه غلام نصراني يمسكه وأولاده وقرابته يمشون خلفه فرثى الناس لحاله، وكانوا يحبونه لحسن سيرته وعدله. فما هي إلا حتى جاءت الأخبار بوفاة العزيز بالله. فأمر أبو مناد بإرجاعه إلى بيته مكرماً معظماً. وذلك في أواخر سنة 386هـ، وفي محرم سنة 387هـ/997م، دخل بيته فاطمأنت القلوب وانشرحت الصدور.

(1) ابن عذارى: البيان ج 1 ص 355

احتفظ باديس بمحمد بن أبي العرب على رأس ولاية افريقية نائباً عنه. فهو أديب تحرير وقائد شجاع أقر بدوره رجاله على مراتبهم واستعان بهم. وبقي عاملاً ثلاث عشرة سنة أخرى إلى أن مات سنة 396هـ/1006-1007م. فخلفه حينئذ ابنه أبو القاسم بن محمد بن أبي العرب سنة 396هـ. وكان باديس يتمثل أوامر الخليفة بدون تردد. فبعث له هذا سجلاً يأمره فيه برفع القاضي محمد بن عبد الله بن هاشم إلى مصر⁽¹⁾.

وكان هذا وقتئذ مريضاً وكان باديس هياً هدية لبيعها للعزير. فخرج بها جعفر بن حبيب من المنصورية إلى رقادة لست خلون من رمضان سنة 386هـ. فرأى باديس أن يبعث القاضي مع الهدية. لكن هذا اعتذر بعلته. فأرسل إلى دار محمد بن أبي العرب وجماعة من رجال الدولة، وذلك لثلاث خلون من ذي القعدة. ووقف العسكر بباب القاضي أبي الربيع حتى يقفوا دون أهل القيروان إذا ما أراد أن يحولوا بينه وبينهم. ثم ولجوا بيت العليل وحملوه ببساطه الذي كان مضطجعا عليه في ثيابه التي يلبسها في داره، لأنهم فاجأوه، وخرجوا به محمولاً ومشوا به إلى رقادة وخلفه غلام نصراني يمسكه وأولاده وقرابته يمشون خلفه فرثى الناس لحاله، وكانوا يحبونه لحسن سيرته وعدله. فما هي إلا حتى جاءت الأخبار بوفاة العزيز بالله. فأمر أبو مناد بإرجاعه إلى بيته مكرماً معظماً. وذلك في أواخر سنة 386هـ، وفي محرم سنة 387هـ/997م، دخل بيته فاطمأنت القلوب وانشرحت الصدور.

(1) ابن عذارى: البيان جـ 1 ص 355

احتفظ باديس بمحمد بن أبي العرب على رأس ولاية افريقية نائبا عنه. فهو أديب تحرير وقائد شجاع أقر بدوره رجاله على مراتبهم واستعان بهم. وبقي عاملا ثلاث عشرة سنة أخرى إلى أن مات سنة 396هـ/1006-1007م. فخلفه حينئذ ابنه أبو القاسم بن محمد بن أبي العرب سنة 396هـ. وكان باديس يتمثل أوامر الخليفة بدون تردد. فبعث له هذا سجلا يأمره فيه برفع القاضي محمد بن عبد الله بن هاشم إلى مصر⁽¹⁾.

وكان هذا وقتئذ مريضا وكان باديس هيا هدية ليعيها للعزير. فخرج بها جعفر بن حبيب من المنصورية إلى رقادة لست خلون من رمضان سنة 386هـ. فرأى باديس أن يبعث القاضي مع الهدية. لكن هذا اعتذر بعلته. فأرسل إلى دار محمد بن أبي العرب وجماعة من رجال الدولة، وذلك لثلاث خلون من ذي القعدة. ووقف العسكر بباب القاضي أبي الربيع حتى يقفوا دون أهل القيروان إذا ما أراد أن يحولوا بينه وبينهم. ثم ولجوا بيت العليل وحملوه ببساطه الذي كان مضطجعا عليه في ثيابه التي يلبسها في داره، لأنهم فاجأوه وخرجوا به محمولا ومشوا به إلى رقادة وخلفه غلام نصراني يمسكه وأولاده وقرباته يمشون خلفه فرثى الناس لحاله، وكانوا يحبونه لحسن سيرته وعدله. فما هي إلا حتى جاءت الأخبار بوفاة العزيز بالله. فأمر أبو مناد بإرجاعه إلى بيته مكرما معظما. وذلك في أواخر سنة 386هـ، وفي محرم سنة 387هـ/997م، دخل بيته فاطمأنت القلوب وانشرحت الصدور.

(1) ابن عذاري: البيان ج 1 ص 355

ظهور حماد على مسرح التاريخ

كان أبو الفتح المنصور قد عقد لأخيه حماد على أشير والمسيلة، وكان يتداول ولايتهما مع أخيه يطوفت وعمه أبي البهار. فرأى باديس أن شوكة زناته، يفرن ومغراوة، قويت في المغرب الأوسط. فالظروف تقتضي الحذر واليقظة والدراية، وهذه الصفات تتوفر في عمه حماد، فاستعمله على أشير سنة 387هـ، وأقطعه إياها، وأعطاه كسى جليلة وكثيرا من الخيل والسلاح والعدد، وعهد إليه بمحاربة زناته وكل بلد يفتحه، وشيعه إلى تيجس حيث أقاما أياما. فودعه حماد وقصد المغرب الأوسط. وكان الصنهاجيون في حاجة ماسة إلى أمير منهم يأخذ بيدهم لصد الأعداء. فهشوا لوصوله، والتفوا حوله، وحاربوا بجانبه، وشتوا جموع زناته، وألجأوهم الذهاب إلى المغرب الأقصى.

ومن النساء اللواتي اشتهرن في تلك الآونة الأميرة أم ملال، فقد لعبت دورا كبيرا في السياسة حيث أن أخاها باديس كان يتغيب كثيرا، ثم فاطمة الهادنة التي اشتراها المنصور. فقد أسلمت وأصبحت تعتبر أميرة صنهاجية تقديرا لها، فقد أرضعت باديس وكان لها عليه نفوذ غير قليل.

وفي ربيع الأول من السنة خرج باديس بعسكره ورجاله يستقبل القاضي الباهري القادم من مصر إلى المنصورية. فقد وصل القاضي هذا بسجلات قرئ اثنان منها بجامع القيروان، أحدهما بولاية أبي مناد وتلقيه نصير الدولة، والثاني ب وفاة العزيز بالله وخلافة الحاكم

بأمر الله والجواب عن وفاة المنصور عدة العزيز بالله. أما الثالث فالمراد به أخذ العهد على باديس وجماعة بني مناد للحاكم. فأحضر باديس وجوه الصنهاجيين وأخذ عليهم البيعة، ثم وصل القاضي الشريف الباهري بمال وافر. فعاد القاضي راضيا مرضيا إلى القاهرة.

وفي هذه السنة خرج باديس نصير الدولة إلى المصلى يوم العيد — ولعله عيد الفطر — وبين يديه فيل وزرافتان وجمل أبيض ناصع البياض لم ير الناس مثله قط.

وفي السنة التالية 388هـ وصلت إلى نصير الدولة هدية فاخرة من مصر تشتمل على الجوهر والأعلاق النفيسة. فتلقاها، ودخلت بين يديه المنصورية. كان زيري بن عطية مواليا للمنصور بن أبي عامر، وكانت العلاقات بينهما على أحسن ما يرام، وما هي إلا عشية وضحاها حتى انتفض عليه وطعن فيه. فسرح إليه ابنه المظنر في عساكر ضخمة، فغلبه على أعمال المغرب. فلم ير زيري بدا من أن يلحق بالقفر مشحنا بالجراح في شوال سنة 388هـ/998م لينجو بنفسه. فلم يؤدّ به إلى هذه الكارثة إلا تجبره وطموحه المفرط. يقول الشاعر:

فإذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم.

ولكن زيري بن عطية دأبه الفتنة والشغب. فجند العساكر وعاج بهم على المغرب الأوسط، ونازل ثغور صنهاجة، وحاصر يطوفت بن بلكين بتاهرت سنة 389هـ/999م. فكتب هذا إلى باديس يخبره بنزول: زيري بن عطية عليه محاربا ويستمدده ما يعينه على القضاء على ذلك الطاغى. فلم يمهله باديس الخبر حتى أمر نائبه محمد بن أبي العرب

بالتجهيز والاستكثار من العساكر والعدد والمسير إلى زناتة. ففعل، وخرج في 15 صفر سنة 389هـ/999م، ولا يلوي على شيء حتى وصل إلى أشير وبها حماد بن يوسف عم باديس. فرحل حماد معه في عساكره. فوصلا تاهرت واجتمعا بيطوفت في الفاتح جمادي الأول، وبينهم وبين زيري بن عطية مرحلتان وكان معسكرا بأمسار. فزحف الصنهاجيون إليه. فكانت بين الفريقين حرب ضروس بوادي مناس غرب تاهرت. وكان أكثر عسكر حماد يكرهونه لتقتيره عليهم في العطاء بحيث لما اشتد القتال انهزموا عمدا، فتبعهم جميع العسكر. فأراد محمد بن أبي العرب أن يرد الناس، فلم يقدر على ذلك، وتمت الهزيمة، ورجعت العساكر إلى أشير تاركين وراءهم محلاتهم ومضاربهم وكل ما فيها من الأموال والسلاح. فاحتوى زيري عليها وقتل منهم خلقا كثيرا وأسر آخرين أطلقهم عند وصوله تاهرت. وكانت هذه الهزيمة يوم السبت لأربع خلون من جمادي الأولى سنة 339هـ. فانتشر خبرها. فخاف باديس أن يستفحل أمر زيري بن عطية. فرحل من المنصورية للقاءه يوم السبت لليلتين خلتا من جمادى الأخيرة. فلما وصل طبنة بعث في طلب فلفول بن سعيد ليستظهر به على حربته. فخاف وأرسل يعتذر إليه عن الوصول وسأله أن يجدد له العهد على ولاية طبنة. فكتبه وأرسله إليه 389هـ/999م وواصل سيره. ثم اشتد خوف فلفول، فارتحل عن طبنة في جماعة من أصحابه.

ولما أبعد باديس رجعوا إلى طبنة وأخذوا ينيهون ويخربون فيها وفي نواحيها وفي تيجس أيضا. ثم قصدوا باغاية فحاصروها وعاثوا في ضواحيها. كل ذلك وباديس سائر إلى أشير. فسمع زيري بن عطية

أنه يعد السير إليه، فرحل إلى تاهرت. لكن حركاته لم تخف على باديس فقصده. فأجمع زيري على أن يغادر المنطقة ويؤم المغرب الأقصى. فلما اتصل بباديس خبره استعمل عمه يطوفت على أشير وتاهرت وأعطاه أموالا وعددا، فاستخلف يطوفت على تاهرت ابنه أيوب في أربعة آلاف فارس حتى يمكنه أن يحمي الناحية من عناصر الفساد والإتلاف. فعاد باديس إلى أشير. فبلغه ما قام به فلفول بن سعيد من نهب وتخريب. فأرسل إليه العساكر ثم لحقهم. فبقي يطوفت ومعه أعمامه وأبناء أعمامه.

فعصى هؤلاء وخالفوا على باديس وقبضوا على يطوفت وأخذوا جميع ما معه من مال فهرب من أيديهم ولحق بباديس. وكان هذا قد وصل إلى المسيلة مرفوقا بأبي البهار. فعيد فيها عيد الفطر. فسمع أبو البهار أن إخوته ماكسن وزاوي وعزم ومغنين قبضوا على يطوفت. فرحل أبو البهار هاربا في بيته ورجاله وعياله ولحق بهم. ورحل نصير الدولة هو الآخر ثالث شوال إلى إفريقية، وفي طريقه مر ببلزمة، فبلغه فيها أن فلفول بن سعيد تمادى إلى القيروان، فرحل إلى باغاية. فشكا إليه أهلها ما عانوه من طرف فلفول حين حاصرهم مدة خمسة عشر يوما. فصمم حينئذ باديس على أن يقطع دابر هذا الطاغي العنيد، فقصده، فوصل مرجنة. وسار فلفول إليه في جمع كثير من البربر وزناتة ومعه كل من في نفسه حقد على باديس وأهل بيته. فالتقوا بوادي أغلان، وكان بين الفريقين حرب لم يسمع بمثلها⁽¹⁾. فدارت الدائرة على فلفول. فانهزم في جبل الحناش. وأتبعه صنهاجة والعبيد. وبما أنهم رأوه

(1) الكامل ج9 ص: 154

تمادى منهزما رجعوا عنه واكتفوا بنهب محلته. وقتل في ذلك اليوم نحو سبعة آلاف من زناتة، وأرسل نصير الدولة كتاب الفتح إلى مدينة القيروان⁽¹⁾ فلا تسأل عن سرور القوم بالخبر، وكانوا سدوا الأزقة بالمتاريس حتى يصدوا فلفولا إن رام التعدي عليهم في بلدهم، لأنهم كانوا على بينة من قساوة وشراسة ويتوقعون منه حيث عاث في شتى الأقاليم و هزم جيش باديس وجسر على قتل ابي زعل.

فعاد حينئذ باديس إلى حاضرتة ظافرا. إلا أنه بلغه أن أولاد زيري اجتمعوا مع فلفول وعاقدوه، ونزلوا جميعا بحصن تبسة. فخرج إليهم في سنة 390هـ. ولكن فلفولا كان متيقنا أنه لاطاقة له للقاءه، فهرب إلى الرمال، ومن ثم شخص إلى طرابلس. وأما باديس فتمادى إلى أن إلى وصل قصر الافريقي وبسكرة. فلم يعثر على أثر عمومته. وسمع أنهم فارقوا فلفولا ولم يبق معه إلا ماكسن وابنه محسن. فرجع المنصورية وفي صحبته أبو البهار الذي عاد إليه واعتذر له مما فعل إخوته. فقبل العذر.

وفي سنة 391هـ فارق ماكسن فلفولا وسار إلى أشير وبها ابن أخيه حماد بن يوسف ولكن. فحدث بينهما حرب شديدة انتهت بمقتل ماكسن وولديه محسن وباديس.

أما زيري بن عطية ففتح تاهرت وتلمسان وشلف وتنس والمسيلة و أقام فيها للمؤيد هشام ولحاجبه المنصور بن أبي عامر بعده. ثم اتبع آثار صنهاجة إلى أشير قاعدة ملكهم، فأناخ عليها، واستأمن إليه زاوي بن زيري بن مناد ومن معه من أهل بيته المنازعين لباديس. فكتب حينئذ المنصور بن أبي عامر يخبره بانتصاراته ويسترضيه ويشترط على

(1) البيان ج 1 ص:360.

نفسه الرهن والاستقامة إن أعيد إلى ولايته بالمغرب الأقصى ويستأذنه في قدوم زاوي وأخيه خلال، فأذن لهما سنة 390هـ. وقد اعتل زيري بن عطية وهو بمكانه من حصار أشير. فأخرج عنها، وهلك في منصرفه سنة 391هـ بعد مقتل ماكسن بتسعة أيام في الثاني والعشرين من رمضان. وبموته من جهة وبابعد فلفول إلى طرابلس من جهة ثانية استرجع المغرب الأوسط استقراره ودعته. اجتمع آل خزرون ومغراوة بعد موت زيري بن عطية على ابنه، فبايعوه فضبط أمرهم وقصر عن محاربة صنهاجة، ثم استنجد للمنصور بن أبي عامر، واعتلق بالدعوة العامرية. فصلحت حالهم عندهم.

أما زاوي فلجأ على جبل شنوة بناحية شرشال. فبقي ينتظر جواب ابن أبي عامر. لكن هذا توفي، فأجابه ابنه المظفر إلى طلبه سنة 392هـ/1002م. فاجر من طنجة حينئذ مرفوقا بابني أخيه حباسة وحبوس وبجماعة من صنهاجة، وكونوا إمارة بالبيرة وغرناطة.

ظل نصير الدولة على وفاق مع عمه حماد بل كان هذا ساعده الأيمن إلى أن تحرك قبائل زناتة في سنة 395هـ في نواحي المسيلة وأشير، فسير لهم باديس عمه حماد فنازل زناتة وهزمها، ثم نزل مدينة تيجس من أحواز قسنطينة،⁽¹⁾ ثم نزل بأبي طويل وهي قاعة بأحواز قلعة حماد ومنفذهما على الساحل، وهناك اختط مدينة القلعة بجبل كيانة بكتامة

(1) ابن الخطيب للمحة البدرية ص 30.

سنة 398هـ/1007م،⁽¹⁾ واخذ حماد يعمل على الاستقلال عن باديس. فأحس هذا بما يتأهب، فأراد اختبار طاعته، فكتب اليه طالبا ان ينزل عن عمل تيجس وقسنطينة وقصر الافريقي لفائدة ولده وولي عهده المنصور. فأبى حماد واظهر الخلاف.⁽²⁾ فسير له باديس، لتسليم تلك المدن، هاشم بن جعفر وهو من اكبر قواده مرفوقا بإبراهيم بن يوسف أخي حماد في شوال 395هـ. فلما قارباه حمادا فارق إبراهيم هاشما، ولم يصل إلى القلعة حتى انضم إلى أخيه حماد. فاجتمعت كلمتهما. فخلعا الطاعة وأظهرا العصيان وجمعا الجموع الكثيرة. فكانوا ثلاثين ألف مقاتل.⁽³⁾ فلم يكتف حماد بذلك. فأعلن نبذه لطاعة الفاطميين، ودعا للخليفة العباسي في سنة 405هـ.⁽⁴⁾ عندئذ عزم باديس محاربة عميه. وقبل أن يفعل أخرج هدية إلى جليلة الحاكم وشيعها بالطبول والبنود عن المنصورية. فوصلت إلى المهديّة. وركب البحر بها يعلي بن فرج، وكان فيها مائة فرس لها سروج محلاة شدت في 18 حملا أقفاصا، وفيها 18 حملا من الخنز والسمور والمتاع السوسي المذهب النفيس وعشرون وصيفة وعشرة من الصقالبة وغير ذلك. ووجهت السيدة أم ملال، أخت نصير الدولة، السيدة أخت الحاطم هدية أيضا. ولما وصلت تلك الهدايا إلى جهة برقة أخذها العرب: وهرب يعلى بن فرج وأسلمها بجميع ما فيها.

(1) ابن الخطيب اعمال الأعلام القسم الثالث ص: 70

(2) ابن خادون جـ ص: 323، وابن عذارى: البيان جـ 1 ص: 371

(3) ابن الأثير: الكامل جـ 9 ص: 254

(4) ابن عذارى: البيان جـ 1 ص: 379

لم يرجع باديس من تشيع تلك الهدايا حتى خرج في أواخر
ذي الحجة ونزل برقادة ووضع العطاء لعساكره فيخلصون بذلك
ويثبتون أمام العدو، وأخرج عياله وأثقاله وأخته السيدة أم ملال
وأولاده وعبيده إلى المهديّة. فعند ذاك رحل بعسكره متجها إلى قلعة
حماد في المحرم 406 هـ. وفي غضون ذلك رحل حماد وأخوه إبراهيم
هاشم بن جعفر، قائد باديس وهو بقلعة شقنبارية في عسكره. فكانت
بين الفريقين حرب انهزم فيها ابن جعفر ولجأ إلى باجة. وغنم حماد ماله
وعدده.

فرحل باديس إلى مكان يسمى قصر الشهيد. فأتاه جمع غفير من
عسكر عمه حماد. فكتب حماد وإبراهيم إلى باديس أنهما ما فرقا
الجماعة ولا خرجا عن الطاعة. ولكن كيف يثق بهما لما يقومان به من
سفك الدماء وقتل الأطفال وإحراق الزروع والمساكن وسيي النساء.
فقد وصل حماد إلى باجة. فطلب أهلها منه الأمان فأمنهم، فاطمأنوا
إلى عهده. فدخل المدينة فإذا به يقتل وينهب ويحرق ويأخذ الأموال.

وما زال نصير الدولة إذ ذاك يتابع سيره إلى أن وصل إلى تادميت،
فبلغه هناك خبر وفاة ابنه المنصور عزيز الدولة. فأقام بتلك القرية حتى
سادس صفر. ثم استأنف سيره إلى المحمدية. فتلقيه أهلها داعين
شاكرين على ما منحهم من العدل والأمان وكشف عنهم من الجور
والعداوة. فأقام بها ستة أيام ثم رحل.

فقصد حماد مدينة أشير وهي له وفيها نائبه خلف الحميري.
فمال هذا إلى باديس ومنع حمادا من الدخول إليها وهو في حاجة
ماسة إلى الاستقرار بها في ذلك الوقت الحرج لحصانتها وقوتها.

سير باديس جيشا تحت قيادة أخيه كرامت إلى القلعة. فخرّبوها الا
أنهم لم يأخذوا مال أحد. فهرب جماعة غير قليلة من جند القلعة مثل
بني واليل أصحاب مقرة من زناتة وبني حسن كبار صنهاجة وبني
يطوفت وبني غمرة من زناتة. فوصل باديس أحد أمراء هؤلاء وعقد له
على طبنة وأعطى أصحابه الدواب .

ففرّ حماد ولحق بشلف بني وليل ولاذ في أتباعه حتى نزل
مواطن السرسو من بلاد زناتة. أما أخوه إبراهيم فبقي بالقلعة متحصنا
في بعض قصورها.

فأخذ أبناء النازعين عن حماد وذبحهم على صدور أمهاتهم. فقليل
أنه ذبح بيده ستين طفلا. فلما فرغ منهم قتل الأمهات⁽¹⁾.

وصل باديس إلى وادي الشلف، فعبّره. ثم عسكر قرب حماد
وحشوده. هناك دخل في طاعته بنو توجين اذ كانوا ساخطين على
حماد لقتله أميرهم داقلتين⁽²⁾.

فاستظهر بهم على حماد. قضى تلك الليلة على تحفظ واحتراس⁽³⁾،
وفي الغد برز في عساكره ورتبها وأقام كل قائد من قواده في مركزه.
وما هي حتى التقى الجمعان واقتتلا. فقال الشاعر أبو إسحاق الرقيق في
هذه الواقعة:

(1) الكامل ج 9 ص: 254

(2) العبر ج 6 ص: 351

(3) البيان ج 1 ص: 379

لم أنس يوما بشلف راع منظره وقد تضايق فيه ملتقى الحدق
والخيل تعبر بالهامات خائضــــــــــــــــة من سافح الدم مجرى قانىء الفلسق
والبيض في ظلمات النقع بارقــــــــــــــــة مثل النجوم تماوت في دجى الغسق
وقد بدا معلما باديس مشتتهــــــــــــــــرا كالشمس في الجولا يخفى عن الحدق
وإن راحته لوفاض نائلهــــــــــــــــا وبأسها في الورى أشفوا على الغرق
تجلو عمامته الحمــــــــــــــــراء غرته كأنه قمر في حمرة الشفق
لوصور الموت شخصا ثم قــــــــــــــــيل له أبو مناد تبدى ، مات من فرق

فانهزم حماد وانتهب عسكره وغنمت أثقاله وأمواله، وفي جملة ما غنم عشرة آلاف درقة⁽¹⁾ مختارة لمط⁽²⁾. ولولا انشغال العساكر بالنهب لأخذ حماد أسيرا فसार هذا لا يلوي على شيء حتى وصل إلى قلعة مغيلة، ومن ثم إلى قلعته، وذلك تاسع جمادى الأولى سنة 406 هـ / 23 أكتوبر 1015م. فتحصن بها مع أخيه. فأقاما بها ثلاثة أيام استراحا أثناءها، هما ومن معهما. ومن يدري أن يتبعهم باديس ويحاصرهم حصارا طويلا فينفذ أثناءه زادهم من طعام وملح؟ فهذا ما توقعه إبراهيم، فأشار أخيه حماد أن يخرجوا للتزود بأكثر ما يمكن منهما.

فساروا إلى مدينة دكّمة. فتجنوا على أهلها. فوضعوا السيف فيهم، فقتلوا ثلاثمائة رجل. فخرج إلى حماد فقيه منها وقال له: "يا حمادا! إذا لقيت الجيوش انهزمت، وإذا قاومتك الجموع فررت، وإنما قدرتك وسلطانك على أسير لا قدرة له عليك"

(1) البيان جـ 1 ص: 379
(2) الكامل جـ 9 ص: 255

فلم يسمع حماد كلامه فقتله، وحمل جميع ما في المدينة من طعام وملح وذخيرة إلى القلعة. وأما نصير الدولة فأخرج، يوم هزيمة حماد، بكار بن جلالة الوتلكاني، وكان قد أخذ أسيرا. وكان بكار كثيرا ما ينطلق به لسانه. وكان يوسف بن أبي حبوس الزيري معتقلا أيضا عنده، فقد عزله سنة 403 هـ عن أمر الجيوش، ثم أمر بالقبض عليه بعدما قربه ورفع من قدره. فأخرج نصير الدولة بكارا ويوسف وأمر بحلق لحيتهما. وبعد ثلاثة أيام جيء إليه بيوسف، فأمر به فجدع أنفه وقطعت أذناه⁽¹⁾ ثم رفع من بين يديه. ولكن نصير الدولة لم يقنع بذلك، فأمر بإحضاره.

فقطعت يده. فردّ بعد ذلك إلى موضع اعتقاله. فبات مشحطا في دمائه⁽²⁾.

فسمعه بعض الحرس يرغب أخاه أن يذبحه فيريحه خيفة أن يخرج من الغد ويزاد في عذابه أمام أعدائه. فصبره أخوه، ولكنه وقف، فضرب ضربة عظيمة بجبهته في عمود، فذرت منها عيناه وجرى دماغه وخر إلى الأرض ميتا⁽³⁾. فكان في نية يوسف بن حبوس أن يفتك بنصير الدولة فإذا بنصير الدولة يفتك به.

فبعد الفتك بيوسف، رحل باديس ثاني عيد الأضحى، من وادي شلف يريد حمادا. فحاصر القلعة فعلا كما توقعه ابراهيم أخو حماد مدة ستة أشهر حتى أصبح على قاب قوسين أو أدنى من افتتاحها

(1) البيان ج 1 ص: 383

(2) البيان ج 1 ص: 382

(3) البيان ج 1 ص: 383

وضم جميع المغرب الأوسط إلى إمارته. لما كان يوم الثلاثاء منسلخ ذي القعدة سنة 406 هـ أمر باديس بعرض العساكر. فرأى ما سره وأرضاه، وركب آخر النهار، فلعبوا بين يديه ولعب هو الآخر. فكلما هز رحا كسره، ثم نزل ودخل قبته⁽¹⁾ فرحا مرحا، فتناول طعام العشاء مع خاصته وقرابته. ففارق هؤلاء بعد ذلك وذهب مضجعه. فلما كان نصف الليل قضى نحيبه بعقرب قتالة تعلقت بثيابه⁽²⁾.

وصل خبر وفاة باديس إلى حماد، فتنفس الصعداء وفارقه همه وتسرب قلبه الأمل.

بدا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد⁽³⁾

فوفاة باديس كانت خلاصا لحماة وفرصة له للاحتفاظ بولايته التي قاسى الجهود الجبارة في سبيلها. هنالك ثلاث مشاكل كانت تتجاذب بالباديس: الوجود الزناتي الخطير في جنوب افريقية وسعي حماد في استقلاله عنه بالمغرب الأوسط والصراع العقائدي الحاد بين السنة والشيعة.

فقد قويت شوكة زناتة في إقليم طرابلس. فالخليفة العلوي يساعدهم بالمال والعدد والرجال ويحرضهم على مناوئة الدولة الزيرية لإضعافها حتى لا تطمع في الاستقلال عنه، فيحاربهم باديس، ولكن لا يأتي على ثورتهم جذريا إذ لا يسير إليهم جيشه بأكمله، فالجبهة الغربية هي الأخرى تحتاج إلى جيش يحميها ويذب عنها. ألا يرى

(1) قبة السلام: النويري

(2) ابن الخطيب: أعمال الاعلام ص: 72.

(3) المتنبي: لديوان ص: 320

حمادا يعمل لانفصاله عنه وعن الدولة العلوية وعقائدها؟ ويأبى ياديس إلا أن يكون المغرب الأوسط جزءاً لا يتجزأ من رقعته حتى ترد جميع الجبايات والأتاوات على خزينته. فأعلن عليه الحرب وهزمه، وذلك لأن حمادا خانة أصحابه من صنهاجة وزناته، فقد اشترى ياديس ضمائرهم بالمال فانضوا إليه ونزعوا عن حماد لتقديره عليهم في العطاء مع أن حمادا معذور في ذلك التقدير، فإن إمكانياته المالية قليلة لا تسمح له بأن يستتبع الناس بالصلوات والهدايا مثل خصمه الذي تزخر خزينته بالأموال الواردة عليها من كل جهة. فقد ساعد حمادا ابن أخيه مساعدة فعالة على زناته ولولاه لزال المغرب الأوسط من يده. وما دام حماد بالمغرب متاخماً ملوكهم وأحياءهم البادية يكون ياديس في مأمن من هجوماتهم. فكان الأولى بياديس أن يقتدي بالعبيدين الذين جعلوا الدولة الزيرية فاصلة بينهم وبين بربر المغرب فيترك عمه حمادا بالمغرب الأوسط فيكون سداً بينه وبين زناته الذين لا يدينون له بالطاعة ماداموا يدينون بالولاء الأموية. ولكن ياديس من ناحية سمح بطانته ومن إليه من الأعجام والقراصة الذين نفسوا على حماد رتبته وسعوا في مكانه منه⁽¹⁾، ومن ناحية أخرى كان يريد أن تبقى علاقاته مع الخليفة العلوي طيبة فلا يسوغ لعمه حماد أن ينبذ طاعة العبيدين ويراجع دعوة آل العباس ويظهر السنيّة.

ومما يؤكد لنا وجود صراع بين السنة والشيعة هو الأمر بنقل تجار القيروان إلى المنصورية⁽²⁾. فليس من شك في أن ياديس كان يتوقع حدوث اضطرابات مذهبية في القيروان لا تحمد عقباها بالنسبة لأهل

(1) ابن خلدون: العرج 6 ص: 350

(2) البيان ج1 ص376

الشيعة، فيغضب لها الخليفة بالقاهرة. ورغم الاحتياطات التي كان يأخذها باديس حتى لا ينفجر المرجل فإن حمادا قد أجح نار هذا الصراع بدسه إلى أهل تونس وباجة الثورة على المشاركة والرافضة⁽¹⁾. وهذه الثورة ستزيد انتشارا في عهد المعز بن باديس حتى يذهب أثر الشيعة كليا وتستقل البلاد عن الدولة الفاطمية. فبقيت إذن مشاكل باديس الثلاثة بدون حل، فلم يستأصل حمادا في المغرب الأوسط ولا فلفولا وورو بجنوب إفريقية والصراع العقائدي قد زاد حدة وذلك لأن الموت قد عاجله فخانه عن تسويتها. لكن سيأتي عهد ولده المعز ويجد حلها.

كان باديس شجاعا حازما مدهنا، وكان عفوا جوادا وحقودا قاسيا معا. فقد عصى أبناء زيري وخالقوا عليه، وحين عاد إليه أبو البهار واعتذر له مما فعل إخوته قبل العذر، وعامل ابن حبوس تلك المعاملة الشنعاء التي حدثناك عنها.

المعز بن باديس

توفي باديس في النصف من ليلة الأربعاء انقضاء ذي الحجة سنة 406هـ. فخرج الخادم حالا إلى حبيب بن أبي سعيد وباديس بن أبي حماسة وأيوب بن يطوفت وهم أكبر قواده، فأعلمهم بوفاته.

صدمة لم تكن في الحسبان! فمن يسوسهم بعده يا ترى؟ فإن الأمر من الخطورة بمكان. فالعدو قريب منهم متربص لهم يترقب حركاتهم ويستنشق أخبار معنوياتهم، فلا بد من حزم وعزم وسرعة

(1) ابن خلدون: العبر ج 6 ص: 351

في تقديم من يدبر أمورهم ويجمع كلمتهم ويوجه خطاهم. وكانوا يعلمون ميل صنهاجة إلى المعز بن باديس وغيرهم إلى كرامت بن المنصور أخي باديس؟ فثلا يحدث انشقاق يؤدي بالقوم إلى فتنة ينتهزها العدو للنيل من شوكتهم أجمعوا على أن يعينوا كرامت ظاهرا، فإذا وصلوا افريقية ولّوا المعز بن باديس. فأحضروا كرامت وبايعوه وولوه في الحال، وأصبحوا وليس عند أحد من العسكر خبر ذلك، ولكن لم يلبث أن شاع الخبر. فاضطربت الناس لموت الأمير وأظهروا ولاية كرامت. أما عبيد باديس ومن معهم فأنكروه.⁽¹⁾ فخلا حبيب بأكابرهم وعرفهم الحال.

مضى كرامت إلى مدينة أشير ليجمع صنهاجة وتلكاته وغيرهم، فأعطاهم من الخزائن مائة ألف دينار. فانضوا إليه.

وفي يوم السبت بموافقة عيد الأضحى سنة 406هـ / 30 ماي 1016م، رحلت العساكر من الحمدية إلى افريقية على تعبئة الزحف مقدمة وساقه وقلبا يتقدمها التابوت وأمامه البنود والطبول والجنايب والقباب.⁽²⁾ فأشرف حماد بن بلكين على العساكر وهي تمر كالسيل بين يدي التابوت، فقال لأخيه وخاصته: "مثل هؤلاء يخدم الملوك. وصلت، أنا، افريقية في ثلاثين ألف فارس، ما منهم إلا من أحسنت إليه وأنعمت عليه، فعدت إلى القلعة وما بقي منهم الا أقل من ستمائة، وأنا بين أظهرهم أرجى وهذا ميت أطاعوه كما كان حيا".

(1) الكامل جـ 9 ص: 257 والبيان جـ 1 ص 385.

(2) النويري عن هادي روجي ادريس: المغرب الأدنى في ظل بني زيري، الجزء الأول ص: 130...

وصل الموكب إلى المنصورية رابع عشر سنة 407هـ/13 جوان 1016م، والي المهديّة، والمعز بها، ثامن المحرم.

فركب المعز ووقف حبيب يعلمه بهم ويذكر له أسماءهم ويعرفه بقوادهم وأكابرهم، رحل الأمير إثر ذلك من المهديّة فوصل المنصورية منتصف المحرم.

فكان حديث السن لا يتجاوز عمره ثماني سنين وستة أشهر وأياما. لما وصله خبر موت أبيه جلس للعزاء، ثم ركب في الموكب وبايعه الناس. وأخذ يركب كل يوم ويطعم الناس بين يديه ترحما على أبيه.

اتفق آل باديس وأكابر الدولة على استنابة كرامت بن المنصور على أن تكون البيعة العامة في المهديّة. إلا أن المعز قد إتكا دائما على عمته أمّ ملال في تدبير شؤون الدولة قبل أن تتم تلك البيعة. فهي التي اعتنت بتربيته منذ نعومة أظفاره، تقضي معه أيام الشتاء بالمنصورية وأيام الصيف بالمهديّة. وهي التي اختارت له ابن أبي الرجال مؤدبا ومهذبا. ومنذ موت أبيه كانت له وصية خبيرة وفيّة أمانة. فهي جديرة بالتقدير والتبجيل والإكرام. وقد اعترف لها بالجميل. اعتلت سنة 414هـ وكان ابن أخيها يعودها ويفقدها في كل يوم. فلما كانت ليلة الخميس منسلخ رجب توفيت وصلي على جنازتها بالبندود والطبول والعماريات، والسيدتان الوالدة والأخت بحال من التشريف لهذه الجنازة التي لم ير لملك ولا لسوقه مثلها.⁽¹⁾

تمت البيعة العامة في 12 ذي الحجة سنة 407هـ. فأخذ المعز زمام أمر دولته. أما كرامت فلم يغادر مدينة أشير حتى قصده حماد في

(1) البيان ج 1 ص: 392 — 393.

ألف وخمسمائة فارس. فلقية كرامت في سبعة آلاف مقاتل. فالتحموا واقتتلوا قتالا شديدا. فرجع بعض أصحاب كرامت بيت المال فانتهبوه وهربوا. فتمت الهزيمة عليه وعلى رجاله وولى مدينة أشير. فإشار عليه قاضيهما وأعيان أهلها بالمقام بها ومنع حماد عنها. ففعل. فنازلهم حماد وطلب كرامت ليجتمع به. فخرج إليه. فأعطاه مالا وأذن له في المسير إلى المعز. ثم دخل المدينة وانتقم من أهلها حيث أشاروا إلى كرامت بحفظها ومنعه منها. فقتل منهم كثيرا. غادر كرامت المنطقة وقصد المعز فأكرمه وأحسن إليه وأجلسه يستعين به على تدبير شؤون دولته.

انتقل الفاطميون إلى القاهرة وتركوا على رأس ولاية إفريقية والمغرب الزيريين، ولكنهم كانوا حذيرين منهم. فقد تركوا بإفريقية طائفة يقال لهم المشاركة نسبة إلى عبد الله الشيعي، وكان من المشرق، وهي طائفة تدين بالولاء للخليفة الفاطمي، وكان هذا حريصا على أن يكون له في إفريقية والمغرب أتباع يميلون إليه ويعملون لانتشار المذهب الشيعي ويقومون بأدوار شأها أن تثير القلق والاضطراب حتى أصبحت الثورات في إفريقية والمغرب كثيرة ناشئة في صفوف القبائل مثل كتامة وزناتة جنوب إفريقية وبين الإخوان وبين بني العمومة. خالف بنو زيري وبنو حمادة على باديس واقتتل بنو زيري وحماد واقتتل حماد وباديس. ولكل من هؤلاء أعوان وأنصار. فالمشاركة، الذين طالما سعوا فسادا عقائديا وسياسيا والذين كان الخليفة العبيدي لهذا الغرض يمدهم بالرجال والمال ويوصي الزيريين بهم خيرا فلا يتعرضون لهم بأذى، قد دقت ساعة تطهير البلاد منهم. ركب المعز في المحرم سنة 407هـ ومشى في القيروان، والناس يسلمون عليه ويدعون له،

فاجتاز جماعة، فسأل عنهم، فقليل له: هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر، فقال "رضي الله عن أبي بكر وعمر". فشجعهم قوله هذا وانصرفوا من فورهم درب المعلى حيث يجتمع الشيعة، وثاروا بهم وشرعوا في قتلهم. وأغراهم على تبديد شملهم عامل القيروان الذي كان المعز يريد عزله. فأراد بدوره أن ينتقم منه بالإكثار من القتل حتى يفسد ذات ما بينه وبين الخليفة بالقاهرة. فقتل فعلا من الشيعة خلق كثير وأحرقوا بالنار، ونهبت ديارهم. واجتمع منهم قصر محمد بن عبد الله وقصر المنصور، فتحصنوا بما. فحصرهم العامة وضيّقوا عليهم، فاشتد عليهم الجوع، فأخذوا يخرجون والناس يقتلونهم حتى أتوا عليهم.

ولجأ من كان بالمهدية إلى الجامع، فلم يسلموا من السيف. فأشفى الشعب غليله الكامن في صدره منذ الأمد البعيد لما رأوا أن المعز راض وهو في الواقع راض وفي الظاهر متأسف مجاملة للخليفة العبيدي الذي لم يكن يخفى عليه ما يجري في إفريقية والذي آنس من نفسه العجز عن التدخل بالقوة المسلحة فيما حدث لأصحابه بالأرض الزيرية. فراح يصانع المعز ويجمله، فسير له الخلع ولقبه بشرف الدولة دون أن يذكر له قتل المشاركة ولا إحراقهم، وذلك في آخر ذي الحجة سنة 407هـ.

استغل حماد فرصة موت باديس. فدخل المسيلة وأضافها إلى أشير والقلعة وليزيد ولايته اتساعا راح يحاصر باغاية، وكانت المنطقة تابعة للمعز. فبلغه خبر ذلك التعدي، فزحف إليه لثمان بقين من صفر سنة 408هـ. فاضطر حماد إلى رفع الحصار عن باغاية، واشتبك مع جيش المعز آخر ربيع الأول في معركة عيفة، وما هي إلا ساعة حتى أسفرت عن هزيمة حماد وفراره إلى القلعة. فكان أصحاب المعز أكثر عددا من رجال

حماد، فوضعوا فيهم السيف وغنموا كل ما لهم من عدد ومال. فكان المعز يقول والحرب تدور رحاها والرؤوس تطير من كل جهة "من أتى برأس فله أربعة دنانير" فأتى بشيء كثير. وأسر إبراهيم ولو لم يلد حماد بالفرار لقبض عليه هو الآخر.

أخفق حماد وتفرق عنه رجاله، فأثر الصلح من خصمه، فبه تستقيم حالته ويسترجع كيانه. فبعث له رسولا يعتذر ويقر بالخطأ ويسأل العفو. وهل هناك شيء أكثر ذلا من طلب العفو من العدو؟ ولعل موقفه هذا سيكون له درسا في أيامه المقبلة فلا يعارك من هو أقوى منه. فالمعز لم يحقد عليه، فأجابه قائلا: "إن كنت على ما قلته فأرسل ولدك القائد إلينا". وما هي إلا أيام قلائل حتى ورد كتاب إلى المعز يقول فيه "إذا وصلني كتاب أخي إبراهيم بالعلامات التي بيننا أنه قد أخذ لي عهدك بعثت ولدي القائد أو أحضر بنفسه". فحضر إبراهيم وأخذ العهود على المعز وكتب لأخيه يخبره بذلك ويشكر المعز على إحسانه إليه. وفعلا، ان المعز عندما وصل إلى قصره آخر جمادى الأولى أطلق عمه إبراهيم وخلع عليه وأعطاه الأموال والدواب. فبمثل هذا يستميل الملوك قلوب الرعية ولا سيما المعارضين والساخطين منهم، لا بالشدة والعنف والمثلة كما كان يفعل أحيانا حماد. فلم يتردد حينئذ هذا فأرسل ولده القائد إلى المعز مصحوبا بمهدية، وكان وصوله للنصف من شعبان. فأكرمه ومنحه أشياء كثيرة وأقطع المسيلة وطبنة ومقرة ومرسى الدجاج وسوق حمزة وزواوة، وأقطع أباه الزاب وأشير وتاهرت وما يفتح من بلاد المغرب.

انقسام دولة صنهاجة دولتين زيرية وحمادية

عاد القائد إلى القلعة في شهر رمضان. فرضي حماد الصلح وحلف عليه، وبمقتضاه يستقل حماد فعليا هذه المرة وذلك سنة 408هـ/1017م. فوضعت الحرب أوزارها وانقسمت دولة صنهاجة إلى دولتين دولة آل المنصور بن بلكين أصحاب القيروان ودولة آل حماد بن بلكين أصحاب القلعة⁽¹⁾ ثم بحاية⁽²⁾ بعد ذلك. ولم تستقر الأمور بين العاهلين فحسب بل تصاهرا أيضا، فزوج المعز أخته أم العلو بعدد الله بن حماد. فازدادا اتفاقا وأمنا⁽³⁾.

والقبائل البربرية هي الأخرى انتهزت فرصة وفاة باديس وحادثة المعز للقيام بالفتن وسفك الدماء قد تعطلت من جرائها السابلة ومن ثم الحركة التجارية، وانكمش أيضا سكان الأرياف فضعفت الفلاحة فقلت مواد الغذاء وارتفعت أسعارها وسلط على البلاد الجراد فزاد الطين بلة.

فالموقف جد حرج، ووصل صداه إلى المدن وإلى الخزينة السلطانية نفسها فضعفت مواردها. فالملك لم يبق مكتوف الأيدي، فشرع على ساعديه لحسم هذا الداء الذي إن استفحل، قضى على كيان الدولة.

(1) ابن خلدون العبر ج 6 ص: 324

(2) ابن الخطيب: أعمال الأعلام القسم 3 ص: 76 تحقيق د. أحمد مختار العبادي والأستاذ محمد إبراهيم الكتاني

(3) ابن الأثير: الكامل ج 9 ص: 259 .

فأرسل الجيوش إلى القبائل. فبمجرد ما رأت العساكر رجعت إلى الهدوء وإلى ترك الحرب والتعدي على الناس.

فساد الوثام بين القبائل وعاد الأمن والاستقرار، فاستأنف الناس أعمالهم ونشاطهم، فولى الرخاء والاطمئنان وذلك سنة 409هـ.

قد سبق أن قلنا إن زاوي بن زيري هاجر إلى الأندلس. فعزم على العودة إلى بلاده، فولى ابن أخيه حبوس بن ماكسن على مملكته بغرناطة وعبر البحر. فوصل إلى القيروان سنة 410هـ 26 أبريل 1020 م، في أهله وولده وحشمه، وقد أقام في تلك الربوع منذ عقد له حماد على الجواز إليها، أي مدة اثنتين وعشرين سنة، ووصل معه من الأموال والعدد والجواهر الشيء الكثير ورأس المرواني سليمان بن الحكم بن عبد الرحمان الثالث الذي أعطاه إياه علي بن حمود سنة 406هـ/1016م، يثار به رأس أبيه زيري بن مناد الذي ذهب به يحيى بن حمدون في وفد من زناتة إلى عبد الرحمان الناصر بقرطبة. فأكرمهم المعز وحمل لهم شيئا عظيما وإقامات زائدة، وأقاموا عنده.⁽¹⁾

تولى حماد أمر المغرب الأوسط، فلم تعد مشاكله تتجاذب بال المعز، فأمكنه أن يتفرغ لضبط أمور رقعته، فعظم شأنه وقويت شوكته، فهابته القبائل التي كانت بالأمس القريب تتطاول. إن الشقاق الذي عرفه عهد باديس قد زال في هذه الفترة، فاجتمع حول ابنه المعز أفراد الأسرة المالكة، واطمأنت له العمومة، وهفت إليه القبائل البربرية، وذلك يرجع إلى سياسته الحكيمة، سياسة اللين والتسامح في غير ضعف. فكان لا يسعى إلا فيما يضمن الوثام بين أفراد رعيته وفيما يرجع

(1) ابن الأثير الكامل ج 9 ص: 355.

عليها بالخير والرفاه. فلماذا تلك الخلافات التي لا تبحر إلا الويل؟
فالشعب ركن إلى السلم و انصرف إلى الأمن وحرص كل الحرص
على أن تدوم هذه الأيام التي لم يعرف مثلها من قبل. فقد حبت نار
الثورات الدامية المتوالية التي كان الشعب يعيشها والتي كان يقيمها
المروانيون من جهة والفاطميون من جهة أخرى في المهديّة أولاً ومن
القاهرة من بعد بواسطة أتباعهم الذين تركوهم عيوناً على الزيريين
ومغربيين بإثارة الاضطرابات التي تضعف من جرائها الدولة الزيرية
وتتأثر الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

لم يعد الشعب غافلاً. فقد فهم أن سياسة الفاطميين ترمي
التفرقة بين الملك والشعب وبين القبائل نفسها. ألم يوص الخليفة، المعز
لدين الله، أبا الفتوح عندما عزم على مغادرة إفريقية بأن لا يرفع الجبايا
عن البلاد ولا السيف عن البربر وأن لا يولي أحداً من أهل بيته؟

فالمعز مال عن هذه السياسة المغرضة. فمال إليه الشعب وأطرح
الخلاف جانبا ، فصلح الأمر واستقامت الأحوال بين الناس. فليس من
الغريب أن نرى البربر في غالبيتهم يميلون عن المذهب الشيعي ويقفون
منه موقف العداء حين انكشف لهم سبب إثارة الشقاق. فبعثت زنادة
طرابلس وكتامة إلى المعز رسلاً يطلبون منه الصلح وأن يقبل منهم
الطاعة والدخول تحت حكمه، وشرطوا على أنفسهم أنهم يحفظون
الطريق، وأعطوا على ذلك عهودهم وموآثيقهم. فأجابهم إلى ما سألوا،
وجاءت مشيخة زنادة وكتامة إليه. فقبلهم وأنزلهم ووصلهم وبذل لهم
أموالاً جليلة⁽¹⁾، وذلك سنة 417 هـ.

(1) الكامل ج 9 ص 355

إن العبيدين أنفسهم أخذوا يغالون في محاملة المعز بن باديس. ففي سنة 411 هـ ورد عليه أبو القاسم بن اليزيد رسولا من الخليفة الحاكم بسيف مكلل بنفيس الجواهر وخلعة من لباسه لم ير مثلها وبسجل قرئ عليه فيه من التشريف ما لم يصل لأحد من قبله⁽¹⁾.

وفي نفس السنة ورد أيضا محمد بن عبد العزيز بن كدية بسجل آخر من الحاكم جوابا للمعز عما كان فيه من أخبار الأندلس وانقراض الدولة الأموية منها وقيام القاسم بن محمود فيها. فشكره على ذلك وبعث إليه خمسة عشر علما وصلت إليه يوم الأحد لليلتين بقيتا من ربيع الآخر⁽²⁾.

وفي سنة 414 هـ وصل محمد بن عبد العزيز ثانية من قبل الظاهر أمير مصر، بتشريف عظيم لشرف الدولة. فقرئت سجلات لم يصل قبلها مثلها أجل ولا أعلى مقالا، وزاد لقبا لقبه، فسماه شرف الدولة وعضدها وبعث له مع ذلك ثلاثة أفراس من خيل ركوبه بسروج جلييلة وخلعة نفيسة من نفيس ثيابه ومنجوقين منسوجين بالذهب على قصب فضة ما دخل افريقية مثلها قط، وعشرين بندا مذهبة ومفضضة، وقرئت السجلات لا بين يديه فحسب بل بجامع القيروان أيضا، وأمر ببعث نسخ الأعمال، فكان لها من السرور ما لا يوصف⁽³⁾.

وفي آخر هذه السنة وصل سجل آخر بزيادة لقب آخر تشريفا لشرف الدولة وعضدها. فأمر بأن يكاتب: من الأمير شرف الدولة وعضدها ويخاطب بمثل ذلك⁽⁴⁾.

(1) ابن عذاري : البيان جـ 1 ص: 389

(2) نفس المرجع ص: 38.

(3) نفس المرجع ص: 392.

(4) نفس المرجع ص: 392.

طار صيت المعز في الآفاق. فرغب الملوك في ربط خيوط الصداقة معه. ففي سنة 423هـ وصلت إليه من ملك السودان هدية فيها رقيق وزرافات وأنواع من الحيوان غريبة⁽¹⁾. وفي سنة 425 وصله من ملك الروم هدية لم ير مثلها في كثرة ما اشتملت عليه من أمتعة الديباج الفاخر⁽²⁾.

تأسيس القلعة واستقلال حماد

بينما كان المعز بن باديس يسعى فيما يضمن لملكه ذلك الأمن والخصب كان حماد يعمل هو الآخر لتوطيد أركان دولته الفتية وإعلاء شأنها. استقل سنة 387هـ في عهد باديس بن المصور، واتخذ أشير عاصمة. ولكن، تبادر إلى فكره أن يؤسس عاصمة جديدة تباهي القيروان والمهدية. فاختار لها موقعا استراتيجيا هاما بجبل كيانه بكمامة وعلى مقربة من ميناء بحاية ومن المسيلة التي كانت على ملتقى طرق القوافل الآتية من بلاد السود والذاهبة إلى القيروان من جهة وإلى الجزائر ووهران وتيهرت من جهة أخرى. فاختطها سنة 387هـ، ونقل إليها جماعة من أهل المسيلة وأهل حمزة وكذلك أهل جراوة من المغرب، وأمرهم جميعا بالبناء والتشييد. فلم يأت رأس السنة الرابعة حتى كانت الشوارع مكسطة والمساجد زاخرة والفنادق عامرة. رحل إليها من الثغور والقاصية والبلاد البعيدة أرباب الصناعة والتجارة وأهل العلم والطلبة. وظل حماد يفتتح الحصون والقرى ويضمها إلى ولايته.

(1) نفس المصدر ص: 396

(2) ابن عذاري: البيان ج - ص: 396

فافتتح تيجس وقسنطينة، كما سبق أن قلنا، ومن أجلهما خالف باديس وحاربه في سنة 406هـ، وحارب من بعده ابنه المعز. إلا أنه تم الصلح بينه وبين هذا الأخير على أن يستقل استقلالاً فعلياً بالمغرب الأوسط.

فكان له ذلك، ولم ينازعه فيه إلا المتمردون من زناتة الذين لم يلبثوا أن دخلوا تحت حكمه لما رأوا من سعيه في نشر الأمن والعدل والرخاء. فقد نبذ الطاعة للفاطميين. ويذكر ابن خلدون وابن الأثير وغيرهما أن حمادا دعا إلى الخليفة العباسي وقتل الرافضة وترحم على أبي بكر وعمر، وأعلن بإلغاء مذهب الشيعة، وفرض على الرعية مذهب السنة. فرضي عنه جميع الفقهاء ورجال الدين الذين كانوا يمتقون الفاطميين وعقائدهم والذين نشطوا نشاطاً عم صدها طبقات الشعب في المدن والبادوي.

وقد اشتهر حماد بتقريب العلماء والأدباء، فمن البديهي أن يتقاطر عليه أهل العلم، وهو بنفسه عالم وأحد قدماء طلبة القيروان.

وكان مقر حماد تارة بأشير وأخرى بالقلعة ويغلب عليه المكث بالقلعة لأنها صنعة يده ونتيجة جهوده، وتحتل مكاناً استراتيجياً إدارياً وعسكرياً واقتصادياً وثقافياً. فإنها تتوسط الولاية وبذلك يسهل عليه أن يكون على بصيرة مما يقوم به عماله في قسنطينة وبونة (عنابة) وجيجل والجزائر وسوق حمزة والمسيلة وأشير ومرسى الدجاج ونقاوس وبسكرة.

فقد حلاه ابن الخطيب في القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام بقوله: "كان حماد نسيج وحده وفريد دهره وفحل قومه ملكا

كبيراً وشجاعاً ثبتاً ودهية حصيماً. قد قرأ الفقه بالقيروان ونظر في كتب الجدل. وهو الذي بنى القلعة المنسوبة إلى حماد بالحضرة الباقية الأثر على توالي الغير، وتسمى غياتا، فاتخذ بها القصور المالية والقصاب المنبعة والمساجد الجامعة والبساتين الأنيقة، ونقل إليها الناس من سائر البلاد... " (1).

وجاء في كتاب الاستبصار⁽²⁾ أن حماد بن مناد صاحب القلعة التي تنسب إليه كان صاحب دهاء وفطنة وممارسة في الحروب، وكانت له فراسة حسنة وذكاء وله أخبار مشهورة محفوظة.

خرج حماد إلى تازملت متنزها فمرض بها وتوفي سنة 419 هـ / 26 يوليو 1029م، وحمل إلى القلعة حيث دفن. وولي بعده ابنه القائد. وعظم على المعز موته لأن الأمر بينهما كان قد صلح واستقامت أمور المعز بوجود حماد بينه وبين زنادة التي كانت تشغل باله قبل استقلال عم أبيه.

القائد بن حماد

بعد موت حماد أجمع القوم على أن يخلفه ابنه القائد، فجلس على عرش أبيه سنة 419 هـ / 1028م. وكان يشبهه في الحصافة وحسن الرأي والتدبير. لازم أباه فتدرب على تسيير شؤون الدولة. فلم يخالف عليه أهل بيته، بل كانوا يحترمونه ويقدرونه ويشدون أزره، فاتكأ عليهم لتكون سياسته متلاحمة نافذة. فاستعمل أخاه يوسف على مليانة

(1) ص: 85

(2) ص: 55

وأخاه وغلان على سوق حمزة⁽¹⁾. واحتفظ هو بالقلعة. فدانت إليه الرعية واستطاع هكذا أن يواجهه في غير عناء ما قد طرأ عليه من الحوادث من وراء حدود ولايته.

في عهده اشتدت وطأة المسلمين على النصارى بسواحل البحر المتوسط وجزره. ضيقوا على جنوة وبيزة ومرسيلية، فتأثرت بذلك حركاتها التجارية. فلم يبق الإيطاليون والفرنسيون مكتوفي الأيدي أمام هذه التحديات، فاتحدوا ووحدوا أساطيلهم ورموها على الأسطول الصنهاجي سنة 425 هـ/1034م، ومركزه حينئذ ببونة. فدمر النصارى المرفأ وتركوا المدينة خرابا. ولكن دولة القائد، رغم هذه الغارة، كانت تتمتع باستقرار لا بأس به ولا سيما من جانب زناتة. فيبدو أنهم كانوا راضين عن سياسته. إلا أن هناك حادثا جاء يعكس هذا الصنف، تدخل القائد بين بني يفرن ومغراوة. فتحرك حمامة بن زيري بن عطية المغراوي من فاس، قاعدة إمارته بالمغرب الأقصى، زاحفا بحشود كثيرة سنة 430 هـ/1038م على مملكة القائد، ولعله كان يرغب في استرجاع الأراضي التي كانت تابعة لأبيه بالمغرب الأوسط قبيل وفاته. فلقى القائد بجيوشه، وكان داهية. فلماذا يقتتل معه وتسيل الدماء ومن الممكن تحاشيها؟ فجنح إلى الحيلة: سرب الأموال في زناتة. فأحس بذلك حمامة وتيقن أن لا مناص من الهزيمة. فصالح خصمه ودخل في طاعته، وعاد إلى قاعدة إمارته. فرجع القائد هو الآخر إلى قلعته مظفرا.

وهناك مواقف تعيد نفسها. استقامت لحماة الأمور وتوسعت رقعته وشيدت قلعته، فمال عن العبيدين ودعا للخلافة العباسية.

(1) ابن خلدون العبر ج 6 ص: 352.

فارتاب باديس من سلوكه الذي هو سلوك ملك مستقل. فأبى إلا أن يبقى تحت طاعته تابعا له، فراح يحاربه. فنفس الحادث وقع بين ولديهما القائد والمعز. استتب الأمر للقائد، فرأى أن لا فائدة في الميل إلى الفاطميين ودعا لما دعا له أبوه سنة 432 هـ/1041م. فلم ير المعز بعين الرضا نجاح سياسة ابن عمه. فحرك إليه من إفريقية وحاصره بالقلعة سنة 434 هـ/1043م. ولحسن الحظ لم يقع قتال بينهما، فصالحه المعز وانصرف إلى أشير، فحاصرها ثم خرج عنها وانكفأ راجعا.

إثر هذه المحنة راجع القائد بني عبيد⁽¹⁾. فقال بذلك مودة البلاط الفاطمي ورضا الخليفة المستنصر عنه. فأكد القائد بذلك حرية واستقلال بلاده، وأصبحت منزلته السياسية بالمغرب الأوسط لا تقل عن رتبة المر بآفريقية. فتوطدت حينئذ أركان دولته لا يطسع فيها جيرانه شرقا ولا غربا.

أما المعز فبقي يخطب على المنابر للفاطميين حتى قطع أهل القيروان صلاة الجمعة فرارا من دعوتهم. فلم ير المعز بدا حينذاك من قطع دعوة الفاطميين. ففرح أهل القيروان ولا سيما عندما رأوا أنه لم يكتف بذلك، فقد أمر بلعنهم في الخطب وخلعهم. لما كان عيد الأضحى سنة 440 هـ، أمر الخطيب أن يسب بني عبيد فقال:

"اللهم والعن الفسقة الكبار المارقين الفجار أعداء الدين وأنصار الشيطان والمخالفين لأمرك والنافضين لعهدك المتبعين غير سبيلك والمبدلين لكتابك. اللهم والعنهم لعنا وبيلا واخزهم خزيا عريضا طويلا...." قال ابن شرف: "أمر المعز بن باديس بأن يدعي على منابر

(1) ابن خلدون: العبر ج 6 ص: 352 .

إفريقية للعباس بن عبد المطلب ويقطع دعوة الشيعة العبيدين. فدعا الخطيب للخلفاء الأربعة وللعباس بن عبد المطلب والبقية العشرة رضي الله عنهم، وأمر بإحراق بنودهم. فوردت على المعز الخلع والتقليد بإفريقية وجميع ما يفتحه. "وفي أول الكتاب الذي جاء به الرسول: «من عبد الله ووليه أبي جعفر القائم بأمر الله أمير المؤمنين إلى الملك الأوحى ثقة الإسلام وشرف الإمام وحمدة الأنام ناصر دين الله قاهر أعداء الله ومؤيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي تميم المعز بن باديس بن المنصور ولي أمر المؤمنين بولاية جميع المغرب وما فتحه بسيف أمير المؤمنين، وأرسل إليه سيفاً وفرساً وأعلاماً عن طريق القسطنطينية. فوصل ذلك يوم الجمعة فدخل الجامع والخطيب ابن الفاكهة على المنبر يخطب الخطبة الثانية. فدخلت الأعلام. فقال: هذا لواء الحمد يجمعكم وهذا معز الدين يسمعكم وأستغفر الله لي ولكم..

وقطعت الخطبة للعلويين من ذلك الوقت وأحرقت أعلامهم⁽¹⁾. فلما اتصل خبر ذلك بالمستنصر الفاطمي بعث إلى المعز يوبخه ويهدده. ولكن المعز كان على يقين من عجزه عن القيام بأية حركة نحو المغرب. فدولته أخذت الضعف يدب في مفاصلها. فشلت سياسته في المشرق واستقل عنه زنادة طرابلس. فأغلظ المعز في الجواب، ولم يكتف بلعنهم في الخطب، ففي سنة 441هـ ضرب الدينار المسمى التجاري. قال ابن شرف "في هذه السنة⁽²⁾ أمر المعز بن باديس بتبديل السكة في شهر شعبان وأمر بسك ما كان عنده من الدنانير التي عليها أسماء بني عبيد.

(1) الكامل ج 9 ص: 521-522

(2) سنة 441هـ

فسبكت وكانت أموالا كثيرة.⁽¹⁾ فالتقود الجديدة التي ظهرت من سنة 441 سنة إلى 449 سنية وضربت بالمهدية والقيروان أخذت تتداولها الأيدي في شعبان 441هـ/29 ديسمبر 1049م. ثم بث المعز في الناس قطع سكة الشيعة⁽²⁾ وأزال أسماءهم من جميع الدنانير والدراهم بسائر عمله.

وقد قطع أسماء الرايات والبنود. وكانت بقيت مرسومة فيها 145 سنة من 296 441هـ. وفي سنة 443 كان لباس السواد بالقيروان. قال ابن شرف: "وفي جمادى الثانية أمر المعز بن باديس بإحضار جماعة من الصباغين وأخرج لهم ثيابا بيضاء من فندق الكتان وأمرهم أن يصبغوها سوداء... وجمع الخياطين فقطعوها أثوابا، ثم جمع الفقهاء والقضاة إلى قصره وخطبي القيروان وجميع المؤذنين وكساهم ذلك السواد، ونزلوا بأجمعهم، وركب السلطان بعدهم حتى وصل إلى جامع القيروان. ثم صعد الخطيب المنبر وخطب خطبة أثنى فيها على جميع الأمراء بأجزل لفظ وأحسن معنى، ثم دعا لجعفر عبد الله بأمر الله العباسي."⁽³⁾

واتفق أن الخليفة الفاطمي استوزر الحسن بن علي اليازوري ولم يكن من أهل الوزارة، وإنما كان من أهل التبانة والفلاحة، فلم يخاطبه المعز كما كان يخاطب من قبله الوزراء. فغضب لذلك وأغرى به المستنصر. فأرسل هذا العرب⁽⁴⁾ القاطنين في الصعيد المصري الجهة الغربية

(1) البيان جـ 1 ص: 402

(2) البيان جـ 1 ص: 402

(3) البيان جـ 1 ص: 405

(4) قبائل سليم وهلال ورياح وزعة والأتيح ومقل

وأعطاهم مالا وأمرهم بقصد بلد القيروان، وملكهم كل ما يفتحونه
ووعدهم بالمدد والعدد. فدخلت العرب إلى افريقية. وكتب اليازوري
إلى المعز "أما بعد، فقد أرسلنا إليكم خيولا فحولا وحملنا عليها رجالا
كهولا ليقضي الله أمرا كان مفعولا."

فقاتلهم المعز، ولكنهم هزموه واضطر إلى مغادرة القيروان وإلى
اللجوء إلى المهديّة في شعبان 449هـ. فتلّقه ابنه تميم ومشى بين
يديه، وكان أبوه ولاه تلك المدينة سنة 445هـ.

فهكذا كانت نتيجة موقف المعز العدائي من الشيعة.. وأما
القائد، فأنعّم عليه المستنصر بلقب شرف الدولة، وأصبح متأكدا من
أن استقلاله لا ينازعه فيه المستنصر فهو بعيد يفصل بينهما الدولة
الافريقية والدولة الزناتية بطرابلس، ولا ينازعه أيضا المعز بن باديس،
فهو في شغل شاغل مع العرب. فانقلب على الفاطميين ونقض بيعتهم
وعاد إلى مبايعة الخلافة العباسية. وبقي على ذلك إلى أن توفي في شهر
رجب أوذي القعدة سنة 464هـ والقائد شريف النفس. فقد اعتدى
عليه المعز، فلم يحقد عليه. فبعث له ألف فارس والحرب تدور رحاها
بينه وبين العرب بجيدران. إلا أن مشاركتهم في المعركة الطاحنة لم تغير
خطورة الموقف. فالأقدار حكمت على المعز بالهزيمة فلا مرد لحكمها.
كانت دولة القائد عند مفارقتها الحياة قوية مستقلة رغم دعوته للخلافة
العباسية. فما على من يأتي بعده من الملوك إلا أن يتبعوا سياسته حتى
تطول حياة دولتهم ويعيش الشعب في ظلالها الوارفة في اطمئنان
ورفاهة.

محسن بن القائد بن حماد

مرض القائد وأحس بدنو أجله، فولى محسنا وأوصاه بأن لا يخرج من القلعة ثلاث سنين وأن لا ينازع أعمامه في مناصبهم. ولم يلبث أن توفي وجلس ولده محسن على عرشه سنة 447هـ/1054م، وكان جباراً⁽¹⁾ ومكابراً، فضرب بوصية أبيه عرض الحائط وعمل بما أوصى به المعز لدين الله الفاطمي أبا الفتوح أن لا يولي أحداً من أهل بيته. وشتان ما بين وصية المعز الفاطمي ووصية القائد. فإن الأولى يريد بها صاحبها التفرقة والشقاق بين الملك والعمومة ومن ثم الثورة والاضطراب، وأما الثانية فترمي إلى ائتلاف القلوب والتلاحم والتعاون على بسط الاطمئنان والاستقرار. فعزم محسن على خلع أعمامه من مناصبهم. فخرج عليه عمه يوسف صاحب مليانة وابتنى قلعة بجبل منيع سماها الطيارة وجمع حوله حشوداً كثيرة. فاغتاظ محسن لسلوك يوسف، وساء الظن بأعمامه، فقتل منهم أربعة. بدأ بمديني ومناد وثني بوغلان وتميم. لما انصل خبر ذلك بيوسف جن جنونه وزحف من طيارته إلى أشير، فخرّبها واستباح أموالها فلا يمكنها أن تستعيد تمدنها وازدهارها إلا في سنة 445هـ/1062م فكتب إليه محسن يأمره بالحضور بين يديه. فأجابه يوسف قائلاً "كيف أثق بك وقد قتلت أربعة من أعمامك؟"

فصمم محسن على الانتقام من عمه يوسف. فجهز جيشاً لمقاتلته وجعله تحت قيادة بلكين بن محمد بن حماد عامل افريون، وكان يريد أن يقضي عليه هو الآخر، ولأجل ذلك جعل في مؤازرته رجلين من سادة العرب: خليفسة بن مكان وعطية الشريف موعزا إليهما بقتله.

(1) ابن خلدون: العبرج 6 ص 353.

وكان بلكين قد غمرهما بإحسانه وأسر قلبهما بمودته فأبيا أن يمتثلا أمر الملك بل أخيرا بلكين بالمكيدة، وأردف خليفة قائلا: "لا خوف عليك، وإن أردت أن تقتله فإني مستعد للبطش به" فلم ينته خليفة من كلامه حتى لبس بلكين خوذته وركب جواده وقصد محسنا، وكان خارج العاصمة. فأنذر بلكين وفر إليها، ولكنه، لم يستطع أن يفلت منه. فأدركه بلكين وحكم السيف في رقبتة، فسقط ميتا في ربيع الثاني سنة 447هـ/جويلية 1055م لتسعة أشهر من ولايته. ودخل بلكين العاصمة ليلا ودعا فيها لنفسه، فأذعن له القوم وبايعوه سنة 447/1055م.

بلكين بن محمد بن حماد

يصور لنا التاريخ بلكين شهما قرما حازما سفاكا للدماء⁽¹⁾، وأحد جبابرة الإسلام، ولا يكلم إلا حين يتسمم⁽²⁾. فهناك عدة حوادث تبرر صحة هذه النعوت. قد قتل ابن عمه محسنا وجلس على عرشه كما سبق أن قلنا. ثم لم تمض إلا أيام حتى قتل وزيره. وقد أحس بنكث جعفر بن أبي رمان صاحب بسكرة فقتله، فثار لذلك أهلها، فنكل بهم سنة 450هـ/1058م. وكان توفي أخوه مقاتل بن محمد بن حماد فاتهم به زوجته ناميرت بنت عمه علناس بن حماد، فقتلها، فأحفظ ذلك أخاها، الناصر بن علناس. فليس من شك أن يثار لها منه. فان بلكين، إذن، كما يصفه ابن بسام: لا يمد يده إلا من لبدة أسد.⁽³⁾

(1) ابن خلدون: العبر: ج 6 ص: 353

(2) ابن بسام الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص: 59

(3) نفس المصدر ص: 159

وقد غزا المغرب عدة مرات إذ من طبعه ان لا يراح إلا وبحر الموت يلتطم.⁽¹⁾ آب مرة من بعض غزواته، فاحتاجت نفسه الراحة والخلوة بوجه أنسه، فجلس لذلك مجلسا حشد له شهواته وتقدم في إحضار ما يصلح له من آلاته وأدواته، وأمر قيمة جواريه باستحضار ابنة عمه دنيا، لم ير بعدها ولا قبلها أبرع ظرفا⁽²⁾ ولا أكثر جمالا منها. فإذا به تحتمر بعقله فكرة الغزو، وقد كان بلغه استيلاء يوسف بن تاشفين والمرابطين على المصامدة. فلم يعد يفكر فيما حوله، وأخذ يريد ويدبر.⁽³⁾ فقالت قيمته: وكأني أنظر إلى الكأس في يده وإلى ابنة عمه قائمة على رأسه من وقت صلاة العصر إلى طلوع الفجر، وحانت بعد طول ليلته نظرة، فرأى ابنة عمه، فاعتذر إليها واستدناها ووعداها ومناها، وقام من حينه، فوضع الكأس ملأى في طاق وطبع عليها، وأمر بالركوب كما فعل المعتصم العباسي، ولكن، لا لينقذ مثله العربية من النصارى بمعمورية بل ليغزو غزوته المشهورة إلى المغرب الأقصى التي بلغ فيها مدينة فأس واستولى عليها في صفر سنة 454هـ، واحتمل من أكابر أهلها وأشرفهم رهنا على الطاعة. وبث الرعب في قلوب المرابطين، ففروا منه إلى الصحراء، وتوغل في ديار المغرب، فوطىء دولة برغواطة، ودوخ السهول والجبال، وانكفأ راجعا القلعة، ظاننا ان البلاد كلها تدين له بالولاء، وأن لا يوجد أحد فيها ليس على حكمه. فعمد إلى مجلسه الذي غادره ليلتحق بالمغرب الأقصى، واستدعى كأسه التي وضعها في الطاق وابنة عمه دنيا التي وعداها ومناها.

(1) نفس المصدر ص: 159.

(2) نفس المصدر ص: 159

(3) نفس المصدر ص: 159

وفي أحد أسفاره انتهب منه الناصر ابن عمه الفرصة في الثأر بأخته. كان بعض خواصه خوفه من الناصر بكلمة أخذت يومئذ عنه، فجعلها بلكين نقلة ركابه وسمّر أصحابه، وكان قلماً يركب إلا ذارعاً آخذ بما يأخذ به من دعر القلوب، وكان مولعاً بالإدلاج إذا ارتحل، مؤثراً للإنفراد كلما ركب ونزل، وأقسم تلك الليلة ألا يدبج إلا حاسراً وليقتلن الناصر إذا نزل ولو كان أسداً خادراً فأعجله عن الأمر ولما يد وضح الفجر لقيه كأنه يسلم عليه أو يسير بين يديه. فما راجعه الكلام الا وقد جلله الحسام وأراح منه البلاد والأنام.⁽¹⁾

وذلك بتاسلة قرب وهران سنة 454هـ يوم الخميس منتصف شعبان. وفي الصباح جمع زعماء ذويه وأكابر صنهاجة وقال: "إنكم تعلمون أن بلكين قتل أختي فقتلته لا طمعا في مقاليد الحكم بعده وإنما لأشفي صدري" فظنوا أنه لم يجسر على القيام بهذا العمل الخطير إلا وله أشياع وأتباع"، فلأزموه السكوت ثم عمد إلى خزائن بلكين وأمر العساكر من عرب وزناتة أن ينهبوها"، فأمال إليه بذلك قلوبهم"، ورحل إلى القلعة وجلس على عرش عدوه".

فهكذا انتهت أيام بلكين، فلم ينفعه الحذر من أقاربه ولا السيطرة على أقرانه. سفك دماء الأبرياء، لكن لم يطل به المطال حتى سفك دمه وأصبح في خبر كان.

(1) ابن بسام: الذخيرة: القسم الأول المجلد الأول ص: 160.

الناصر بن علناس بن حماد

جلس الناصر بن علناس بن حماد على العرش في السنة التي تسلم تميم بن المعز مقاليد الحكم بالمهدية، وقد اتكأ في سياسته على أهل عشيرته الأقربين. فعقد لأخيه كباب على غرب البلاد وأنزله مليانة، ولأخيه رمان على سوق حمزة، ولخزر على نقاوس فبى أسوارها التي كان قد هدمها المعز بن باديس، ولأخيه بلبار على قسنطينة ولإبنه عبد الله على الجزائر ومرسى الدجاج، ولإبنه يوسف على أشير. فقد جعل بين أيديهم مصير الدولة الحمادية. فلم يخامرهم شك في إخلاصه لهم فخدموه، هم الآخرون بإخلاص، فنجحت بذلك سياسته الداخلية. أما بسكرة التي قتل بلكين صاحبها جعفر بن أبي رمان فقد خرجت عن طاعة الحماديين وقام بزمام أمرها بنو جعفر. فلم يقبل الناصر هذا الخروج، وأمر وزيره خلف بن أبي حيدرة الذي وزر من قبل لبلكين بن محمد أن يرجعها إلى رقبته. فقصدها ونازلها ودخلها عنوة، واحتفى بني جعفر في جماعة من أعيانها بالقلعة. فأمر الناصر بقتلهم وصلبهم.

وقد سعى رجال من صنهاجة يخلف هذا عند الأمير أنه لما بلغه خبر موت بلكين أراد تولية أخيه معمر بن محمد بن حماد وشاورهم في ذلك، فأمر الناصر بقتله وولي مكانه أحمد بن جعفر بن أفلح⁽¹⁾.

وقد خرج الناصر يتفقد غرب مملكته، وكان علي بن رقان هرب إثر موت بلكين ولجأ إلى أخواله من عجيسة. فاغتنم فرصة غياب الناصر للاستيلاء على القلعة بمساعدة أخواله ليلاً. فأخبر الناصر، فرجع

(1) ابن خلدون: العبر : ج 6 ص 354

على جناح السرعة، وفاجأهم واسترجع قلعته. فذبح علي بن رقان نفسه بيده.

ولعل الناصر يظهر لك جريئاً على سفك الدماء. فليس ذلك من طبعه، وإنما حرصه على أن يسود البلاد الاستقرار والاطمئنان الذي يؤدي به تطهيرها من عناصر الاضطراب والفساد.

قضى البدو على جيش المعز بجيدران، بين صفاقص وقفصة، واكتسحوا البلاد وعمت الفوضى. فانتقل المعز إلى المهديّة. كما سبق أن قلنا، ولم يبق حكمه سائراً إلا عليها. أما القيروان والقسطنطينية وألابة والأربس وباجة، فاستولى عليها الأعراب. وبما أن السلطة المركزية صارت عاجزة كل العجز عن حماية المدن الأخرى فثارت عليها.

فسقطت قابس في يد بني جامع وصفاقص في يد بني مليل وبترت في يد ورد وتونس في يد بني خراسان. ومن هؤلاء الأمراء من ضرب سكته، وإليهم أخذت الجبايات ترد. وأمير توزريجي بن وطاس دفع أهل قسطنطينية على أن يدعوا لبني حماد. وكانت قفصة تحت حكم عبد الله بن محمد بن الرند، وأسرت بنو صدغيان من جربة. وعلى حسب المؤرخ الحفصي ابن نخيل فهم من بني أزمرة المغراوي. وفي عهد عبد الله هذا عرف السكان والمسافرون نوعاً من الإطمئنان لأنه كان يدفع إلى لأعراب إتابة حتى تأمن المدن والطرق. فاستقل في سنة 445 هـ/1053-1054م. ودانت لحكمه أكثر مدن ناحية قسطنطينية وتوزر ونفتة وتقيوس والحمة. فقرب إليه الشعراء والأدباء، فمدحوه بشق القصائد، واحترم الأولياء ومات سنة 465 هـ/1072-1073م.

وفي سنة 445 هـ / 1053 — 1054م ثار أهل سوسة وامتنعوا من دفع الجباية إلى الخزينة السلطانية بدعوى أنهم يدافعون بها عن المدينة. واتفق أن توفيت أخت المعز في سوسة، فاستولوا على تركتها، وأبوا أن يدفعوا، ولو شيئا منها إلى المعز. فبعث يطلبها منهم، فرفضوا، فأرسل إليهم أسطولا دخل إلى ميناء سوسة وأحرق أكثر من ستين سفينة. وأخذوا أموالهم. وأخذ بزمام أمر المدينة جماعة من الأعيان.

وانتقاما منه قام السوسيون إلى أهل القيروان القاطنين بسوسة وعذبوهم فقد تدهورت الحالة السياسية، كما ترى، وتدهورت معها الحالة الاقتصادية. فالبوادي قد خلت من سكانها خائفين من البدو وملتحئين إلى المدن، فمن البديهي أن تضعف الزراعة وتربية المواشي، وتعطل السبل وتكسد الأسواق. فلم تأت سنة 447 هـ حتى عرفت افريقية أزمة اقتصادية كبيرة⁽¹⁾. أما المغرب الأوسط فبقي في مأمن من وطأة الأعراب في الشمال. أما في الجنوب فقد ظهرت فيه عصابات بدوية قاومتها زناتة. لم يزل نفوذ الناظر يقوى شيئا فشيئا. فكتب إليه حمو بن مليل البرغواطي من صفاقص أن يدخل في طاعته وبعث له بهدية. ووفد عليه مقدم قسطنطينية يحيى بن وطاس على رأس جماعة من الأعيان طالبين الدخول تحت حكمه. فأجزل صلتهم وردهم إلى أماكنهم. وعقد على قسطنطينية ليوسف بن خلوف من صنهاجة. ودخل أهل القيروان أيضا في طاعته سنة 450 هـ. ومشى أشياخ من أهل تونس على الناصر وهو إذ ذاك بالقلعة، دار ملكه، فاستدعوا منه النظر إلى مدينتهم وتقديم وال من قبله عليهم. فأمرهم أن يختاروا واحدا منهم

(1) البيان : ج 1 ص: 122

يقوم بأمرهم . فوليتها من قبل الناصر عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان. فأقام بها واليا إلى أن توفي سنة 488هـ. فتوسعت رقعة الناصر، فلم ييسط نفوذه على المغرب الأوسط فحسب بل على قسم كبير من افريقية أيضا، وسولت له نفسه أن يطمع في افريقية كلها نظرا لذلك التدهور السياسي الذي أصبحت تعانيه الدولة الزيرية. اتفق أن وقع بها الهلاليين حروب، وأتى إلى الناصر وفد من الأثيج صريحا به على رياح. وبما أن هؤلاء كانوا يميلون إلى الزيريين فأجابه الناصر ونهض إلى مظاهرتهم في جموعه من صنهاجة وزناتة، ويا ليتة لم يظاهروهم! فموقفه كان ذا عاقبة وخيمة. علم تميم بن المعز بأن ابن عمه الناصر يقدر فيه في مجلسه ويذمه، وأنه عزم على المسير إليه، وأنه قد حالف بعض صنهاجة وزناتة وبني هلال: الأثيج وعدي ليعينوه على حصار المهديّة. فلم يبق مكتوف الأيدي، فأرسل إلى أمراء بني رياح، فأحضرهم إليه وقال: «انتم تعلمون أن المهديّة حصن منيع ليس لعدو على اقتحامها سلطان كيفما كانت قوته. فالناصر، إذن، يريد بجمعه هذه العساكر اكتساح أرضكم وتبديد شملكم» فكانوا له آذانا صاغية وسألوه المعونة على محاربة الناصر. فأمدهم بالمال والسلاح. أعطى كل واحد منهم، وكانوا عشرة، ألف دينار وألف درع وألف رمح وألف درقة وألف سيف مهند. فودّعوه وذهبوا. فجمعوا قومهم وتحالفوا، واتفقوا على لقاء الناصر. ثم أرسلوا شيخين سرا من مع الناصر من بني هلال يقبحان عندهم مساعدتهم للناصر ويقنعانهم بأن صاحبهم لا يتأهب إلا لسحق العرب والاستيلاء على أرضهم. فاقتنعوا وقالوا: «اجعلوا أول حملة تحملونها علينا، فنحن ننهزم بالناس ونعود عليهم ويكون لنا ثلث الغنيمة». فأجابه الشيخان إلى ذلك واستقر الأمر.

ومن خلفاء تميم أيضا المعز بن زيري بن عطية الزناتي. فأرسل إلى من مع الناصر من زناتة نحو ما قام به رباح. فوعده أيضا أن ينهزموا. فرحل رباح وزناتة جميعهم. وسار إليهم الناصر بصنهاجة وزناتة وبني هلال. فالتقت العساكر سنة 457هـ/1065، بسهل سبية بين القيروان وتبسة. وحملت رباح على بني هلال وحمل المعز على زناتة. فاهزمت الطائفتان وتبعهم عساكر الناصر منهزمين ووقع فيهم القتل. ولحسن الحظ، أمكن الناصر أن ينجو بنفسه في عشرة من فرسانه، ويرجع الفضل في ذلك لأخيه القاسم. فإنه طلب منه تاجه ولواءه ودخل المعمة ويوهم الناس أنه الناصر يجري في ساحة الوغى يلقي أوامره ويحرض عساكره على القتال والصبر بينما الناصر ينسحب وينجوا إلى قسنطينة ثم يلحق بالقلعة، ولسوء الحظ قتل القاسم وقتل معه أربعة وعشرون ألفا من صنهاجة وزناتة مع أن زناتة قد اتفقوا مع إخوانهم على الخيانة، ولكن العرب كانوا يقتلون ولا يفرقون بين صنهاجة وزناتة من جيش الناصر، ولعلهم لم يكونوا على بينة من الاتفاق الذي أبرم بين زناتة أحلاف تميم وزناتة أحلاف الناصر. وغنمت العرب جميع ما كان في معسكر الملك الحمادي من مال وسلاح ودواب. فاقسموها على ما استقر ما بينهم. وبهذه الواقعة تتم للعرب ملك البلاد. فأثم قدموها في ضعف وفقر وأصبحوا بعد حين ذوي مال وسلاح ودواب فأرسلوا الألوية والطبول وخيم الناصر بدواها إلى تميم. فردها وقال: «يقبح بي أن آخذ سلب ابن عمي». فأرضى العرب⁽¹⁾. ولم يكف رباح القتل والنهب فتبعوا الناصر وحاصروه في قلعتيه وعاثوا في الناحية، فعمدوا إلى البساتين فأتوا على

(1) الكامل جـ 1 ص: 45 — 46

على الأخضر واليابس وخربوا طينة والمسيلة وطرّدوا سكانها ونهبوا
الفنادق وكبسوا الآبار، ونشروا الإرهاب في كل مكان، واضطّرّ أهل
المدن إلى لزوم بيوتهم لا يخرجون إلى مزارعهم إلا إذا أدوا إتاوة وهم
صاغرون.

إن وقعة حيدران مكنّت أولئك البدو من الاستيلاء على افريقية
باستثناء المهديّة حيث تحصن الملك، وأما وقعة سببية فشجعتهم على
مواصلة زحفهم نحو الديار المغربية التي على كل حال لم تضطرم نارا
كإفريقية لأن شوكتهم لم تبق قوية كما كانت على عهد دخولهم إلى
القيروان.

والبدو طارئون على البلاد لا يربط بينهم إلا صلة العرق
والأرومة. ولو كان وعيهم القومي مشفوعا بوعي سياسي لأزالوا
الدولتين الزيرية والحمادية ولأسسوا على أنقاضهما دولة عربية عديدة
نظرا على عددهم وشجاعتهم وروح العصية المتأصلة فيهم لكن
الاستقرار ليس من طبيعتهم والسياسة لا يكثرثون لها. ولعلمهم يجنحون
إليها في بعض الأحيان، إلا لأنهم لا يهمهم منها الا مصالحهم
الشخصية ومنافعهم المباشرة. اكتسح الأتبيج جنوب المنطقة، وتمرّكوا
فيها فأصبحوا حماة الطرق وحماة الأسواق وحماة المدن، ولا نعي
بذلك أن الدولة الحمادية تضعضع كيائها مثل دولة تميم، لا زال الناصر
قويا يفرض وجوده على الأتبيج وغيرهم فيصانعونه ومع ذلك تراه حذرا
منهم. أينسى غدرهم يوم سببية؟ فلم يهدأ له بال حتى شيد عاصمة
جديدة كانت حصينا لا يدور بخلد عدو أن يحاول اقتحامها برياً.

ويحكى لنا ابن الأثير⁽¹⁾ أن فكرة بناء بجاية، تلك العاصمة الجديدة، اهتدى إليها رسول تميم إلى الناصر بن علناس. أحضر تميم بن محمد بن البعيع وأعطاه مالا ودواب وعبيدا وأرسله إلى الناصر.

فسار حتى وصل إلى بجاية، وكانت حينئذ متزلا فيه قبيلة صنهاجة تسمى بجاية. فنظر محمد بن البعيع إلى الموقع وقال في نفسه «إن هذا المكان يصلح أن يكون له مرسى ومدينة» ثم استأنف سيره إلى القلعة. فدخل على الناصر وقدم له كتاب تميم. وبعد تأدية الرسالة قال له: «معي وصية إليك وأحب أن تخلي المجلس» فقال الناصر: إني لا أخفي عن وزيرى شيئا. فقال «بهذا أمرني الأمير تميم» فقام الوزير بكر وانصرف. فقال الرسول حينئذ «يا مولاي، إن الوزير مخامر عليك، هوام مع الأمير تميم لا يخفي عنه من أمورك شيئا. وتمام مشغول مع عبيده، قد استبد بهم واطرح صنهاجة وغير هؤلاء، ولو وصلت بعسكرك ما بت إلا فيها لبعض الجند والرعية لتمام. وأنا أشير عليك بما تملك به المهدية وغيرها» وذكر له عمارة بجاية وأشار عليه أن يتخذها دار ملك ويقرب من بلاد إفريقية. وقال «أنا أنتقل إليك بأهلي وأدبر دولتك» فأجابه الناصر إلى ذلك، وارتاب بوزيره. وسار مع الرسول إلى بجاية وترك الوزير بالقلعة. فلما وصل الناصر بجاية أراه موضع الميناء والبلد والدار السلطانية وغير ذلك. فأمر الناصر من ساعته بالبناء والعمل، وسر بذلك وشكره، وعاهده على وزارته إذا عاد إليه. ورجعا القلعة فقال الناصر لوزيره: «إن هذا الرسول محب لنا، وقد أشار ببناء بجاية ويريد الانتقال إلينا، فاكتب جواب كتبه»

(1) الكامل جـ 10 ص: 47 .

ففعّل⁽¹⁾. وكان الناصر قد بعث وزيره هذا للإصلاح بينه وبين تميم. فعقد صلحا وتممه الناصر. ولكن هذا الصلح جاء ما يجعله حبرا على ورق. فإن الرسول ابن البعيع رجع إلى مولاه تميم وقد ارتاب به هذا حيث تجدد بناء بجاية عقبَ مسيره إليهم وحضوره مع الناصر فيها، وكان الرسول قد طلب من الناصر أن يرسل معه بعض ثقاته ليشاهد الأخبار ويعود بها. فأرسل معه رسولا يثق به. فأرسل معه «إنني لما اجتمعت بتميم لم يسألني عن شيء قبل سؤاله عن بناء بجاية وقد عظم أمرها عليه واتهمني، فانظر إلى من تثق به من العرب ترسلهم إلى موضع كذا، فإني سائر إليهم مسرعا. وقد أخذت عهود زويلة وغيرها على طاعتك» وسير الكتاب. فلما قرأه الناصر سلمه إلى الوزير، فاستحسن هذا وشكره وأثنى عليه وقال: «لقد نصح وبالغ في الخدمة، فلا تؤخر عنه إنقاذ العرب ليحضر معهم»⁽²⁾ ومضى الوزير ابن أبي الفتوح إلى داره وكتب نسخة الكتاب الذي بخط الرسول إلى تميم وكتابا منه يذكر له ما وقع وما سيقع. فلما وقف تميم على الكتاب عجب من ذلك وبقي يتوقع له سببا يأخذه به، إلا أنه جعل عليه من يحرسه في الليل والنهار من حيث لا يشعر. فأتى بعض أولئك الحرس إلى تميم وأخبره بأن الرسول صنع طعاما وأحضر عنده الشريف الفهري. وكان هذا الشريف من رجال تميم وخواصه. فأحضره تميم. فقال: «كنت واصلا إليك فأخبرك بأن محمد بن البعيع دعاني. فلما حضرت عنده قال: «أنا في ذمامك، أحب أن تعرفني مع من أخرج من المهدية. فمنعته من ذلك وهو خائف».

(1) الكامل ج 10 ص: 48

(2) الكامل ج 10 ص: 49

فأوقفه تميم على الكتاب الذي بخطه، وأمره بإحضاره. فأحضره الشريف فلما وصل باب السلطان لقيه رجل بكتاب العرب الذين سيرهم الناصر ومعهم كتاب الناصر إليه يأمره بالحضور عنده. فأخذ الكتاب وخرج الأمير تميم. فلما رآه ابن البعيع سقطت الكتاب منه، فإذا عنوان أحدها: من الناصر علناس فلان. فقال له تميم: «من أين هذه الكتاب؟» فسكت، فأخذها وقرأها. فقال ابن البعيع: «العفو يا مولانا!» فقال: «لا عفا الله عنك»⁽¹⁾. وأمر به فقتل وغرقت جثته⁽²⁾. وتحقق الناصر بدوره أن وزيره ابن أبي الفتوح مائل إلى تميم، فقتله.

بقيت الحالة متوترة بين الناصر وتمام. فالأول يشد أزره الأثيخ والثاني رباح. وكان تمام حازما لم يأل جهدا لاسترجاع النفوذ الزيري وذلك مدة 48 سنة من 454هـ - 501هـ / 1060-1108م. فاستعاد تونس الخراسانية سنة 460هـ / 1067-1068م فعظم أمرها على الناصر، فقام يحاصر الأريخ بمساعدة حلفائه الأثيخ سنة 460هـ / 11 نوفمبر 1067-30 أكتوبر 1068م، ودخلها وقتل صاحبها ابن مقرز وفي الوقت نفسه كان على القيروان القائد ابن ميمون قد أقره عليها تمام. فخالف عليه ومال إلى الحماديين. فدخلها الناصر وعقد له عليها ثم غادرها. وفي سنة 461هـ / 1069م، رجع الناصر إلى القلعة خوفا من أن يتكفل عليه العرب فيقع له ما وقع له آنفا بسببية.

إن موقف ابن ميمون أثار غضب تمام، فأرسل إليه جيشا ينتقم منه. فرأى القائد أن ليس في استطاعته أن يقاوم العدو، فغادر القيروان وهرب إلى القلعة. فدخل إليها تمام وأمر بدم قصر ابن ميمون.

(1) الكامل ج 10 ص: 49 / (2) الكامل ج 10 ص: 49

قضى هذا الأخير ست سنوات بجانب الناصر، فإذا به يقصد صاحب صفاقص حمو بن مليل البرغواطي الموالي للحماديين. فاتصل هناك بأمير زغبة يبقى بن علي ورغبه في بيع القيروان للناصر. فكانت الصفقة بين الطرفين على يد حمو بن مليل. ولكن، هل فعل ابن ميمون ذلك من تلقاء نفسه أم سيره الناصر؟ فأرتبك المؤرخون في الأمر مع أنه لا يختلف فيه إثنان، فلم يتحرك ابن ميمون إلا بإذن الناصر بدليل أنه لم يتم البيع حتى عقد له على المدينة. ثم لا شك أن الناصر كان يريد أن يحدث مشكلا بهذا الابتياح. فإنه انتقام من الحلف التميمي الرياحي الذي أخرج زغبة من افريقية، وقد تنجم عنه عواقب سيئة تمنع تميما من مواصلة عمله لاسترجاع كيانه دولته. وقد فهم تميم والناصر معا أن العنصر الصنهاجي يضعف بقدر ما يقوي العنصر العربي. فعزما على أن يتفقا، وما هي إلا حتى أبرم الصلح بينهما. وهذا ما كان يرمي إليه الناصر بابتياح القيروان. فاصطلحا سنة 470هـ/1077-1078م. ووطد هذا الصلح بالمصاهرة. فقد زوج تميم ابن عمه بلارة وجهازها إليه من المهدية في عساكر عظيمة ومال وأسباب وذخائر⁽¹⁾. وكان اقتبال الموكب ببجاية. ثم أنزلت العروس بقصرها الخاص الذي شيده الناصر وسماه باسمها: قصر بلارة. واحترم الناصر الاتفاق بينه وبين تميم حتى وفاته واحترمه أيضا بعده المنصور وباديس والعزير بعد وفاة تميم. فتفرغ العاهلان لحل مشاكلهما، وما أكثر ما كانت هذه المشاكل!

(1) كتاب العبرج 6 ص 446

اضطرب أمر الحماديين وكثر الثوار في غرب البلاد وجنوبها إثر معركة سببية. لكن ليس لليأس على قلب الناصر سلطان، فمعركة سببية عنده كسحابة صيف عن قريب تنقشع. وفعلا نهض من كبوته وأرجع إلى دولته هدوءها ويسرها وعزتها. افتتح بجاية واختط مدينة 460هـ - 1068م سماها الناصرية وتسمى عند الناس باسم القبيلة وهي بجاية، وبنى بها قصر اللؤلؤة، وكان من أعجب قصور الدنيا. ونقل إليها الناس وأسقط الخراج عن سكانها، وانتقل إليها سنة 461هـ / 1069م. وفي أيامه كان استفحال ملكهم وشغوفه على ملك بني باديس اخوانهم بالمهدية. فبنى المباني العجيبة المؤنقة وشيد المدائن العظيمة⁽¹⁾، وردد الغزو النواحي الثائرة، ولم تأخذه في الثائرين والمخالفين هوادة.

استمال الناصر بني ومانو وكان على رأسهم بنو ماخوخ. وأبى إلا أن يبني بمنت من هذا القبيل العتيد، فالمصاهرة توطد المحالفة والولاء. واقتدى به بعده ابنه المنصور. كانت فتنة من الترك والمغاربة بمصر في أيامها خرج المنتصر بن خزرون الزناتي إلى طرابلس. فوجد فيها بني عدي قد طردهم الاثيج وزغبة من افريقية. فرغبهم في بلاد المغرب وسار بهم حتى نزل بالمسيلة ودخلوا أشير فقصدهم الناصر، ففارقوا وفر المنتصر إلى الصحراء، ولم يلبث أن عاد. فرجع إلى سلوكه التخريبي. فرأى الناصر أنه لا يقضي عليه فتستريح المنطقة من فسادة إلا بالحيلة فأقطعه ضواحي الزاب وريغة. وأوعز عروس بن هندي رئيس بسكرة وولي دولته أن يكره به. فاتفق أن يدخل المنتصر إلى بسكرة ونزل ضيفا على عروس، وقدم له ولأصحابه ما لذ وطاب وحينئذ أمر عروس حشمه

(1) كتاب العبر ج 6 ص: 446

أن ينقضوا عليهم ويضعوا السيف في رقابهم. وما هي إلا دقائق حتى طعنوا المنتصر وفر أتباعه. فأراح الناصر منه والبلاد من عيئه، وبعث برأسه إلى العاصمة، فنصب ببجاية، وصلب شلوه بالقلعة حتى يكون عظة لغيره.

كان أبو الفتوح بن حبوس المغراوي أميرا على سنجاس، وأبى إلا أن ييسط نفوذه على لمدية، ولمدية قبيل من بطون صنهاجة سمي البلد بهم. فقبض عليه الناصر وقتله.

وكان بناحية شلف مع نصر بن حماد المغراوي. فأجلب على عامل مليانة وقتل شيوخ بني ورنسغان من مغراوة، وكانوا موالين للناصر، وكان هذا مشتغلا بشأن العرب. فكتب رجال القبيلة أن يقتلوه. فامتلوا أمر الناصر، وزحفوا إليه وقتلوه وحزوا رأسه وبعثوا به إليه، فنصبه على رأس القصر. وبعث أهل الزاب إلى الناصر أن غمرت ومغراوة ظاهروا الأتبع على بلادهم. فبعث ابنه المنصور في العساكر ونزل وغلان بلد المنتصر بن خزرون وهدمها.

وتحرك عناصر الإضطراب بواركلا، فبعث الناصر إليهم جيشا أخذ نار الفتنة، وولى على البلد من يدبر أمره، وقفل راجعا بالغنائم والسبي. فلم يرتح من تلك الغزوة حتى وافاه خبر بني توجين من زناتة أنهم ظاهروا بني عدي على الفساد وقطع السبيل، وأميرهم وقتئذ مناد بن عبد الله. فبعث ابنه المنصور إليهم بالعسكر. فتقبض على أمراء بني عدي: ساكن بن عبد الله وحמיד بن خزعل ولاحق بن جهان، وتقبض أيضا على أمير بني توجين وأخيه زيري وعميهما الأغلب وحمامة وأحضرهم، فوجنهم وقتلهم جميعا.

فإن هذه الأحداث ترجع، كما، ترى إلى تواطؤ زناتة والأعراب، فإن هؤلاء لم يقنعوا بالاستيلاء على افريقية، فواصلوا زحفهم على المغرب الأوسط، فأغراهم بأراضيه الشاسعة ومياهه الدافقة وثرواته الطبيعية. فحلوا به بفكرة الإقطاع. فانقسم إلى مقاطعات يرأسها أمراؤهم ويحمونها. فيدفع إليهم المزارعون نصيبا من منتجاتهم والتجار وأصحاب الحرف قسطا من أرباحهم. ألا تتفكك الوحدة السياسية بهذه الإجراءات ان لم يكن لهم بالمرصاد سلطان حازم يشنت شملهم ويرغمهم على الخضوع مثل الناصر بن علناس؟

ولكن سكان المدن الداخلية يخافون على أنفسهم وأموالهم عند شن الحرب بين السلطة والثائرين فيتجهون نحو الشمال حيث يجدون اطمئنانا وراحة من ظلم وشغب أولئك الأعراب. فهذا هو سر ضعف بعض المدن بشريا وحركات مثل القيروان وطبنة والقلعة وأشير التي عرفت ازدهارا كبيرا قبل هذه الآونة.

انحدرت جماعة من رباح من نواحي باجة، وتفرقوا بنواحي القالة وبونة وقسنطينة إلى القل وجبال بابور، وجماعة أخرى عن طريق سببية وانتشروا بنواحي تبسة وجنوب الأوراس وقرى الزاب. ودخل الأتبع من قفصه إلى بسكرة وطبنة والمسيلة ووصلوا إلى نواحي القلعة. وظهر زغبة ومعقل من الجنوب وتفرقوا عند وصولهم ما بين صدراتة ولغواط. فعرج زغبة إلى الشمال إلى أن وصلوا متيجة فأثبتوا في أنحائها. أما معقل فواصلوا طريقهم غربا إلى أن قصد بعضهم مقاطعتي تلمسان ووهران والبعض الآخر المغرب الأقصى وسجلماسة. اكتسح الأعراب الأرض، وزاحموا البربر وضايقوهم حتى تخلت لهم قبائل عن مواطنها، وهجرت

النسروج العلالي والسليمي والمعتق
علي عهد بني همدان



إلى الناحية الغربية مثل بني عبد الواد الذين نزلوا بإقليم تلمسان وبني مرين الذين نزلوا جنوبي إخوانهم بني عبد الواد، ثم نزحوا إلى المغرب الأقصى وكونوا هناك مملكة عاصمتها فاس.

اتصل البربر بأولئك الأعراب بحكم الجوار وأخذوا عنهم عوائدهم واستعرب كثير منهم لما وجدوا في العربية ثروة لفظية وأدبا راقيا وإعانة على فهم الدين، واستبدلوا بحياتهم حياة عربية،⁽¹⁾ فالمغلوب بالغالب يقتدي⁽²⁾ فزادت العربية انتشارا بالاحتكاك والمصاهرة، وأخذت البربرية يتقلص ظلها على الجبال. فقال الأستاذ العكاك: «إن البربرية بقيت لغة حديث بالجبال والأماكن التي لم يختلط فيها البربر بالعرب ولم تنتشر بينهم الثقافة العربية حينئذ»

وقد تغلب الأعراب على طرق القوافل فلا يجتازها غيرهم إلا بخفارة أحدهم. فوقفت حركة البربر التجارية من هذه الناحية. ولكن الهلالين قاموا بها أحسن قيام ووسعوا نطاق التجارة بين التل والصحراء.

فتروح بني هلال، زغبة ومعقل، إلى المغرب الأوسط قد أثر في الحواضر والبوادي اجتماعيا ولغويا وجنسيا واقتصاديا.

مات الناصر سنة 481هـ دون أن يجد حلا جذريا للمشكل العربي. فالأعراب أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض وبالأحرى لمن ليس من أرومتهم، وذلك للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة.

(1) الميلي: تاريخ الجزائر ج 3 ص: 154

(2) ابن خلدون: المقدمة ص: 147.

فقلما تجتمع أهواؤهم. فلم ينفع معهم إلا الحذر واليقظة والملاينة تارة والعنف تارة أخرى على حسب الظروف. فبقيت المملكة الحمادية شاغرة بموت الناصر. فمن ذا الذي يجلس على عرشها ويدير شؤونها مثله، ياترى؟

المنصور بن الناصر بن علناس

كان المنصور حديث السن عندما خلف أباه على العرش الحمادي سنة 481 هـ/1088م. فإنه ابن بلارة بنت تميم بن المعز التي بنى بها الناصر سنة 470/1077م. فلم يشع هذا الحادث حتى بعث له الملوك، منهم تميم بن المعز ويوسف بن تاشفين الرسائل والوفود يعزونه ويهنئونه. ورث من أبيه مملكته وشهامته وحزمه وعزمه. ساس رعيته بحكمة وحصافة مقتديا بأبيه. وكان كاتباً وشاعراً ويلبس الثياب البالية المرقعة وربما كان يرقعها بيديه، وكان يقنع بالقليل من الطعام في قلعه التي رأى النور فيها لأول مرة. فوجود البدو في نواحيها لم يمنعه من الإقامة بها مدة. إلا أنه غادرها سنة 483 هـ/1090م، واستقر ببجاية، فإنه لا يعرف ما قد يأتي به الغد. فهي أكثر حصانة وأشد استراتيجية، وأحسن موقعا منها. فهي من الجهة البرية صعبة المسالك لوجود الأوعار، ومن الجهة البحرية متفتحة على العالم الخارجي. فآثر أن يتخذها معقلاً، وصيرها داراً للملكه، وجدد قصورها وشيد جامعها. وكان مولعاً بالبناء. فهو الذي حضر بني حماد⁽¹⁾ وتأنق في اختطاط المباني وتشيد المصانع واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض

(1) ابن خلدون: العبر ج 6 ص: 458

والبساتين⁽¹⁾. فبنى في القلعة قصر الملك وقصر الكواكب والمنار وقصر السلام وبيحاية قصر أميمون وجدد قصر اللؤلؤة الذي بناه أبوه في نفس هذه المدينة.

توفي الناصر سنة 481 هـ وترك لولي عهده المنصور مملكة قوية يسودها استقرار نسبي لا بأس به، إلا أن هذا الاستقرار كثيرا ما كانت تغيب شمسها في أيام المنصور. فكان عمه بلبار على قسطنطينة منذ عهد الناصر. فسولت له نفسه الاستبداد والخروج على ابن أخيه. فسرّح إليه المنصور أبا يكنى بن محمد بن القائد في جيش، وعقد له على قسطنطينة وبونة. فسار إليه وتقبض على بلبار وأرسله إلى القلعة وقام واليا على قسطنطينة مكانه وولى أخاه وغلان على بونة. ثم بدا له الخلاف على المنصور. فثار بدوره بقسطنطينة في سنة 487 هـ/1094 م. وبدا له أكثر من ذلك. فأراد أن يتفق مع أعداء المنصور تميم والعرب والمرابطين فيكونوا عليه ألبا واحدا. فبعث أخاه من بونة إلى تميم بن المعز بالمهدية واستدعاه لولاية بونة. فبعث معه ابنه أبا الفتوح بن تميم ونزل بونة مع ويغلان. ثم استمال العرب وكاتب المرابطين في الأمر. ولكن المنصور كان يقظا، فأجهضه. فجيش جيشا بعثه لاسترجاع بونة، فحاصروها سبعة أشهر ثم اقتحموها ودخلوها عنوة وأسروا أبا الفتوح بن تميم وبعثوا به إلى المنصور، فاعتقله بالقلعة. هذا من جهة ومن جهة أخرى أمر المنصور بحصار قسطنطينة فاضطربت أحوال أبي يكنى وفر إلى قلعة بجبال الأوراس وتحصن بها. ولكنه ترك بقسطنطينة صليصل بن الأحمر من شيوخ الأثيج. فداخل هذا المنصور في أن يمكنه

(1) ابن خلدون: العبر ج 6 ص: 458

من قسنطينة على ما يبذله⁽¹⁾ فقبل المنصور. فبقيت المدينة من رقعة المنصور، أما أبو يكنى فلم يزل بحصنه يردد الغارات عليها. فوجه إليه المنصور العساكر فحاصروه بقلعته ثم اقتحموها. فقبضوا عليه وقتلوه في سنة 473-474هـ/1082-1083م.

قد سبق أن قلنا إن قبائل صنهاجة كانت تضرب بالصحراء بأرض موريطانية الحالية منها لمتونة وكدالة ومسوفة. فألف منهم عبد الله بن ياسين جيشا دخلوا المغرب الأقصى كمصلحين. وفعلا قاموا بالإصلاح وقاوموا الخارجية والشيعة، ولكن الحركة الإصلاحية أصبحت بتوالي الأيام حركة سياسية.

وكان على رأس ذلك الجيش يحيى بن عمر فقتل، وخلفه أخوه أبو بكر بن عمر. لكنه اضطر إلى الرجوع إلى الصحراء وعهد لابن عمه يوسف بن تاشفين بقيادة جيش المرابطين في المغرب وأوصاه أن يتتبعوا معاقل زناتة وقاتلهم، ثم مضى. فقضى يوسف بن تاشفين على زناتة بأغصات وتادلي، ودوخ أقاليم أخرى بالمغرب الأقصى. وفي ذلك الوقت بالذات اكتسح بلكين بن محمد بن حماد الصنهاجي معاقل زناتة في المغرب الأقصى، وكانت عاصمتهم فاس. فاقتحمها كما سبق أن قلنا،⁽²⁾ سنة 454هـ، ثم أخذ رهائن من أهلها وعاد بهم إلى عاصمته القلعة، وبقيت فاس تحت حكم بني خزر المغراويين إلى أن فاجأهم يوسف بن تاشفين، فقضى عليهم واستولى على المدينة عنوة. ولم يكتف يوسف بن تاشفين بذلك، فأجمع على أن يأتي على جميع مغاوة

(1) ابن خلدون: العبر ج 6 ص: 359.

(2) ص: 81

أينما كانوا. فعقد لقائده مزدالي التكلاتي للمتوني بالتوجه إلى أوطانهم بالمغرب الأوسط. فزحف مزدالي في نحو عشرين ألف مقاتل نواحي تلمسان في سنة 472هـ فقاتلهم عنها صاحبها يومئذ يحيى هرم بني خزر إلى أن سقط ميتا في ساحة الوغى. عند ذلك راح الجند المرابطي يعيث بتلك النواحي بدون أن يستولي على المدينة، ثم عاد إلى المغرب الأقصى. ولم تمض السنة حتى قام يوسف لغزو المغرب الأوسط. فافتتح منه عدة أقاليم واستولى على تلمسان وقضى على من كان بها من بني خزرو اختط بجانبها مدينة تافرارت. بمكان معسكره، وهو اسم محله بلسان البربر، وهي التي صارت اليوم مع أقادير— تلمسان القديمة — بلدا واحدا سن 472هـ/1070م. ومن تلمسان توجه إلى وهران وجبال أنشريس وأعمال تنس. ومراده من هذه الجولة القضاء على ممالك زناتة. محاثار مغراوة من جميع المغرب الأوسط، ولم يدخل جزائر بني مزغنة التي يسكنها بنو أرومته، ورجع إلى تلمسان ونصب فيها عامله محمد بن تينعمر المسوفي. ثم رجع إلى عاصمته مراکش. فدخلها في ربيع الثاني سنة 470هـ/1082م.

فأصبحت تلمسان وضواحيها بيد المرابطين. وكانت الدولة الحمادية إذ ذاك لاهية بإخماد ثورة أبي يكنى بن محسن بن القائد بن حماد بقسنطينة. فظفر به المنصور. ففرغ حينئذ لدهر المرابطين من مملكته. فخرج في شوال 486هـ/1103م. فأجلى جيوشهم مما استولوا عليه من الثغور الحمادية. ثم عقدت الهدنة والصلح بينه وبين يوسف بن تاشفين إلا أن المرابطين أعادوا بعد ذلك غزوهم للمنطقة بقيادة محمد بن تينعمر. فردهم عنها عبد الله بن المنصور، وكانت الوقائع حول

الجزائر شديدة. فحوصرت المدينة يومين، ولكنها لم تسقط بأيديهم، وهلك محمد بن تينعمر، فولي أخوه تاشفين على عمله. فغزا أشير واقتحمها وخرّبها. وكان لبني ومانو وبني يلومي أثر في مظاهرتة وإمداده مع أنهم كانوا من جهة المنصور الحمادي وأصهاره. فأحقد عليهم المنصور بعدها. فهذه التحديات من طرف المرابطين ومن أحلافهم بني ومانو وبني يلومي تدعو إلى رد فعل قوي. فأجمع المنصور على الخروج إليهم بنفسه. فغزا بني ومانو في عساكر صنهاجة. وجمع له ماخوخ، فهزّمه وقتله وقتل زوجته، أخت ماخوخ، متشفيا. ثم نهض تلمسان في جيش جلب من صنهاجة وحشد فيه العرب من الأثبج ورياح وزغبة ومن لحق بهم من زناتة. وكثر في هذه الغزوة عدد القتلى والجرحى، وانكسرت شوكة المرابطين. فهزّموا عن تلمسان تسالة، ودخلها المنصور في جنده. فعاث فيها الجيش وعظمت الحنة بأهلها. فخرجت يومئذ زوجة والي المرابطين مستعطفة المنصور. فتأثر لحالها وانكبّاهما على قدميه⁽¹⁾ متوسلة بالوشائج الصنهاجية⁽²⁾. خرج من تلمسان صباح ذلك اليوم، وقفل راجعا إلى عاصمته بالقلعة مظفرا. ودامت هذه الغزوة عاما كاملا. وفي 497هـ/1104م، صالح يوسف بن تاشفين المنصور، ومرضاة له أزال تاشفين بن تينعمر عن ولاية تلمسان.

وقد كانت تحركت عناصر زناتة بنواحي الزاب والمغرب الأوسط بينما كان الحماديون لاهين بصد الزحف المرابطي على البلاد. فتفرغ إليهم المنصور، فقصدهم، وأثنى عليهم وشردهم، وآب إلى بجاية.

(1) الطمار: تلمسان ص 34 (عن مرصد الاطلاع ص: 134)

(2) العبر ج 6 ص: 361

فأخضع قبائل بنوإحيها لم تخضع من قبل خضوعا تاما للسلطة المركزية. ففروا إلى الجبال المنيعة مثل بني عمران وبني تازروت والمنصورية والصهريج والناظور⁽¹⁾.

ظل المنصور يعمل لراحة الشعب واطمئنانه، وما برحت تتجاذبه بحذر باله وحذر ويقظته وحكمه قضايا شتى: مناوئة زناتة للنفوذ الصنهاجي وأحقاد الزيريين للبيت الحمادي وعدم انقياد العرب وميلهم للتخريب واستفحال أمر المرابطين غرب البلاد. وتوفي في ربيع الثاني سنة 498هـ/31 ديسمبر سنة 1105. وبوفاته أخذت شوكة الدولة تضعف، ويتسرب إليها الهون.

باديس بن المنصور

'ولي بعد أبيه المنصور أبو معد باديس. فكان جريئا، مقحاما، جافيا، سريع الغضب، متهورا سفاكا للدماء. فلم يجلس على العرش حتى أمر بالقبض على عبد الكريم بن سليمان وزير أبيه وباستصفاء أمواله وقتله، وآثر أن يستقر ببجاية. فخرج إليها. فسقط على سهام عاملها. وكان أخوه واليا على مدينة الجزائر. فعزله ونفاه إلى جيجل. ويقال إنه اعتدى على بعض الصالحين فرماه إلى الأسود ولكن الله حفظه منها فلم تفرسه. وقد عقد النية على القيام بما هو أردأ، فقد توعد أمه بالقتل، لكن لم تطل مدته، فتوفي في سنته في الثالث عشر من شهر ذي الحجة سنة 498هـ/27 جويلية 1105م. فلم تبكه أمه. فهي التي سمت⁽²⁾ حتى لا ينفذ أمره فيها. فخلا الجو بموته لأخيه العزيز.

(1) كتاب العبر ج6 ص361.

(2) ابن الخطيب: القسم الثالث من أعلام الأعلام تحقيق أحمد ختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني ص:18.

العزیز بالله بن المنصور

فلم یدفن أبو معد بادیس بن المنصور حتی بعث قائد الأسطول الحمادی علی بن حمدون، عن أخیه العزیز. فقدم وبایعه، وتمت البیعة التامة. ولد یوم ولایة أبیه المنصور فی جمادی الأولى سنة 481هـ/غشت 1088م، ولذا لقب بالمیمون. فجلس علی العرش وسنه سبع عشرة. فخصاله متناقضة تماما لخصال أخیه. فكان رصینا هادئا ثابت البصيرة حازما ماهرا فقد صالح زناته. عزز جانبہ بمصاهرته من جهة وبمصاهرة الملك بالمهدية. فبنی بنت ماخوخ أحد سادة بني ومانو، ثم بیدر الدجی، بنت یحی بن تمیم، سنة 509هـ/1115م. فأمن ثورات زناته الحاقدة علی بني حماد وعداوة الزیریین الحاجعة نارها تحت الرماد. وکاتب ملوک زمانة وسالمهم.⁽¹⁾ فساد مملکته الهدوء والإطمئنان والرخاء.

وكان یحب العلم ویلد له أن یحضر بنفسه مجالس المناظرة بین العلماء. ومما یؤسف له أن جاء ما یکدر الصفو الذی طالما تمتعت به البلاد فی أيامه. ففي سنة 512هـ/1118م، أغار الأعراب الهلالیون وحلفاؤهم علی القلعة وأضروا بأهلها ونهبوها. فبعث العزیز ابنه یحی ومعه القائد علی بن حمدون، فأرغمهم علی الطاعة وردا الأمر إلی نصابه. وفی نفس السنة کان غلاء عظیم ووباء حتی بلغ ربح الدقیق بتلمسان عشرين درهما.

(1) نفس المصدر.

وقد سبق أن قلنا إن تونس كانت خاضعة لدولة بني حماد يديرها ولاية من بني خراسان. ففي سنة 488هـ/1095م. هلك عبد العزيز الخراساني وتولى مكانه ولده أحمد، فاستمر على الطاعة للدولة إلى أوائل القرن السادس الهجري. فغير موقفه وأظهر الاستبداد. فنازله العزيز سنة 514هـ/1120م، فرجع عن غيه وخضع. تقدم الأسطول الحمادي إلى جربة، فاحتلها قبيل وفاة العزيز التي كانت سنة 505هـ/1111م.

وفي عهد العزيز هذا ظهر بالمغرب الأوسط المهدي بن تومرت مؤسس الحركة الموحدية.... خرج هذا المصلح من هرغة بالأطلس في طلب العلم سنة 500هـ/1106-1107م. رحل إلى الأندلس ومن ثم إلى المشرق. فحج ودخل بغداد واتصل بعلمائها. فتأثر بالنظريات المشرقية في علوم الكلام والأصول والسنة، وتأثر بتعاليم الاشعرية⁽¹⁾ وبنظريات الغزالي الكلامية التي وصلت إلى المغرب والتي كانت فاشية في المشرق. فمقامه في تلك الديار لم تكن إلا دراسة وبجثا بحيث أصبح بحرا منفجرا وشهابا واريما من الدين.⁽²⁾ فلم يبق له إلا أن يعود إلى بلاده. فشخص إلى الإسكندرية ومن ثم أبحر إلى المهديّة، ثم دخل بجاية سنة 513هـ/1118-1119م وكانت بلغت من الحضارة عتيا. وقد تجلت هذه الحضارة في الحياة الاجتماعية. فانصرف الناس إلى متع الحياة يتذوقونها والتفنن في وجوه التزيين. فخرج ابن تومرت إلى السوق، فرأى الرجال في أزياء لا تليق إلا بالنساء فصاح قائلاً: «أراكم تتزينون بزي النساء، والتشبه بالنساء حرام».⁽³⁾

(1)و(2) ابن خلدون : العبر جـ 6 ص 466. (3) البيهقي: ص: 52.

وقد أدى به حبه النهي عن المنكر إلى استعمال العصا أحيانا.
وقد أظهر بهذا البلد تدريس العلم والوعظ.

فاجتمعت عليه الناس ومالت إليه القلوب. فخاف العزيز عاديته. فأمره بمغادرة المدينة. فخرج إلى قرية بجوار بجاية يقال لها ملالة. فرحبت به قبيلة بني ورياغل وبني أبناء العزيز مسجدا انتصب فيه للتدريس. فتقاطر عليه الطلبة من كل مكان. فقام بتلك القرية أشهراً. وكان بها رجل اسمه عبد المؤمن بن علي الكومي، ولد بتاجرة بنواحي ندرومة وذلك سنة 490هـ / 1096 م. قد نشأ وتعلم القرآن بها. وأراد الإستزادة من العلم. فترح عن بلده إلى تلمسان، وانكب على الدروس. فأخذ عن القاضي صاحب الصلاة والفقيه عبد السلام التونسي الذي قضى نجه في تلمسان ودفن بالعباد، وكل من ترجم له يخبرنا أنه كان من أكبر العلماء في الفقه والتوحيد. ومن تلمسان قصد عبد المؤمن ملالة، فاستقر بها مؤقتاً ريثما يواصل سيره إلى المشرق لينهل ما أمكنه من حياض العلم والمعرفة. فاتصل به ابن تومرت وسأله أن يصحبه إلى المغرب الأقصى لإماتة المنكر وإحياء العلم وإخماد البدع⁽¹⁾. فأجابه عبد المؤمن. وقد سمع طلبة تلمسان بابن تومرت، فأرسلوا إليه أن يتقدم إلى بلدهم يأخذون عنه. فلبى دعوتهم وغادر ملالة صحبة عبد المؤمن حتى وصلا إلى تلمسان. فأقاما بأقادير، وانتصب ابن تومرت إلى التدريس. فوضع في النفوس هبة وفي الصدور عظمة⁽²⁾. ولازال بتلمسان يحث الناس على المعروف وينهاهم عن المنكر ويلوم على الفقهاء عبيد النار والدرهم، عدم اكتراثهم بما يقوم حولهم من البدع

(1) المراكشي: المعجب ص: 180

(2) المراكشي: المعجب ص: 180

والمنكرات. فوجد هؤلاء الفقهاء أن مبادئه تخالف مبادئهم. فتيقنوا أن بقاءه بين ظهرائهم خطر عليهم. فأشاروا إلى الوالي المرابطي بإبعاده، فنفذ الوالي طلبهم. فخرج محمد بن تومرت وفي قلبه ما فيه قاصدا المغرب.

يحيى بن العزيز بن المنصور

تولى يحيى بن العزيز بن المنصور الملك بعد أبيه سنة 515هـ / 1121م. فكان أدبيا مثل أبيه، رصينا لكنه مغرم بالصيد واللّهو منهمك في شهواته. وكان له ولد، ولاء الأمر من بعده وفوض إليه الأمور في حياته. فجعل الولد يتستقص الوزير ميمونا ويقبح أفعاله ويسميه الشيخ الكذاب. فخاف ميمون على نفسه وخاطب أبا محمد عبد المؤمن.

عوض أن يهتم يحيى بمشاكله الداخلية بعث عسكريا إلى المهديّة تحت قيادة ابن المهلب. فحاصرها، فامتعت عليه سنة 522هـ / 1128م وتخلّى عنها. وابن عذارى صاحب هذا الخبر لم يحدثنا عن سبب نكوصه. وفي نفس السنة زحف مطرف بن علي بن خزرون الزناتي إلى تونس، وفتح في طريقه قرى ومدنا. فاحتل عاصمة بني خراسان وأجلس على عرشها كرامة بن المنصور على حساب صاحبها أحمد بن عبد العزيز الخراساني، وأرسل هذا بأهله إلى بجاية. فبقي كرامة واليا على تونس تحت إشراف دولة بني حماد إلى وفاته بها. فخلفه عليها أخوه أبو الفتوح بن المنصور، ثم حفيده محمد. ولم يلبث أن عزله يحيى لسوء سلوكه، وولى مكانه عمه معد بن المنصور. فبقي هذان إلى أن زحف النورماند على تونس سنة 543هـ / 1148م. فخرج معد إلى بجاية.

عاود الحماديون غزو المهديّة سنة 530 هـ/1135م وانشبوا القتال برا وبحرا. فساعد العرب الزيريين، فانتصروا واستولوا على غرابين من أسطول بجاية وقتلوا رئيسيها. فرحل عسكر يحي عن المهديّة بعد إقامته هناك سبعين يوما.

اتفق أن فسدت العلاقات بين الحسن الزيري وروجر. فأرسل هذا قائده جيرارد إلى المهديّة، فاقتحمها ودخلها عنوة. فتعين على صاحبها الحسن أن يغادرها، وتبعه أهل البلد فارين من العدو الذي راح بعد ذلك يغزو جميع موانئ افريقية. ولم يقنع روجر بضمها إلى ملكه، فأمر بمهاجمة الموانئ الحمادية. فقصّد أسطوله جيغل. فتزل الأعداء اليها سنة 537هـ/1143م وانتهبوا وأحرقوا دورها وخربوا قصر التّزهة الذي شيده يحي العزيز فوق جبل عيوف مشرفا على المدينة تجاه البحر. وأولئك الذين ساعدتهم الحظ أن ينجوا من القتل ابتنوا بلدة حصينة بجبل عال هناك يستقرون بها في الصيف حيث يظهر أسطول العدو ويتزلون إلى الساحل في الفصول الأخرى. وقد أعاد النورماند غزوهم على المغرب الأوسط، فاحتلوا في سنة 538هـ/1143م مدينة جيغل ثانية ثم مدن برشك وشرشال وتنس، ولكن لم يدم نفوذهم عليها ولا على افريقية.

لما فقد الحسن بن يحي بن تميم ملكه أجمع على أن يقصد عبد المؤمن لعله يساعده على استعادته. فأرسل كبار أولاده يحي وحميما وعليا إلى يحي بن العزيز يستأذنه في الوصول إليه وتحديد العهد به والمسير من عنده إلى عبد المؤمن. فكان له ذلك. فأتمّ بونة التي كان عليها الحارث بن المنصور، ثم توجه إلى قسنطينة وصاحبها سبّح بن العزيز، ومن ثم

إلى مدينة الجزائر حيث استقبله القائد بن العزيز استقبالا يليق بمقامه في محرم سنة 544هـ/ماي 1149م. فأمر وزيره ميمون بن حمدون أن يكون عينا عليه وأن يمنعه بإتصاله بعبد المؤمن مباشرة أو مكاتبة، وذلك خوفا من أن يكون قدوم عبد إلى المؤمن افريقية فرصة للاستيلاء على مملكته. فمكث الحسن بمدينة الجزائر إلى أن زحف عبد المؤمن صاحب ابن تومرت إلى بجاية. قام هذا عند إيايه من المشرق بحركة بالمغرب الأقصى قامت على أساس مزدوج ديني وسياسي. مات يوم الإثنين 14 لشهر رمضان من سنة 524 هـ. فخلفه عبد المؤمن بن علي وبايعه المصامدة. وما هي إلا عشية أو ضحاها حتى استفحل أمر الموحدين على حساب المرابطين.

أخذ عبد المؤمن يتحول على رأس جيش ضخم قوي في البلاد المغربية. ولم يقنع بذلك، فانتقل إلى أحواز تلمسان، وبايعه أكثر زناتة المستوطنة بها⁽¹⁾، ونزل برأس الجبل الذي يعلو المدينة. ونزل تاشفين بن علي بن يوسف ابن تاشفين المرابطي على الجانب الآخر من البلد وقد انشق عليه بنو ومانو من بطون زناتة الذي كانوا أحلافهم ضد بني حماد، وقدم أشياخهم طاعتهم للموحدين. وكان بنو يلومي وبنو عبد الواد من أنصار المرابطين. فسار إليهم فيلق من الموحدين تحت رئاسة ابن وانودين وابن زجو وابن يومر وعاشوا في بلادهم واستاقوا كثيرا من الغنائم وكانت المناوشات تنشب كل يوم بين المرابطين والموحدين، واستمر ذلك مدة شهرين ولم تقع معركة حاسمة. وكان قدم جيش من بجاية يساعد المرابطين. فعيل صبره، فاشتبك مع الموحدين في معركة عنيفة في ظاهر الصخرتين، لكنه هزم، وقتل منه عدد غفير، وبعث

قائده إلى عبد المؤمن سرا يعده بالتوحيد وأنه متى افتتح المغرب فإنه، إذا ورد المشرق، وجده مفتوحا كذلك. وكان تاشفين قد ابتنى بوهراة حصنا منيعا على البحر كي يحتمي به عند الحاجة فقرر أن يترك محله في تلمسان ويغادرها في قواته وهران. ولكن ما كاد المرابطون يتحركون نحو الشمال حتى سار في إثرهم عبد المؤمن في قوته، وبعث في مقدمته الشيخ، أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاتي، وعسكرا من بني وامنوا فنفذوا إلى بلاد بني يلومي وبني عبد الواد وبني رسفين وبني توجين من زناتة وكانوا من أنصار لمتونة. فاثخنوا فيهم حتى استسلموا وأجمعوا على أن يرسلوا إلى عبد المؤمن زعماءهم ليقدموا طاعتهم إليه. فتلقاهم بالقبول وضمهم جنده.

أما في وهران فقد قضى تاشفين نخبه، وانخرمت جيوشه، وتقلص ظل المرابطين من المغرب الأوسط.

سقوط الدولة الحمّادية

غادر عبد المؤمن وهران ظافرا، وقصد تلمسان، فدخلها عنوة، ثم عقد عليها لابن وانودين الهنتاتي، وترك معه ولده يوسف معاضدا له وناصريا، وانطلق في قواته نحو المغرب الأقصى في ربيع الثاني سنة 540هـ/أكتوبر 1140م، بنية العودة فأخذ يتدخل حربيا في الأندلس منذ سنة 541هـ، وقبل أن تتم له السيطرة على تلك الديار زحف سنة 546هـ قاصدا إلى ما وراء إقليم تلمسان يقوّض مملكتي بني حماد وبني زيري ويضمهما رقعته. فشخص سبته. فأقام بها مدة يعمر الأسطول ويجمع العساكر، والناس يظنون أنه يريد العبور إلى الأندلس.

فأرسل إلى قطع السابلة عن بلاد شرق المغرب الأقصى برا وبحرا. وبغته
خرج من سبتة في صفر من سنة 547 هـ/1152م والعساكر تلتقه في
طريقه. فلم يشعر أهل بجاية إلا وهو في أعمالها، وكان ملكها يحيى بن
عبد العزيز بن حماد، وكان مولعا باللّهو والصّيد لا ينظر في شيء من
أمر مملكته، كما سبق أن قلنا، فقد حكم فيها بنو حمدون فلما اتصل
بميمون بن حمدون خبر نزول عبد المؤمن بنواحي بجاية، جمع العساكر
وسار نحوه وفاء بما وعده بتلمسان، وفتح له باب بجاية. فدخلت⁽¹⁾
مقدمة عبد المؤمن بجاية، قبل وصوله إليها، وتفرق عسكر يحيى بن عبد
العزيز وهربوا. إلا أن ابن الأثير يقول⁽²⁾: «أن ابن حمدون بالعكس
خرج في قوات بجاية، وهي تزيد على عشرين ألف فارس». فلم ير
آخر ملوك بني حماد إلا أن يفر إلى بونة⁽³⁾، وأخواه الحارث وعبد الله
إلى صقيلية حيث استظلا بحماية الفرنج. ومن بونة انتقل يحيى إلى
قسنطينة. فامتنع بها مع أهله وقرباته. إلا أن الموحدين حاصروه هناك.
فاضطر إلى أن يرسل أخاه وشيوخ صنهاجة وقسنطينة عبد المؤمن
يعلمون خضوعه ويطلبون الأمان. فأجابهم عبد المؤمن إلى ما طلبوا.

دخل بجاية سنة 547 هـ/1152م فأمن أهلها ولم يتعرض
ما لهم، وسبب ذلك أن بني حمدون استأمنوا فوفى بأمانه⁽⁴⁾.

(1) الخلل الموشية ص: 124

(2) الكامل جـ 11 ص: 158

(3) المعجب ص: 123

(4) ابن الأثير: الكامل جـ 11 ص: 159

فلم ير صنهاجة بعين الرضى استيلاء عبد المؤمن على عاصمتهم،
فثاروا، وتقدم عليهم رجل اسمه أبو قصبة واجتمع معهم من كتامة
ولواتة خلق كثير وقصدوا حرب عبد المؤمن. فأرسل إليهم جيشا تحت
قيادة أبي سعيد يخلف. فالتقوا في عرض الجبل شرقي بجاية. فانهزم أبو
قصبة وقتل أكثر من معه ونهبت أموالهم وسييت نساؤهم وذرايرهم.

لما صفا الجو للموحدين في بجاية ساروا إلى القلعة وهي من
أحسن القلاع وأعلاها. فلما رأى أهلها عساكر الموحدين هربوا منها
في رؤوس الجبال. فدخل جيش عبد المؤمن، وقتلوا صاحبها حوشن
بن العزيز وأخذوا جميع ما فيها من مال وغيره وبقيت خرابا يابا.

كان عبد المؤمن عالما أدبيا ويقرب إليه العلماء والأدباء، فلا
يفارقونه في السلم ولا في الحرب. أنصت إلى أبي عبد الله بن حبوس
الفاسي الذي شاهد مع الخليفة فتح بجاية.

من القوم بالتقرب تصغي	حديثهم أذن المشرق
جروا والمنايا غايمة	فلم يسبقوها ولم تسبق
بأيديهم النار مشبوبة	فمهما تصب باطلا تحرق
يقودهم ملك أروع	تفرّد بالسؤدد المطلق
تخيره الله من آدم	فما زال منحدرًا يرتقي
الناصرية سرنا معنا	ولما تفتنا ولم تلحق

ولما استولى عبد المؤمن على قسنطينة أرسل كتابا إلى أهل
تلمسان يعلم الطلبة⁽¹⁾ والموحدين بالفتح ويخبرهم بالفوز على بني
حماد، وقد دّج الرسالة أبو عقيل عطية يقول فيها:

(1) العلماء الكبار

«أما بعد، فالحمد لله الذي وسعت رحمته كل شيء على العموم والإطلاق، وجمعت عصمته أهل الاجتماع على طاعته والإنفاق، وتمت نعمته تماما على أبلغ وجوه الانتظام والإتساق، والصلاة على نبيه محمد المنبعث لتتميم مكارم الأخلاق، وعلى آله الطاهرين وصحبه المتوازين أولي التبوء مرتضاه والاستباق، والرضا عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم على الأعلام، وذخيرة الإيمان والإسلام، وبدر الكمال والتمام، الطالع بأشرف مطامع الإشراف، الفارع عن تطاول الرؤوس والأعناق، والجامع أشتات الفضل وأجناسه على الاستيفاء والاستغراق. وهذا كتابنا إليكم.. كتب الله لكم فيما حولكم النماء والريادة، ومكن في تمكينكم وإصلاح شؤونكم الأمانة والإفادة، ويسط في أرجائكم ومتعلقات رجائكم اليمن والسعادة من حضرة بجاية — حرسها الله — من أحوال ترتب صلاحها على أفضل وجوده فتوح تتابع افتتاحها في قريب المعمور وبعيده، وبشائر يتره بشرها وسماحها عن الجري على معتاد الدأب والمألوف ومعهوده، وآيات بينات أغنى تجليها وانتضاحها من كل برهان وجوده. وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها. وقد تقدم أعلامكم، واصل الله سروركم، وضاعف شكوركم، بما كان من صنع الله تع في فتح هذه البلاد التي يصير مرامها بحوله واقتداره، ونور ظلامها بأضواء هذا الأمر السعيد وأنواره، وصير أباطحها وآكامها من مواطن أوليائه وأنصاره، وإنّ أبا زكريا يحيى بن عبد العزيز بالله بن المنصور وجميع إخوته وقرباته وخوولته حين أتاهاهم الرائد الذي لا يكذب أهله، وانتاحهم القائد المبيح وعر المنتحى وسهله، لم يكن لهم بدّ من التولي عن قرارهم والتخلي عن أوطانهم وأقطارهم لأمر قضى الله فيه لهذا

الآمر المبارك بخير قضائه... فكان مأثمهم الذي اعتقدوا منعه وحصانته، واعتمدوا ثقته عليهم وأمانته، بلد قسنطينة، عمره الله لكونه بحيث لا ينال بقدره مخلوق».

نحتري بهذه الفقرة لأن الرسالة ما زالت طويلة.

لقد فرح يحيى لما خرجت بلاد افريقية من يد ابن عمه الحسن بن علي، وكان يذمه ويذكر معاييه. فلم تطل المدة حتى قوض ملكه. وأتى الحسن عبد المؤمن في جزائر بني مزغنة. فأحسن إليه وأدناه إلى أن فتح المهدية، فجعله فيها وأمر واليها أن يقتدي برأيه ويرجع قوله⁽¹⁾. أما يحيى بن عبد العزيز فقد صحب عبد المؤمن إلى حاضرة مراکش «فأعمره الديار وأقطعه الضياع وأقام هو وبنوه تحت إكرام وميرة إلى أن انقرضوا»⁽²⁾. فلا يرقى لنا ظل من الشك في قول صاحب الحلل الموشية هذا، فإن عبد الواحد المراكشي يؤكد لنا ذلك حيث يقول في معجبه⁽³⁾: «كر (عبد المؤمن) راجعا إلى مراکش ومعه في جنده يحيى بن العزيز ملك صنهاجة وأعيان دولته. فحين وصلوا مراکش أمر لهم بالمنازل الواسعة و المراكب النبيلة والسكنى الفاخرة و الأموال الوفرة، وخص يحيى من ذلك بأجزله وأسناه وأحفله، ونال يحيى هذا عنده رتبة عالية وجاها ضخما. وأظهر عبد المؤمن عناية به لا مزيد عليها». وهذه العناية تظهر جليا فيما حكاه المراكشي أن يحيى كان في مجلس عبد المؤمن يوما. فذكروا بعذر الصرف. فقال يحيى: «أما أنا فعليّ

(1) الكامل جـ 11 ص: 159

(2) الحلل الموشية ص: 123 - 124

(3) ص: 124 .

من هذا كلفة شديدة، وعبيدي في كل يوم يشكون إليّ ما يلقونه من ذلك ويذكرون أن أكثر حوائجهم تتعذر لقلة الصرف»، وذلك أن عادتهم في بلاد المغرب أنهم يضربون أنصاف الدراهم وأرباعها وأثمانها والخراريب، فيستريح الناس في هذا وتجري هذه الصروف في أيديهم فتتسع بيعاتهم — فلما قام يحيى بن العزيز من ذلك المجلس أتبعه عبد المؤمن ثلاثة أكياس صروف كلها، وقال لرسوله: «قل له: لا يتعذر عليك مطلوب ما دمت بحضرتنا».⁽¹⁾

فهكذا تستمال القلوب وتذهب الضغائن والأحقاد. فلم يعد يحيى يفكر في أمر السياسة ولا في أبهة الملك بل «تحامل وتجاهل وأشغل نفسه بالصيد واستعمل شباك الحديد لصيد الأسد وكان يهديها للخليفة عبد المؤمن فيشبهه عليها، وأنه أصاب في بعض الأيام شبلا أدخله على الخليفة في مجلسه، فأمر بحله من عقاله، فمشى الشبل بين الناس يخترق الصفوف حتى وصل إلى ما بين يدي الخليفة فتربص وسكن لا يتحرك من موضعه».⁽²⁾

ولم يستقر يحيى نهائيا بمراكش. فلما انتقل عبد المؤمن إلى سلا سنة 558هـ/1163-1164م رافقه إليها وسكن قصر بني عشيرة،⁽³⁾ وبقي هناك إلى أن توفي في سنته، ودفن في إحدى مقابر الجهة الشمالية المحاذية لساحل البحر.

ليس من الغريب أن تسقط الدولة الحمّادية بهذه السهولة في يد عبد المؤمن، فلم يقصدها إلا وهو متيقن من فتحها. فقد أقام بملالة

(1) الحلل الموشية ص: 124

(2) الحلل الموشية ص: 124

(3) العبر ج 6 ص: 364

من بجاية ورأى عن كذب أن أمارات التدهور أخذت تبدو جليا في هيكل الدولة، كيف لا وأن الحضارة الحمّادية في عهد الناصر والمنصور وصلت إلى أوج الكمال بالنسبة إلى حضارات الحوض المتوسط والحضارة هي سن الوقوف لعمر العالم في العمران والدولة.⁽¹⁾ فمن الطبيعي، إذن، أن تأخذ الدولة الحمّادية في الانحطاط. وهناك عوامل شتى استعجلت خطاها إلى حتفها. فملك الحمّادين كغيره مبناه الشوكة والعصية، ومتى ضعفت الشوكة والعصية اخذ ظل الملك يتقلص شيئا فشيئا حتى يتلاشى. ولقد انحط شأن شوكة وعصية الحمّادين في عهد العزيز وابنه يحيى. فالأول كان لا يهتم إلا الأدب والمناظرات بين الأدباء والعلماء، لا يكثرث بحل مشاكل دولته، وما أكثر ما كانت تلك المشاكل! والثاني كان ضعيفا لا يحلو له إلا اللهو والصيد. أما ملكه فيدبر أمره وزيره ابن حمدون الذي لا يمت للأسرة الملكية بصلة عرقية البتة والذي كان بينه وبين عبد المؤمن كتب ومداخلة.⁽²⁾ والجيش خليط لا عصية تربط بين أفرادها، إن شأن العصية وقوتها إنما هي بالقرابة والرحم.⁽³⁾

وأضف إلى ذلك أن البلاد اكتسحها هلال ورباح، عناصر الفوضى المنافية للعمران. فكيف، يا ترى، تبقى شوكة هذه الدولة قوية تمّابها الدول الأخرى فلا تطمع فيها؟ بل أصبحت هذه الدولة عاجزة عن صد هجوم الموحدين عليها. فإنهم جاءوا في الوقت المناسب لقطف الثمرة اليانعة، فما عليهم إلا أن يهزوا الفرع لتسقط الثمرة في أيديهم.

(1) المقدمة ص: 374

(2) الحلل الموشية ص: 123 - 124

(3) المقدمة ص: 294

فقد قوضوا العرش الحمّادي، ولكن لا بد لهم من جهود أخرى يبذلونها ليتأتى لهم تذوق حلاوة تلك الثمرة. فالمنطقة مملوءة بعناصر البدو، عناصر الاضطراب والتخريب، فكسر شوكة هؤلاء أمر ضروري حتى يسود البلاد الهدوء والاطمئنان، فلا يكون التقدم والرقى إلا بواسطتهما. فلم يكتف هؤلاء الأعراب بالإغارة على مؤخرات الموحدين والمهجوم على محلاتهم، فاجتمعوا لمقاومتهم وإخراجهم من المغرب الأوسط. فاعتزم عبد المؤمن أن يطهر المنطقة من عيثهم، وسار في قواته إلى سطيف. فعسكر هناك، ثم جهز لقتالهم حملتين الأولى بقيادة صهره وزوج بنته عبد الله بن وانودين والثانية بقيادة يصلاتين بن المعز. ومما يؤسف له أن ثار بين القائدين خلاف. فنكص يصلاتين وترك زميله يواجه وحده العرب. فانتهاز هؤلاء هذه الفرصة وهاجموا قوات عبد المؤمن إلا أن هذا حشد كافة الموحدين لمقاتلتهم. فلما شعروا بوطأة الخصم افرقت كلمتهم وأذعن بعض زعمائهم إلى التوحيد. فحمل عند ذلك الموحدون على ما بقي من العرب. فدامت المعركة يومين وليلة، وكان النصر حليف عبد المؤمن. فقتل عسكره زعيم القوم، هلال بن عامر، واستولى على ما ترك العرب من أهل ومال وأثاث ونعم. فقسم عبد المؤمن الأموال على عسكره، وترك النساء والأولاد تحت الاحتياط ووكل بهم من الخدم الخصيان من يخدمهم، وأمر بصيانتهم. وهذه الموقعة كانت في شهر ربيع الأول سنة 548هـ/1153م. فتفرغ عبد المؤمن إثر ذلك لتنظيم شؤون بجاية وندب لولايته أبا محمد عبد الله. وسار جيشه الظافر أولاً إلى تلمسان ثم المغرب وفي ركبه نساء العرب وأولادهم. فأنزلهم في المساكن الفسيحة بمراكش وأجرى لهم النفقات

الواسعة. وكاتب أمراء العرب أن يحضروا ليسلم لهم عيالهم. فأقبلوا. فزودهم بالمال ورد إليهم نساءهم وأولادهم وصرفهم إلى بلادهم.

تحرك سنة 548هـ أسطول روجر وقصد مدينة بونة تحت قيادة فيلب المهدوي، فحصرها واستعان بالعرب عليها، فأخذها في رجب وسبى أهلها وملك ما فيها، غير أنه أغضى عن جماعة من العلماء والصالحين حتى خرجوا بأهليهم وأموالهم إلى القرى المجاورة. فأقام ببونة عشرة أيام وعاد إلى المهدية، ومن هناك إلى صقلية. فقبض عليه روجر لما اعتمد من الرفق بالمسلمين. ومما يزيد الطين بلة أخبر روجر بأن فيلب مسلم. فجمع ذلك الملك الأساقفة والقساوسة والفرسان، فحكموا بأن يحرق، فأحرق في رمضان. ولكن، ما هي إلا أيام حتى مات روجر في العشر الأول من ذي الحجة وخلفه ابنه غليام وكان فاسد التدبير.

لما كانت سنة 551هـ قوي طمع الناس في هذا الملك. فخرج عن طاعته جزيرة جربة وجزيرة فرقة وجميع إفريقية ما عدا المهدية وسوسة. اجتمع أهل زويلة وأهل صفاقس وحصروا المهدية وضيقوا عليها، وكانت الأقوات بها قليلة. فأرسل إليها غليام الرجال والطعام والسلاح. فخرج النورماند من الغد، فاقتتلوا، هم وأهل زويلة، فانهزم المسلمون، واستقر الافرنج بالمهدية إلى أن أخذها عبد المؤمن حيث قصده وفد منهم وهو بمراكش يستجيرونه، فلبى نداءهم. فأمر بالاستعداد إلى السفر وكتب إلى جميع نوابه في المغرب، وكان قد ملك قريب تونس، يأمرهم بحفظ جميع ما يتحصل من الغلات. وفي صفر سنة 554هـ، خرج من عاصمته يطلب إفريقية في مائة ألف مقاتل، وبلغ

من حفظه لعساكره أنهم كانوا يمشون بين الزرع فلا تتأذى بهم سنبلة. وقدم بين يديه الحسن بن علي بن يحيى بن تميم الذي كان صاحب المهديّة وافريقية. فملك عبد المؤمن تونس والمهديّة وجميع افريقية وأجلى الفرنج. وأقام بالمهديّة عشرين يوماً، فرتب أحوالها وأصلح ما تثلم من سورها، ونقل إليها الذخائر من الأقوات والرجال والعدد، واستعمل عليها الهنتاتي وجعل معه الحسن بن علي الذي كان صاحبها، وأمره أن يقتدي برأيه وأفعاله، وأقطع بها الحسن أقطاعاً وأعطاه دوراً نفيسة يسكنها وكذلك فعل بأولاده.

لما فرغ عبد المؤمن من أمر المهديّة وأراد العودة إلى المغرب الأقصى جمع أمراء العرب بني رباح الذين كانوا بافريقية وطلب منهم عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والشجاعة يجاهدون في سبيل الله بالأندلس حيث استفحل أمر المشركين واستولوا على كثير من البلاد التي كانت بأيدي المسلمين. فأجابوا على طلبه. فحلفهم على ذلك بالله وبالمصحف. فحلفوا ومشوا معه إلى مضيق جبل زغوان. إلا أنهم تراجعوا وهربوا إلى عشائريهم. فواصل عبد المؤمن سيره حتى وصل إلى موضع يقال له وادي النساء بقرب قسنطينة. فترل. ثم جهز إلى العرب ولديه أبا محمد وأبا عبد الله في ثلاثين ألف مقاتل من شجعان الموحدين. فقصدوهم. فما شعر العرب إلا والجيش قد أقبل بغتة من ورائهم من جهة الصحراء ليمنعوهم الدخول إليها إذا راموا ذلك. فناجزهم الموحدون القتال في العشر الأوسط من ربيع الثاني من سنة 554هـ. فاشتد القتال بين الطرفين وكثر القتل. فاتفق أن محرز بن زياد قتل ورفع رأسه على رمح. فانهزمت جموع العرب عند ذلك وأسلموا

البيوت والحريم والأولاد والأموال. فحمل ذلك كله إلى عبد المؤمن. فأمر بحفظ النساء العرييات وحملهن معه تحت الحفظ والبر والصيانة إلى المغرب الأقصى. فلم يصبر العرب على حريمهم. فأقبلوا إلى عبد المؤمن. فرحب بهم، ورد عليهم حريمهم. فلم يبق أحد منهم إلا صار تحت حكمه. فبدل فيهم الإحسان. ثم جهزهم إلى ثغور الأندلس. فهكذا انتزع عبد المؤمن ما كان بأيدي الذين إستغلبوا على أمصارهم واستبدوا بأمرها على الدولة في الأحكام والجبايات فلم يبق المشكل العربي. فوجد عبد المؤمن حله بالتي هي أحسن. فللمرة الأولى استطاعت افريقية الشمالية أن تتوحد تحت راية عبد المؤمن الكومي الندرومي الجزائري.

القسم الحضاري

عمران المغرب الأوسط المدن ، الطرق وإمكانيات البلاد الزراعية

ان المدن كانت قديماً قليلة في المغرب، ويعلل ابن خلدون هذه الظاهرة في مقدمته بقوله: «ان المدن والأمصار بافريقية والمغرب قليلة. والسبب في ذلك ان هذه الاقطار كانت للبربر منذ آلاف من السنين قبل الإسلام، وكان عمرانها كله بدوياً، ولم تستمر فيهم الحضارة حتى يستكمل أحوالها. والدول التي ملكتهم من الافرنجة، والعرب لم يطل أمد ملكهم حتى ترسخ الحضارة منها. فلم تزل عوائد البداوة وشؤونها. فكانوا اليها أقرب. فلم تكثر مبانيهم، وأيضاً فالصنائع بعيدة عن البربر، لأنهم أعرق في البدو. والصنائع من توابع الحضارة وإنما تتم المباني بها، فلا بد من الخدق في تعلمها. فلما لم يكن للبربر انتحال لها لم يكن لهم تشوق الى المباني فضلاً عن المدن، وأيضاً فهم اهل عصبية وأنساب لا يخلو عن ذلك جمع منهم. والأنساب والعصبية أجح إلى البدو، وإنما يدعوا الى المدن الدعة والسكون ويصير سكانها عيالا على حمايتها. فتجد أهل البدو لذلك يستكنفون عن سكنى المدينة أو الاقامة بها، فلا يدعوا الى ذلك إلا الترف والغنى وقليل ما هو في الناس. فلذلك كان عمران افريقية والمغرب كله أو أكثره بدوياً أهل خيام وظواعن وقياطن وكنن في الجبال، وكان عمران بلاد العجم كله أو أكثره قرى وأمصاراً ورساتيق من بلاد الاندلس والشام ومصر وأعراق العجم وامثالها، لأن العجم ليسوا بأهل انساب يحافظون عليها ويتباهون بها في صراحتها والتحامها الا في الأقل. وأكثر ما يكون سكنى البدو لأهل

الأنساب لحمه النسب أقرب وأشد، فتكون عصبته كذلك ولا تترع بصاحبها الى سكنى البدو والتجاني عن المصر الذي يذهب بالبسالة ويصيّره عيالا على غيره»⁽¹⁾ كان في عهد الفينيقيين قرطاجة وموانئ صغيرة طول شواطئ البحر الأبيض المتوسط.

وفي عهد الرومان كانت قسنطينة وسطيف وتمقاد وجميلة وتبسة وقالة، وباغاية ومقرة ومليانة وتلمسان، والموانئ التي أزالوها من يد الفينيقيين:

هيون وسكيدة وجيجل وبجاية (صلدي) واكسيوم وشرشال وتنس ومرسى الكبير وصيغة والغزوات. ولكن هذه المدن وهذه الموانئ ضعف شأنها عندما زال الرومان وغيرهم من المستعمرين. ثم دخلت الحضارة الإسلامية وكان للمغاربة حظ وافر في ازدهارها. فأُسست مدن وقرى لم يكن بعضها في معزل عن بعض. كانت طرق تصل الواحدة بالأخرى. فإن جغرافيّ العرب مثل اليعقوبي وابن حوقل والمقدّسي والبكري والإدريسي وصاحب الإستبصار وياقوت وغيرهم أخبرونا عنها ووصفوا لنا ما قد أسر أنظارهم مدة زيارتهم لهذه الديار، ولكن، قلما تختلف أوصافهم مع أنهم لم يعيشوا في وقت واحد. فلا غرو، إن الأحوال البشرية لا تتغير تغيرا جذريا بين عشية وضحاها وبالأحرى المحيط الطبيعي. فقد تهادى الناس في حياتهم على طريقة من سبقوهم في الفلاحة والصناعة والزراعة والمعاش في إطار طبيعي خاص أثر في أمزجتهم وعقولهم ونشاطاتهم.

(1) المقدمة ص: 357

كانت تبسة تقع في سهل عال شرقي وادي شبرو تحيط بها البساتين وغابة من شجر الجوز. قد تدمر بعض أسوارها إثر ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد. وتربطها شتاء بالقيروان طريق تمر بمجانة والأرسس وسبيبة، وصيفا بمرجانة. فكانت هذه المدينة نقطة تجارية حساسة تحط بها القوافل. وكان بها أقباء يأوي كل منها ألفي دابة. وهذا في أوائل القرن الحادي عشر أما بعد ذلك فقد تضررت من وجود هلال بمنطقتها حتى لم يبق معمورا منها إلا القصر بحيث أن الإدريسي لم يذكرها البتة.

وبين تبسة وباغاية تقع مسكيانة التي، على قول ابن حوقل، تعقد بها سوق كل أسبوع، والتي تمتاز بمزارع مزدهرة لوجود المياه الغزيرة فيها. فهي أيضا أوسع من مرجانة. وباغاية هي الأخرى كانت كبيرة يحيط بها سوران إلا من الجهة الغربية حيث يلصقها ربض مسور أيضا وبه أسواق وحمامات وفنادق. أما الجامع فكان في وسط المدينة. وبما أن جبال الأوراس تجود عليها بالمياه الدافقة فكانت محفوفة بالأشجار المثمرة والمزارع والمراعي. فكانت تحت حكم مستقل في عهد ابن حوقل. وسكان الناحية بربر ينتمي بعضهم إلى مزاتة والبعض الآخر إلى ضريسة ولكنهم جميعهم اباضيون على عقيدة أهل باغاية. ويبدو أن بردها قارس في فصل الشتاء، فخوفا على إبلهم منه يلجأون إلى الصحراء لاعتدال الجو هنالك. فالأسواق كانت تعقد بالربض. أما في عهد بني هلال فتحولت إلى داخل المدينة كجميع أسواق المنطقة لأن هؤلاء كانوا يفرضون على البربر غرامات باهظة.

ويذكر لنا البكري أن بين باغاية وبلمزمة مدينة قديمة اسمها قاساس تقع على نهر شرقي جبل عال. أما ابن حوقل فيحدثنا عن طريق تذهب من باغاية وتمر على بلزمة ونقاوس وطبنة وتلتحق بالطريق التي تذهب من بجانة الى تيجس وبونة، ومن تيجس تذهب طريق الى المسيلة مارة بقسنطينة وميلة وسطيف. بالقرب من جبل الوزرة تقع بجانة المشهورة بالمطاحن التي تزود أسواق القيروان وأسواق جميع المغرب الأوسط. تسمى هذه البلدة بقلعة بسر وبسر هذا هو مؤسسها. ويقال لها أيضا بجانة المعادن لوجود معادن الحديد والفضة والمرتك والرصاص والإثمد بجوارها. يحيط بها سور، وتحتوي على جامع وأسواق وحمامات، وبقلعتها 360 صهريجاً تملؤها مياه الأمطار. وكانت نقطة حساسة للمواصلات. وسكانها عرب. أما الضواحي فيعمرها البربر من لواته. وريفها الخصب يدر على الفلاحين المحصولات المختلفة من برّ إلى شعير إلى زعفران. إلا أن هذا أخذ يقل حين حل العرب بالناحية.

إن بين وادي ملاق وتفس تقع تادميت. لها سور من حجر وجيار، وعين ماء وبساتين ومراع ومزارع تدر على أصحابها الشيء الكثير من القمح والشعير. ويلى هذه المدينة غرباً قصر الإفريقي الذي كان يعد بلداً هاماً، وإن كان غير محصن، يقع في وسط مزارع القمح والشعير، والمراعي. منه تذهب طريق تمر بأركو المحفوفة بالعيون والبساتين ومزارع البرّ والشعير، وتمر أيضاً بتيجس التي كانت مسورة وبها أسواق وجامع وحمام. سكانها بربر من نفزة وغروسة وبني أرتمو

وكرنانية، ثم بمدينة المهريين الواقعة في وسط سهل يسكنه عشائر من كتامة ومزاةة والمحاذية لقرى تامسنة وذكمة.

وبلزمة ايضا كانت تقع في سهل يكثر فيه المزارع. بين هذه المدينة وبجاية وقسنطينة مسيرة يومين. كان النفوذ فيها لمزاةة. وشرقي بلزمة تقع نقاوس وهي مدينة اللوز.

إن منطقة الاوراس كان يعمرها في القرن الخامس الهجري هوارة ومكناسة وجميعهم خوارج اباضيون. أما منطقة الزاب فكانت تحتوي على مزارع تنتج القمح مرتين في السنة، وكانت عامرة في وقت الادريسي. حل بها الهلاليون وسيطروا عليها وضيّقوا على أهلها. إن مدنا كثيرة بُنيت في أرجائها أعظمها بسكرة. يحيط بهذه سور وخنق يجعلان السكان في مأمن من المغيرين عليها. وتحتوي على جامع ومساجد كثيرة وحمامات وثلاثة أبواب: باب المقبرة وباب الحمام وباب آخر سكت البكري عن ذكر اسمه. لا ينقص سكانها الماء، فالآبار في كل مكان، ولا الملح، ف جبل الملح لا يبعد عنها. وتمتاز بالأشجار المثمرة المختلفة والزيتون ولا سيما التمر الذي يضرب به المثل في الجودة والمذاق. إن سكانها أقحاح، أما في ضواحيها فيكثر سدراتة ومغراوة الذين ينتمون إلى بني خزر وبني أزمرتين.

إن فقهاءها كانوا يدرسون العلوم الدينية على مذهب مالك. في جنوب بسكرة الشرقي تقع قهودة المسماة بمدينة السحر، فهي عامرة مبنية بالحجارة وتحتوي على جامع ومساجد وأسواق وفنادق ويجاورها أكثر من عشرين قرية عليها مزارع ونخيل وبساتين. سكانها عرب أكثرهم قرشيون وجميعهم عراقيون أي حنفيون. يصبّ نهر في جوفها

من جبل أوراس. فإذا كانت بينهم وبين غيرهم حرب وخافوا التزول عليهم أجروا ماء ذلك النهر في الخندق المحيط ببلدهم، فامتنعوا من العدو⁽¹⁾. إن الجهة الشرقية من تهوذة يستقر بها الإباضيون من هوارة ومكناسة. فالإباضية راسخة فيهم منذ ظهورها في عهد الرستميين، وأضف إلى ذلك أنهم كانوا الساعد الأيمن لأبي يزيد بن كيداد الخارجي على الفاطميين.

إن ضريح الأمير عقبة بن نافع يقع في وسط قرية تسمى باسمه. أدخل عليه المعز بن باديس بعض التحسينات على حد قول أبي العرب وصاحب الاستبصار. وأهم مدينة في الجهة الغربية طلقة قد تحدث عنها البكري والمقدسي فكان بها ثلاثة أحياء الأول يسكنها الاقحاح يدعون المولودين والثاني به عرب يمنيون والثالث عرب قيسيون. وكانت المدينة محفوفة بالبساتين المزدانة بالزيتون والكرم والنخيل وأشجار مثمرة أخرى.

وفي الجانب الغربي من طلقة تقع بنتيوس الحاذية لمدن ثلاث محفوفة منها جامع وسور يحيط به خندق فالأولى يسكنها بنو جرف وهم من اصل فارسي والثانية يسكنها الأهالي وهم من دم خليط، والثالثة يعمرها بربر أصليون أباضيون. ويسقيها نهر يأتي من الجهة الشمالية. والمقدسي والبكري الإدريسي يذكرون قرى أخرى منبئة في تلك المنطقة التي تمتد جنوبها فيافي يسكنها بطون من مغراوة.

(1) الإستبصار ص: 62

ومنطقة الحصنة ليست اقل مدنا من الزاب نذكر لك بعضها،
فنقاوس التي لها سور من حجر كانت ثرية يكثر في ضواحيها اللوز
والجوز والعنب والقطن والحبوب. وأعظم سكانها من مكناسة وأوربة.
وأما طبنة فهي أكبر مدينة في الزاب حينئذ على قول اليعقوبي.
أما على حسب البكري فهي أهم مدينة ما بين القيروان وسجلماسة،
ويؤكد لنا ذلك ابن حوقل. كان يقع بها فتن يثيرها العرب والأهالي قد
تؤثر في عمراتها ورخائها، ولكن لم يلبث أن يعود إليها اطمئنانها
وازدهارها الذي ينوء به الإدريسي. فكان يحيط بها سور من طوب
بأحد جوانبه قصر هائل مبني بالحجارة وبابه من حديد، يقيم به
العمال، وبه جامع وحوض يأتيه الماء من وادي طبنة وتسقى به بساتين
المدينة. ومن باب خاقان إلى باب الفتح يمتد سباط به دكاكين على
يمينه وشماله. وكان باب ثالث، باب قهوذة، من الجهة الجنوبية، وباب
رابع، باب الحديد، ودفتا كل من هذه الأبواب من حديد. وكان باب
خامس يسمى باب كتامة لأنه يفتح جهة منطقة كتامة. وبنواحي
طبنة تقع قرى أهمها واحدة يخرج إليها من باب الفتح ومحاطة بسور
بني في وقت عمر بن حفص المهلي الذي جدد بناء طبنة. فالمنطقة
خصبة يسقيها وادي بيطام، وغنية تجدد فيها ما شئت من بر وشعير
وكتان وتمر وقطن وفواكه أخرى، ومن بقر وغنم وخيل وبغال وطبنة
كانت مركزا هاما للمواصلات بين الزاب والحصنة والأوراس وبلزمة
من جهة وللتجارة والصناعة من جهة أخرى، تبعد طبنة عن المسيلة
بمسيرة يوم وبينهما تقع مقرة على واد يسمى باسمها وبها مرصد أعلن
عنه ابن حوقل ويكثر بضائعها الكتان والحبوب والثمار وتربط هذه
المدينة بالقلعة طريق منذ الفاطميين.

على وادي سحر تقع المسيلة ولا تزال قاعدة الزّاب وأهم معاقل المغرب الأوسط في القرن الخامس الهجري، إلا أن أهميتها أخذت تضعف منذ شيدت القلعة فقد بنى بها بنو حمدون قصورا فخمة ذهب أثرها إلا من شعر ابن هانئ ماذح تلك الأسرة فكان يحيط بها سوران من طوب يفرق بينهما قناة تزيد في منعها وتسقى بمائها بساتين ضاحتها، فكانت مركزا تجاريا هاما، وكانت عامرة حتى بعد أن دخلها هلال. وبها أسواق وحمامات وكان يصطاد من نهرها سمك دقيق ذو خطوط حمراء يفخر به أهل طبنة ويتهافت عليه أهل القلعة وبساتين المسيلة تكفي حاجات سكانها حنطة وشعيرا وثمارا وخضرا إن سفرجلها التنسي كان يصل إلى أسواق القيروان، وقطنها ممتاز ومراعيها عامرة بالدواب عامة وبالخيل خاصة لما اختطها المهدي الفاطمي سماها باسمه ونقل إليها ابنه، من القيروان، بني كملان الذين ساعدوا أبا يزيد الخارجي وقد أشرنا إليهم في القسم السياسي ونخبرنا ابن حوقل بأن نواحي المسيلة كان يعمرها بنو برزال وبنو زندج وهوارة ومزاةة وعلى قول البكري إن الجبل المجاور لها كان يسكنه عجيسة وهوارة وبنو برزال وسدراتة ومزاةة وبنو برزال القاطنون بالمسيلة وسطيف وطبنة وميلة كانوا حلفاء علي بن حمدون وشاركوا في المعركة التي لقي زيري بن مناد حتفه فيها لما قام بلكين يثار لأبيه منهم خافوا على أنفسهم فهاجر عدد كبير منهم إلى الأندلس كان مهد تلكاته الأول غرب مدينة الجزائر.

وقيل أن يجلس بلكين أبو الفتوح على عرش ولاية افريقية والمغرب انتشرت في ما بين القبائل الكبرى وطبنة تجدهم في كل مكان بين مليانة والمدينة والجزائر شمالا وحمزة شرقا والمسيلة جنوبا فقوي

نفوذهم على حساب مزاة وهوارة ونفزة وغيرهم من البربر الذين كانوا يسكنون بيوتا من الخوص وعانوا الشيء الكثير من طرف بلكين، وعلى حساب مغراوة الذين طردو إلى المغرب الأقصى. أما بنو ومانو وبنو يلومي فمكثوا بديارهم وصاروا أحلافا لصنهاجة وانتهزوا ضعف هؤلاء ليتوسعوا ويفرضوا وجودهم في المغرب الأوسط فإنهم خدموا الحمّادين، ولكنهم بعد سنة 470هـ/1077م- 1078م، مالوا إلى المرابطين وأعانواهم على المنصور بن الناصر، كما سبق أن قلنا في القسم السياسي أما هلال فقد استولوا على البسائط وطردوا زناتة إلى النواحي الجبلية من الزاب والتل، أما أشير فقد حدثناك عنها في القسم الأول من الكتاب فقد خرّبا يوسف بن حماد أخو القائد بعد سنة 440هـ/1048-1049م فلم تستعد عمرانها إلا بعد سنة 455هـ/1063م.

عقد الفاطميون لزيري بن مناد على تاهرت سنة 349هـ/960-961م فتوسعت بها رقعته، وأراد أن يوسعها أكثر ويعزز إستراتيجيتها، فأمر ولده بلكين أن يجدد بناء جزائر بني مزغنة ومليانة والمدينة، وربط بين كل منها وبين عاصمته بطريق وأشير كانت عاصمة تحتاج إلى شبكة من الطرق تربطها بالمنطقة التي بسط عليها زيري نفوذه، فالطريق التي تذهب من أشير إلى مرسى الدجاج تمر بقرية الشعبة ومضيق يؤدي إلى سهل واسع فيه الكافورية ينتفعون بجذورها وحمزة، التي تسمى باسم مشيدها حمزة بن سليمان العلوي، كانت تقع بسهل ومبينة بالطابية ويحيط بهما سور وخندق، وكانت تحت حكم صنهاجة ويذكر لنا البكري أن هناك طرقا تؤدي من هذا البلد إلى بلياس الواقع بجبل عال، ومن ثم إلى مرسى الدجاج وإلى مدينة

بني جناد، ويصف البكري الطريق التي تذهب من القيروان نحو مرسى الدجاج فيمر المسافر بالمسيلة ثم بعين أوزقور، ثم بسوق ماكسن وهي مدينة صنهاجية الواقعة على شلف ومسورة، ثم بمدينة جناد وهي صغيرة واقعة على جبل، ثم مرسى الدجاج، وفي الطريق الذاهبة من أشير نحو مدينة الجزائر يذكر البكري المدينة التي تسمى باسم بطن من صنهاجة وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق، ثم مدينة فزروبة الواقعة بنواحي البليدة يمر بها نهر عليه أرحية وبساتين، ثم سهول المتيجة التي تكثر فيها الزراعة والمراعي، وكتانها لا يكفي حاجيات السكان فحسب بل يصدر إلى مناطق أخرى ثم أغزر وهي المحطة الأخيرة قبل الوصول إلى مدينة الجزائر.

أما ابن حوقل فيصف لنا الطريق التي تربط مدينة أشير بمليانة فإنها تمر برطل مازوغة الذي يكثر فيه الماء والزراعة ولعل سوق هواره التي ذكرها البكري هي نفس رطل مازوغة ويلى هذه المحطة ريغة وهي قرية تقوم فيها سوق أسبوعية وتحف لها الأشجار والبساتين، ثم كران على شلف تقوم به أيضا سوق كل جمعة.

مليانة مدينة سكنها الرومان وأعاد بناءها بلكين بأمر أبيه زيري بن مناد فالمنطقة خصبة يسقيها نهر عليه أرحية وشرقي مليانة تقع الخضراء ومدينة وزيفان وتنس، وإلى هنا تنتهي بلاد صنهاجة وتبدأ منطقة زناتة التي ينتمي إليها بنو ورسفان القاطنون بنواحي الخضراء.

وأشير مرتبطة كذلك بتنس فالطريق تمر بلميانة ومدينة بني وارفن، ثم بشلف ومدينة جليداسن، ثم بمطغارة التي سكانها من الأندلس والقيروان والتي لم يدخلها بنو بركة منذ العهد الذي أرادوا

فيه أن يستولوا عليها سنة 398هـ/1007-1008م، وبسوق حمزة والمسيلة وبسكرة وبوسعادة ولغواط.

زار ابن حوقل مدينة الجزائر سنة 337هـ/948م، قبيل أن يجدد بلكين بناءها ووصفها لنا بقوله: «جزائر بني مزغنة هي مدينة عليها سور في سيف البحر، وفيها أسواق كثيرة ولها عيون على البحر طيبة شربهم منها ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر كثيرة أكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم السائمة في الجبال. ولهم من العسل والسمن والتين ما يجهز ويحلب إلى القيروان وغيرها ولها جزيرة في البحر على رمية سهم منها تحاذيها فإذا نزل بهم عدو لجأوا إليها، فكانوا في منعة وأمن ممن يحذرونه ويخافونه». منذ عهد زيري بن مناد أخذت تستعيد مكانتها فابن حوقل يذكر لنا علاقتها بالداخل والمقدسي الذي زارها من بعده يخبرنا بأن يعبر منها إلى الأندلس فلم تكن في عهده متصلة بالداخل فحسب بل بالخارج أيضا ولا غرو، فبقدر ما تقوى اتصالاتها بقدر ذلك يقوى عمراتها ويزداد ازدهارها وتعرض البكري بعد المقدسي إلى الجزائر فيقول: «جزائر بني مزغنة هي مدينة جليلة قديمة البنيان فيها آثار وازاج محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم، وصحن دار الملعب فيها قد فرش بحجارات ملونة صغار مثل الفسيفساء فيها صور للحيوانات بأحكام عمل وأبدع صناعة لم يغيرها تقادم الزمان ولا تعاقب القرون ولها أسواق ومسجد جامع وكانت بمدينة الجزائر كنيسة عظيمة بقي منها جدار مدور من الشرق إلى الغرب وهو اليوم قبلة الشريعة للعديد مخصص كثير النقوش والصور ومرساها مأمون له عين عذبة يقصد

إليها أهل السفن من أهل افريقية والأندلس وغيرهما». فالسفن لم تكن تقصدها من الأندلس فقط بل من افريقية أيضا فعلاقتها البحرية تقوت في عهد بني حماد الذي عاش فيه البكري ولم تزل أهمية الجزائر في تصاعد بعده.

فالإدريسي يحدثنا عنها فيقول: «مدينة الجزائر على ضفة البحر وشرب أهلها من عيون على البحر عذبة ومن آبار وهي عامرة أهلة، وتجارها مربحة، وأسوارها قائمة وصناعتها نافعة ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر وزراعتهم الخنطة والشعير وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم ويتخذون النحل كثيرا فلذلك العسل والسمن في بلادهم كثيران وربما يتجهز بهما إلى سائر البلاد والأقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم وأهلها قبائل، ولهم حرمة مانعة».

فيتراءى من حديث هؤلاء الجغرافيين أن المغرب الأوسط عرف تطورا كبيرا فيما يخص العمران والاقتصاد وبلغ أوج الازدهار في عهد الدولة الحمادية وفي أوائل العهد الموحدي أيضا. والخارج من الجزائر إلى بجاية يمر بتامدفوس ثم بمرسى بني جناد، وبنو جناد هم زواوة وعلى ميل من هذا المرسى يصل إلى مرسى الدجاج، فإنه محاط من جهة البحر ومن جهة أخرى بسور به باب وداخل هذا السور يوجد جامع وأسواق وثمار هذه البلدة كثيرة أهمها التين الذي يصدره أصحابه إلى الآفاق وسكانها أندلسيون وكتامة. وفي عهد الإدريسي كان هؤلاء السكان يغادرونها في الصيف حذرا من نزول العدو النورماندي وقبل أن ينهي المسافر إلى بجاية يمر بتادلس التي يحيط بها

سور فالناحية خصبة جدا وذات مراعي واسعة تعينها على إصدار الغنم والبقر إلى سائر البلاد والأقطار المجاورة.

والخارج من الجزائر إلى شرشال يمر بمرسى جنابية ثم بمرسى الذبان ومرسى البطال، فقد ذكره ابن حوقل والبكري، أما المقدسي فلم يذكره في كتابه إذ لم يكن له أهمية كما يقول الإدريسي، إلا أن الناحية تجود بالأثمار الفاخرة ولا سيما السفرجل والعنب والتين ومحصولات البدو البر والشعير، فإنهم يعيشون بالزراعة وتربية النحل والمواشي.

ويذكر ابن حوقل أن برشيك التي تقع غرب شرشال على كدية بالقرب من البحر يحيط بها سور من طابية ونواحيها تجود بالفواكه والحنطة والشعير.

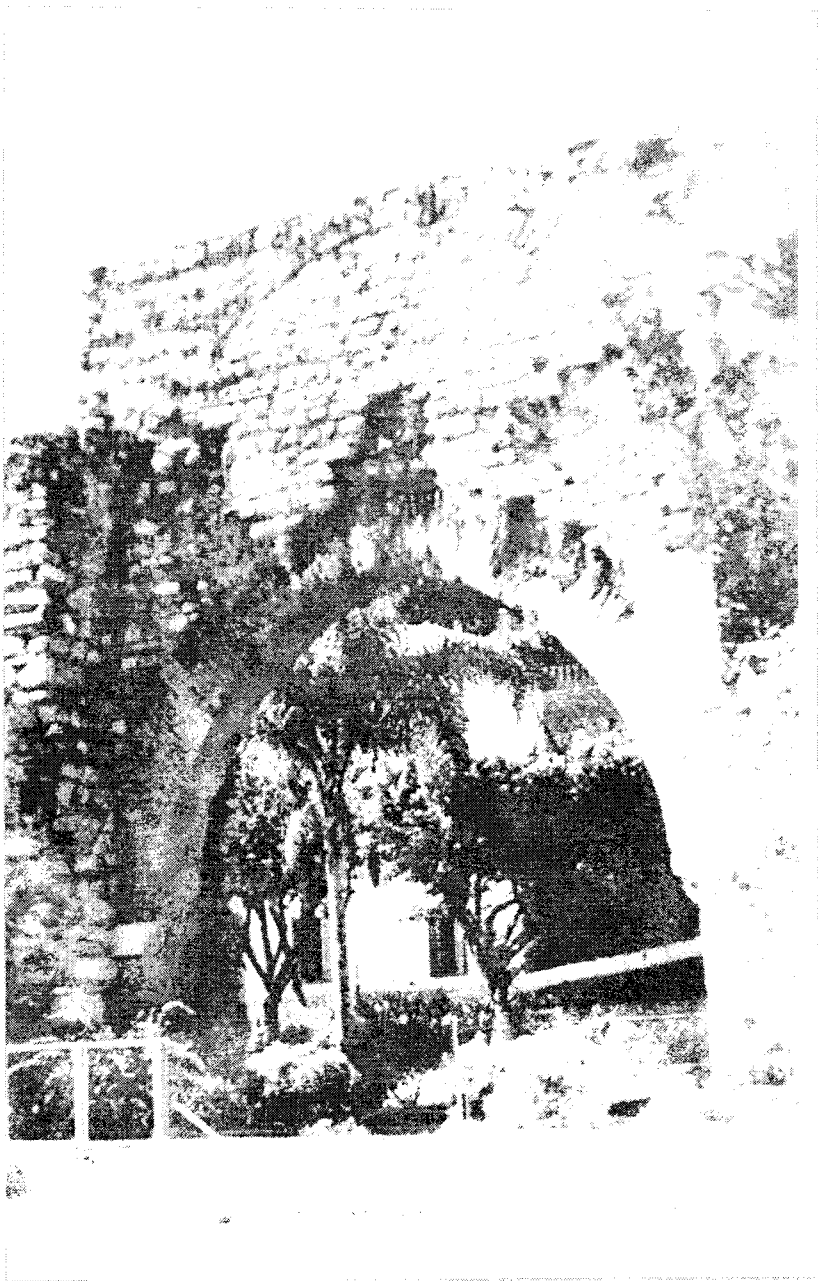
في شرق تادلس تقع بجاية وهي أهم مدينة في عصر الحمّادين الناصر والمنصور فهي أزلية كما يقول البكري فبقايا سورها القديم من جهة المرسى دالة على ذلك عمرها القرطاجيون ثم الرومان ثم الأندلسيون. وفي عهد صاحب الاستبصار كانت عظيمة، ولها من جهة الشمال جبل عال صعب المرتقى يسمى أمسيون، فيه مياه سائحة وعيون كثيرة، وفي أكنافه جمل من النبات ينتفع به في صناعة الطب وتقابل المدينة من الجهة الجنوبية جبال الجرجرة الشاخمة المكللة بالثلوج على الدوام، ومن الجهة الشمالية طرطوشة من الأندلس يدخل إليها خور من البحر الرومي تدخل منه المراكب⁽¹⁾.

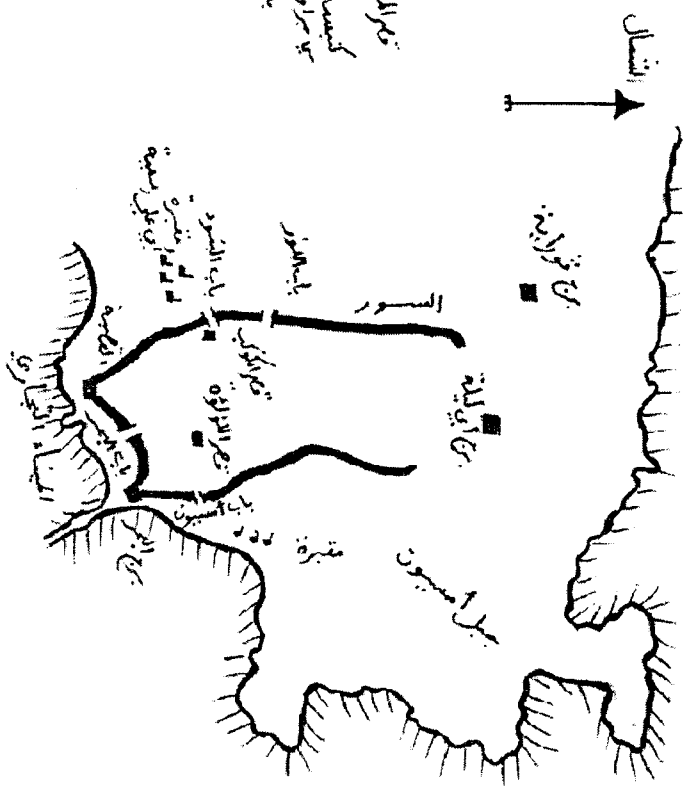
(1) الفلقشندي: صبح الأعشى ج 5 ص: 109

على المدينة سور عظيم⁽¹⁾ له أبواب كثيرة: يقع من الجهة الجنوبية باب البحر، ومن الجهة الشرقي باب المرسى وباب أمسيون وباب تاطونيت عرفه ابن تومرت وعبد المؤمن أما باب اللوز الذي مر به علي بن الغانية فيدخل معه الآتي من جهة جبل الخليفة، وتحتة يقع باب البنود وباب باطمة والباب الجديد والمدينة مقسمة إلى 31 حيا وكان كل حي يسمى باسم الباب المحاذي له أو باسم مؤسسة قرية منه، قد اقتبسنا هذين. الرسمين من الكتاب المسمى بجاية لوزارة الإعلام فالأول يمثل الناصرية وبالتأمل فيه نلاحظ أن السور لا يحيط بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم فلا شك أن مهندسي الحمّادين رأوا أن لا حاجة إلى تحصين الجهة الشمالية، فهي محصنة طبيعيا حين تكتنفها أرض وعرة يصعب على كل متعد جبار اقتحام المدينة منها ولعلهم لم يدققوا النظر في إجماعهم على ترك هذه الفجوة فمنها بالذات أمكن الاسبان أن يقتحموا بجاية ويفتحوها في أوائل يناير سنة 1510م والرسم الثاني يمثل قلعة حماد فإن سورها عام كامل لا فجوة فيه مع أن الجهة الشمالية هي الأخرى محصنة تحصينا طبيعيا فالمدينة في كنف جبل تقريست الذي ترتفع قمته إلى 1418 مترا بينما قمة قوراية لا يزيد ارتفاعها على 680 مترا.

فيقال حومة باب البحر وحومة باب أمسيون وحومة باب باطمة حيث تقع دار المقدسي المسماة بدار الفقيه هلال، وحومة اللؤلؤة القرية من قصر اللؤلؤة، وحومة المذبح حيث كان القراصنة يبيعون الأسرى ويؤدون الخمس من الأرباح للخرينة السلطانية،

(1) كتاب الاستبصار ص: 19







وحومة الساباط الأموي، وحارة المقدسي وحومة رابطة المتمني وحومة
بئر مسفرة القرية من مقبرة أبي علي رسمية أي خارجة باب البنود.
وكان ببجاية ما يربو على خمسين مسجدا منها مسجد الإمام
المهدي ومسجد الريحانة حيث انتصب ابن تومرت للتدريس ومسجد
النطاعين وهم صانعو الزرابي من الأديم وذلك زيادة على الجامع الواقع
في وسط المدينة والذي يحيط به عشرون ألف بيت.⁽¹⁾ أما المقابر
فكانت تمتد خارج الأبواب التالية: باب أمسيون وباب المرسى وباب
البنود إلا مقبرة واحدة تسمى مقبرة أبي علي رسمية.

أسواق بجاية كانت كثيرة ويذكر الغريبي بعضها: سوق
القيسارية وسوق الصوف وسوق باب البحر. وبجاية مرسى كبير
مأمون مشى⁽²⁾ حينئذ وسوق هامة رائعة فالإدريسي يحدثنا عنها
فيقول:

«السفن إليها مقلعة والقوافل بها منحطة والأمتعة إليها، برا
وبحرا، مجلوبة، والبضائع بها نافعة، وأهلها مياسير تجار يجالسون تجار
المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق وبها تحل الشدود وتباع
البضائع بالأموال المقنطرة» وصاحب الاستبصار هو الآخر ينوه برواج
ميناء بجاية وحر كاته:

(1) البكري ويؤيد قول البكري ما جاء في ماضي افريقية ص 361 لقوطية أن الناصرية في
عهدهما الحمّادي الزاهر كانت أكبر من بجاية الحالية وأوسع من صلدي الرومانية
بثلاث مرات، وما جاء في «وصف افريقية» للحسن الوزان أن عدد سكانها كان يربو
على مائة ألف نسمة حيث كانت تحتوي على أكثر من 24000 بيت.
(2) البكري.

«تخط فيه سفن الروم من الشام وغيرها من أقصى بلاد الروم وسفن المسلمين من الإسكندرية بطرق بلاد مصر وبلاد اليمن والهند والصين وغيرها... وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحراي لأن الخشب في أوديتها وجبالها كثير ويجلب من أقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران، وبها معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة، وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة وعلى بعد ميل منها نهر يأتيها من جهة الغرب من نحو جبال جرجرة، وهو نهر عظيم يجاز عند فم البحر بالمركب. وعلى ضفتيه بستانان البديع في الجهة الغربية والرفيع في الجهة الشرقية بالقرب من قصر اللؤلؤة وقد صنعت عليه نواعير والمدينة مشرفة مطلة على البحر وعلى فحوص قد أحاطت به جبال وتسقيه أنهار وعيون ثم أكثر بساتينهم»⁽¹⁾ للمدينة بواد ومزارع وبساتين تجود بالحنطة والشعير والتين وسائر الفواكه منها ما يكفي أكثر ومن البلدان،⁽²⁾ فلم يكن أبداً بها خصاصة من حيث الغذاء ولا من حيث الماء أيضاً، فقد جلب إليها المنصور المياه من جبل بواسطة القناطر المعلقة، ولا زالت آثار الصهاريج التي كانت تجمع فيه المياه بادية للعيون. كانت بجاية دار مملكة قد استمر عمرها بعد الدولة الحمّادية بتزول الموحيدين بها، فحفظت سياجها وتزايدت مبانيها ومصانعها بتزايد أحوال الدولة الثانية وترفها وتستجد بعمرانها عمرا آخر.⁽³⁾

(1) صاحب الاستبصار ص: 19

(2) كتاب الاستبصار.

(3) الإدريسي نزهة المشتاق ط دوزي ص 954.

لبحاية طريق إلى جهة الغرب تسمى بالمضيق على ضفة النهر المسمى بالوادي الكبير والطريق إلى قلعة بني حمّاد على عقاب وأوعار، وكذلك طريقها إلى الشرق وليس لها طريق سهلة إلا من جهة الغرب، فلم يكن للعرب إليها سبيل⁽¹⁾.

فقد وصف الإدريسي الطريق التي تصل بجاية بالقلعة، فإنها تخترق القبائل الكبرى تابعة وادي الصومام، وتمر بالمضيق وبسوق الأحد ووادي وهت وحصن تاكلات الواقع بكدية تطل على وادي بجاية حيث تنتهي المرحلة الأولى في هذه القرية سوق نافقة على الدوام لوجود الخضر والفواكه واللحوم بكثرة وبثمن زهيد ولا شك أن هواءها صحي وماءها نقي حيث كان بها ليحي بن العزيز الحمّادي قصور جميلة وبساتين وارفة فمن هذه القرية يستأنف المسافر سيره نحو تادرفت وسوق الخميس وحصن بكره في هذا الحصن القائم على الوادي الكبير، وسط المراعي الواسعة، تعقد سوق رائجة فيقضي فيها المسافر ليلته ثم يتابع سيره نحو حصن وازفو وحصن الحديد والشعراء وقصر بني تراركس وتاورت فثم يحط ريثما يواصل سيره نحو الباب وحصن الشقائف وحصن الناظور وسوق الخميس.

وهناك يبقى له مرحلتان ليصل إلى القلعة في الأولى يمر بحصن يقع بجبل عال يعزب على العرب أن يصلوا إليه، ثم بالطمطة وهي سهل عال وسوق الاثنين. وفي المرحلة الثانية يمر بحصن تافلكانت ثم بتركة وبقصر عطية الواقع بقمة جبل بالمنطقة بها أوعار، وسكانها بمنجاة

(1) المقدمة ص 343.

من عبث العرب وفسادهم، لأن هؤلاء لا يتسنون إليهم التلال والجبال
فالعرب لا يتغلبون إلا على البسائط.⁽¹⁾

وفي شرقي بجاية جيحل تربط بينهما طريق. وجيحل مدينة
صغيرة حينئذ، لكنها من الأهمية بمكان، كان لها ميناءان، وأهمهما
مرسى الشعرة، يجعلانها فرضة سطيف وقسنطينة، شواطئها تزخر
بالسمك الذي كان أصحابه يجهزون به إلى مدن المنطقة نواحي جيحل
خصبة تتوفر فيها بكثرة اللبن والسمن والعسل والحبوب. وبجبال كتامة
المخاضية لها معادن الحديد الذي يصدر إلى إفريقية واللازورد.⁽²⁾

وكان بنو زلدوي يستوطنون أقصى باديتها وكانوا جفاة عصاة
لا يؤدون الغرائب إلى الدولة إلا تحت التهديد والإرغام.

تربط جيحل وعنابة طريق تمر بحصن المنصورية ومتوسة التي
يستخرج من أرضها الجبس الذي كان يجهز إلى بجاية، وسكيكدة،
والقل عنابة هي فرضة قالة وقسنطينة وعنابة مدينتان: القديمة ويقال
لها مدينة زاوي، بها مساجد منها مسجد سيدي مروان الذي شيد سنة
435هـ/1032م، في عهد المعز بن باديس، وبها أسواق وحمام، والمحدث
التي هي أهم من الأولى فيحاط بها سور شيد بعد سنة
450هـ/1057-1058م.

تقع عنابة في منطقة خصبة يسكنها البربر من مصمودة وأوربة
يخدمون الأرض، فتجود عليهم بالقمح والشعير والكتان والفواكه
المتنوعة، ويعتنون بتربية النحل والبقر، فكثير عندهم العسل والسمن

(1) ابن خلدون : المقدمة ص: 149

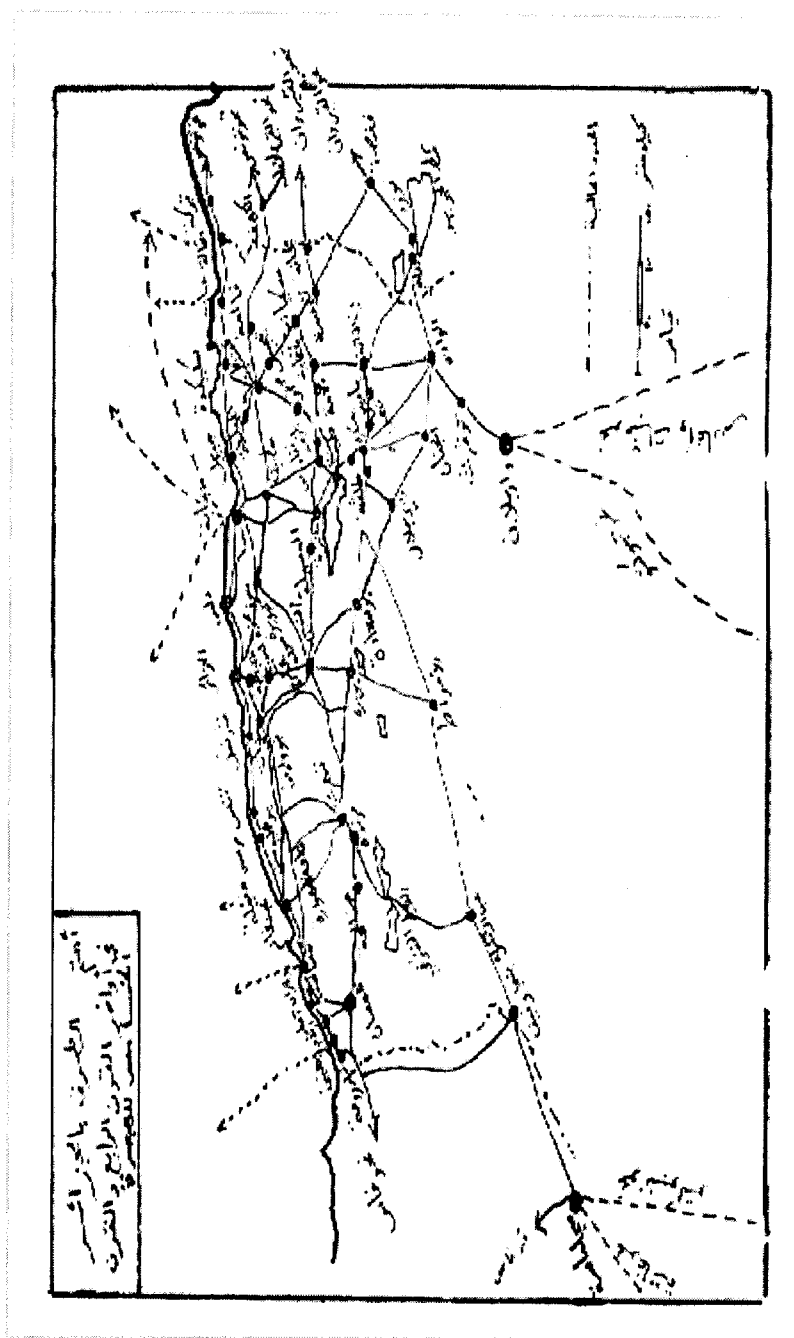
(2) البكر.

وسمكها كان يجهز إلى قسنطينة وقالة. والخشب موفور في الغابات المجاورة يصنعون به السفن التي كانت تغزو شواطئ جزر البحر الأبيض المتوسط مثل صردانيا وكورسيكا وكان لها، زيادة على الموارد الفلاحية والبحرية، خبايا الأرض، فجبال إيدوغ المحاذية لها تحتوي على معادن الحديد إلا أن شأن عناية أخذ يتقلص بوصول العرب إليها فعندما غزاها النورماند، سنة 548هـ/1153-1154م، كانت مدينة فقيرة قليلة السكان.

تربط عناية والقيروان طريق تمر بمرسى الخرز ويعثر سالكها على بربر يسكنون الخوص والأكوخ بزانة في وسط غابة واسعة الأطراف ويكثر فيها شجر البلوط الذي يصدر خشبه إلى افريقية.

إن أقدم وأهم مدينة بشرق المغرب الأوسط قسنطينة كان يحيط بها سور له بابان باب ميلة في الجهة الغربية وباب القنطرة في الجهة الشرقية. أما المقبرة فكانت تقع خارج باب ميلة باديته واسعة الأطراف خصبة صالحة لزراعة البر والشعير، الشيء الذي يفسر وجود المطامير الكثيرة المشحونة بالحبوب. وما يجدر بالذكر أن هذه الحبوب لا تفسد ولو بقيت قرنا مخزونة. كان يغمرها أسر من ميلة ونفزاوة وقسنطينة فالأغنياء منهم كانوا يتعاقدون مع العرب على خدمة مزارعهم وتربية مواشيهم ونخلهم.

كانت قسنطينة في وقت البكري تعد من منطقة كتامة كانت شبكة من الطرق تربطها بمدن المنطقة الشرقية جيحل وبجاية وأبراس وقلعة بشر وتيفاش وقالة والقصرين ودور مدين ومرسى القل والطريق التي تؤدي من قسنطينة إلى جيحل تمر بالنهر وفحص فارة



وقرية بني خلف وحصن كلديس وسوق بني زند حيث تقام سوق أسبوعية، وتالة، ثم بالمغارة ومسجد بهلول ثم المزارع قبل أن تصل إلى جيحل.

أما ميلة التي خربها المنصور بن بلكين إثر ثورة أبي الفهم سنة 379هـ/988-989م ونقل أهلها إلى باغاية، كما سبق أن قلنا في القسم الأول، فأمكنها أن تستعيد ازدهارها بعد ذلك فقد جددت أسوارها. كان بها مسجد جامع يقع بالقرب من باب الرؤوس وملاصقا لجدار دار الإمارة وداخل الباب تقع عين السبع التي يرد ماؤها من جبل بني ياروت فإن سكانها من العرب والجنود والأهالي (المولدين).

فقد وجد العرب نواحيها واسعة خصبة فاستوطنوها وطاب عيشهم فيها. فلا تبعد عن سطيف التي كانت مدينة كبيرة والتي تقع في وسط سهل عال هدمت كتامة أسوارها لأن العرب الذين استولوا عليها أرغموهم على أن يؤدوا لهم ضرائب فادحة. إلا أن عدم الأسوار لم يمنعها من أن تكون مزدهرة حينذاك. كان بها أسواق كثيرة نافقة ترد عليها محصولات مزارعها وبساتينها من حنطة وفواكه، فكانت مشهورة بكثرة الجوز الذي يجهر إلى غيرها. فقد تضائل عدد سكانها في عهد الإدريسي، فلم يبق فيها سنة 484هـ إلا أربعة آلاف نسمة.

وتربط سطيف والقلعة طريق تخترق بوادي غنية زرعا وضرعا، وقد حدثناك عن الظروف التي دعت إلى تأسيسها وعن موقعها إن جراوة وأهل مسيلة وحمزة الذين نقلوا إلى القلعة كانوا يسكنون بحي خاص بهم يشرف عليه القصر الذي بقي منه المنار.

وكان بالقلعة على الأقل ثلاثة أبواب، باب الأقواس في الشمال الشرقي، وباب جراوة في الجنوب الشرقي، وباب الجنان في الجنوب الغربي والأحياء الزاخرة بالسكان والأسواق المكتظة بالتجار كانت تحيط بالمسجد الواقع في وسط المدينة وكان يخترق المدينة شارع يمتد من باب الجنان إلى باب الأقواس. وقد اكتشف علماء الآثار مؤسسات قام بتشيدنها ملوك بني حماد منها دار البحر والذي بينه وبين المسجد مائة وخمسون مترا من الجهة الجنوبية وفي شرقي المدينة يقع قصر المنار. فقبل أن يؤسس الناصر بجاية زين مسجد القلعة وبني غير بعيد من المدينة قصورا قصرا لعروسين وقصر بلارة زوجته، بنت تميم بن المعز، التي بنى بها سنة 470هـ/1077م، وقصر الخلافة وقصر الكوكب في أوائل القرن الخامس.

كان بالقلعة مساجد وفنادق عديدة وقد اشتد شأنها على حساب القيروان التي قضى عليها بنو هلال فقد جاء أهل افريقية يستقرون بالقلعة فلم تضق بهم، فالمواد الغذائية كانت كثيرة ورخيصة كان يقصدها القوافل من المشرق ومن المغرب وكانت بلاد زرع وضرع وخصب وفلاحة،⁽¹⁾ فإن مطامير القلعة يخزن فيها القمح سنة أو سنتين دون أن يفسد، وكان يصنع فيها اللبد للسروج والكسي السميكة الموشية بالخیوط الذهبية والثياب الصوفية: إلا أن ازدهار القلعة أخذ يتقلص بدخول هلال إليها، لما أسست بجاية بقيت القلعة عاصمة، ولكن للدرجة الثانية، خرج منها يحيى بن العزيز سنة 543هـ/1149م فلم تبق من ذلك الحين عاصمة، لكن، لم تضمحل فبقيت تصارع الموت والموت يصارعها إلى أن خر بها يحيى بن الغانية في

أوائل السابع الهجري ولا زال بها ضريح أبي الفضل بن النحوي الذي توفي بها سنة 513 هـ / 1119م والذي ستحدث عنه بعد.

وبما أن القلعة كانت عاصمة فكانت شبكة من الطرق تصلها بشتى المدن شمالا وجنوبا وشرقا وغربا على غربيها تقع المسيلة وأشير وبين هذه المدينة وتاهرت تمتد طريق عليها غوزا وهي محطة للقوافل، وهاز التي نقل زيري بن مناد سكانها إلى أشير، وجرتيل التي يسكنها زناتة والتي تقع في ناحية بها ماء وخصب، وماما التي بها جامع وسور من الطوب وخندق، وأغير وهي قرية صغيرة بينها وبين تاهرت مرحلة.

تيهت مدينتان: القديمة وقد اعتنى بها ملوك البربر قبل الرومان، والحديثة التي أسسها عبد الرحمان بن رستم سنة 143 هـ / 765م⁽¹⁾ يقول ابن حوقل في كتابه المسالك والممالك: «تيهت مدينتان كبيرتان إحداهما قديمة والأخرى محدثة» اختار عبد الرحمان لمدينته موقعا يتمتع فيها سكانها بالصحة والاطمئنان والرخاء، فإنها تقع في مكان مرتفع حصين هواؤه صحي وعيونه عذبة غزيرة تكفي المدينة شربها وباديتها خصبة زراعية واسعة الأرجاء يجري فيها نهر مينة الذي يسقي مزارعها والذي عليه أرحية، وتتوسط الشمال والجنوب والساحل والصحراء ما جعلها ملتقى تجاريا هاما بين المغرب الأوسط وبلاد السود والمغرب الأقصى والأندلس وإفريقية. وقد نوه الجغرافيون بحسن طبيعتها وثرواتها ورحائها وصفها المقدسي في القرن الرابع فقال «تيهت هي بلع المغرب، قد أحرق بها الأنهار والتفت بها الأشجار

(1) وذلك على حسب الأستاذ عبد الرحمان الجيلالي، أما على حسب الأستاذ قوطيه والأستاذ طيراس فكان الشروع في تأسيسها سنة 144 هـ / 761م

وغابت في البساتين، ونبتت حولها الأعين، وجل بها الإقليم، وانتعش فيها الغريب، واستطاعها اللبيب".

ويقول أيضا: «تيهرت بلد كثير الخير، رحب، رفق طيب رشيق الأسواق، غزير المياه، جيد الأهل، قديم الموضع، محكم الرصيف عجيب الوصف ولتيهرت العاصمة مسجدان جامعان على ثلثي البلد قد بنيا بالحجارة والجير، قريان من الأسواق من دروبها المعروفة أربعة: درب مجانة ودرب المعصومة ودرب حارة الخفير ودرب البساتين» وقد وصفها ابن حوقل أيضا، فقال: «تيهرت مدينتان كبيرتان إحداهما قديمة وأخرى محدثة والقديمة ذات سور، وهي على جبل ليس بالعالى، وفيها كثير من الناس، وفيها جامع، والمحدثة مدينة أيضا فيها جامع كتيهرت القديمة وإمام وخطب والتجار، والتجارة في المحدثة أكثر.

ولهم مياه كثيرة تدخل في أكثر دورهم، وأشجار بساتين كثيرة وحمامات وخانات وهي أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفارهة. ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلات» والبكري يذكر لنا أشياء لا نجدها عند سابقيه فقال «مدينة تيهرت مسورة لها أربعة أبواب: باب الصفا وباب المنازل وباب الأندلس وباب المطاحن وغيرها. وهي في سفح جبل يقال له جزول ولها قصبة مشرفة على السوق تسمى المعصومة وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة وهو في قبليها، ونهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمى تاتش، ومن تاتش شرب أهلها وبساتينها وهو في شرقيها وفيها جميع الثمار. وسفرجلها يفوق سفرجل الأفاق حسنا وطعما ومشما،

وسفرجلها يسمى بالفارسي وهي شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج»
ووصف صاحب الاستبصار لتيهت ليس أقل دقة من وصف البكري
يقول: "مدينة تاهرت مدينة مشهورة كبيرة، عليها سور صخر، ولها
قصبه منيعة تسمى المعصومة، وهي في سفح جبل، وعلى نهر يأتيها من
ناحية القبلة يسمى مينة، ولها نهر آخر يجري من عيون تجتمع يسمى
تاتش منه شرب أرضها وبساتينها وكان لها بساتين كثيرة فيها جميع
الثمار، وفيها سفرجل يفوق سفرجل البلاد حسنا ومطعما ورائحة"
نحس ونحن نقرأ ما قاله البكري وما قاله صاحب الاستبصار، أن واحدا
منهما نقل عن الآخر، وبما أن البكري عاش قبل صاحب الاستبصار
فالناقل هو هذا الأخير.

فقد استولى على تيهت الفاطميون، ثم بسط الزيريون وبعدهم
الحمّاديون نفوذهم عليها، فتأثرت سياسيا، وضعت تجارتها لفائدة
القيروان، ولكن باديتها لم تتأثر، فأصبح سمعك للإدريسي حيث يقول
في القرن الثاني عشر «مدينة تيهت كانت فيما سلف من الزمان
مدينتين كبيرتين إحداهما قديمة والأخرى محدثة والقديمة من هاتين
المدينتين ذات سور، وهي على قمة جبل قليل العلو، وبها ناس وجمل
من البربر لهم تجارات وبضائع وأسواق عامرة، وبها مزارع وضياع
جمّة، وبها من نتائج الخيل والبراذين كل حسن.

وأما البقر والغنم فكثير بها جدا وكذا السمن والعسل، وسائر
غلاتها مباركة ومدينة تيهت الحديثة مياه متدفقة وعيون جارية تدخل
أكثر ديارهم ويتصرفون فيها، ولهم على هذه المياه بساتين وأشجار

تحمل ضروبا من الفاكهة الحسنة وبالجملة فهي نفعة حسنة» فابن عذاري من جهته يؤكد ما حدثنا به الإدريسي عن باديتها: فقال: «تيهرت غيضة بين ثلاثة أنهار: نهر مينة في الجنوب ونهر شلف في الشمال وعيون تاتش في شرقها كانت حول تاهرت بساتين من أنواع الثمار كثيرة الأشجار، وهي شديدة البرد كثيرة الأمطار».

فهؤلاء الجغرافيون جميعهم متفقون على أن تاهرت كانت من أحسن مدن المغرب الأوسط موقعا وأكثرها خيرات وثروات فأقوالهم متكاملة وتعطينا نظرة شاملة عن عمرائها واقتصادها.

إن المواصلات كانت ممكنة بين تاهرت وتنس ومازونة وقلعة بني راشد ووهران وتلمسان وسجلماسة والمنطقة مهد مغراوة ويفرن، ذات سهول واسعة فلاحية فاليعقوبي يحدثنا عن قلعة بني راشد وعن باديتها فكانت هذه خصبة يخرقها وديان، فمن البديهي أن يكثر فيها الحنطة والشعير والثمار المختلفة والماشية كان معظم سكانها من هوارة، ولهذا تسمى أيضا قلعة هوارة فهؤلاء كان موطنهم الأصلي بشرق البلاد. ولكن شاءت الظروف أن يتشتت شملهم، فنجدهم لا بهذه القلعة فحسب بل في شتى النواح وبسط بنو توجين نفوذهم عليها في أواخر العهد الوسيط. إن أهلها يشتغلون بالحياكة لوجود الصوف في الناحية والقطن في ناحية شلف فهي مشهورة بصناعة الزرابي وأهلها كانوا على مذهب الخارجية منذ عهد الدولة الرستمية.

أما مازونة فتقع في بادية تسقيها وديان بسوماتة من الجهة الشمالية الشرقية ووادي مازونة في الجهة الشمالية الغربية فهي غنية

ذات مزارع وبساتين ومراع، ما يجعل أسواقها نافقة يكثر فيها الزرع والفواكه والحليب والسمن والعسل والصوف.

وعلى ساحل البحر المتوسط تقع مدينة وهران التي كانت فرضة تيهرت في عز الدولة الرستمية تصلها بالأندلس ثم جاء محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الأندلسيين البحرين، فبنوا سورها وزادوا في عمرائها فقد وصفها البكري فقال: "وهران مدينة حصينة وهي ذات مياه سائحة وأرجاء ماء وبساتين ولها مسجد جامع وقد أسس هذه المدينة محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الأندلسيين البحرين الذين كانوا ينتجعون مرساها باتفاق مع نفزة وبني يسقن، وذلك سنة 290هـ"

وتحدث عنها الإدريسي في القرن السادس فقال: «وهران على ضفة البحر وعليها سور تراب متقن، وبها أسواق مقدرة وصنائع كثيرة وتجارات ناضة، وهي تقابل مدينة المرية من ساحل الأندلس ولها مرسى صغير على ميلين منها، المرسى الكبير وهو يستر من كل ريح. وشرب أهلها من وادي يجري إليها من البر وعليه بساتين وجنات، وبها فواكه ممكنة وأهلها في خصب، والعسل بها موجود وكذلك السمن، والزبد، والبقر، والغنم بها رخيصة، ومراكب الأندلس إليها مختلفة، وفي أهلها دهقنة وعزة نفس ونخوة» وهي فرضة تلمسان، تربطهما طريق تمر على تموشنت التي كانت في العهد القديم معقلا من المعقل الرومانية وتلمسان بلد أزلي ينعم بالمياه والأعشاب والأشجار فكان الرومان يسمونها بومارية أي البستان، وكلمة تلمسان نفسها معناها أرض تنعم بالمياه والأشجار، فهي غوطة قد مر بها يعقوبي ثم ابن حوقل. فالأول

يقول بأن الأسوار مبنية بالحجر، وكان يحيط بها سور داخلي وآخر خارجي. أما الثاني فقد رآها مبنية بالآجر في بعض جهاتها ولم يذكر السور الثاني. كانت تلمسان مزدهرة وهذا الازدهار يرجع إلى الصناعة والفلاحة، وقد نشطت الزراعة لاعتدال المناخ وخصب الأرض. فقال صاحب الاستبصار: «وهي، أي تلمسان، كثيرة الخصب، رخيصة الأسعار كثيرة الخيرات» إلا أن هذه الزراعة كانت تمر بأزمات في سنوات الخارجية وأيام الصراع الأموي الشيعي نظرا للاضطرابات السياسية والثورات المتكررة التي كان البلد يتعرض لها، فتقل حينئذ المواد الغذائية وترتفع الأسعار وتكس الأسواق.

ولكنها كانت تنهض وتزدهر من جديد كلما خمدت نار الفتن واطمأنت قلوب الفلاحين فيستأنفون نشاطهم فينعمون ويعم الرخاء المنطقة، فالفلاحة والصناعة كانتا عاملين مهمين في ازدهار التجارة ومصدرا لسعادة الفرد والجماعة فأشار أكثر الجغرافيين الذين تحدثوا عن تلمسان إلى أهمية نشاطها التجاري فذكر البكري أنها كانت قاعدة المغرب الأوسط، وبها مساجد وأسواق نافقة ضمت عددا كبيرا من التجار الأجانب نعم، فقد كانت مقصدا لتجار الآفاق فكانت القوافل غادية رائحة بين تلمسان والأندلس عن طريق فرضيتها القريبتين منها أرشقول وهنين. وفي جنوب تلمسان بلاد السود كان تجارنا يقصدونها، تخرج القوافل التجارية إلى سجلماسة ومن هناك تؤم تنبكتو صحبة القوافل الفاسية. قد توالى عليها ملوك من مغراوة ويفرن، لكن لم ينف ذلك نفوذ صنهاجة عليها فقد حل بها زيري بن مناد ثم ولده بلكين أبو الفتوح ثم بلكين بن محمد والمنصور بن الناصر وقد نزعها المرابطون من يد

زناتة وبنوا بها تآقارات؁ فصارت تحتوي على مدينتين بينهما رمية حجر؁⁽¹⁾ ولكن جاء عبد المؤمن واستولى عليها؁ ومن وراء تلمسان من جهة الشمال الغربي تقع مدينة ندرومة في سند جبل فلاوسن؁ وقد سماها اليعقوبي فلوسن والمنطقة يعمرها بطون من مطماطة وترجة وجزولة وصنهاجة وأنجفة وعنجرة⁽²⁾ وكومية؁ ويصفها الإدريسي فيقول: «هي مدينة كبيرة عامرة أهلة ذات سور وسوق موضعها في سند ولها مزارع؁ ولها واد يجري في شريقها وعليه بساتين وجنات وعمارة وسقي». وكان أهلها فلاحين أونساجين؁ ينسجون الثياب الصوفية والقطنية؁ فزراعة القطن في الناحية كانت نشيطة. وفرضتها تبحريت (الغزوات) ويذكر لنا الإدريسي أن بين تبحري وهنين على البحر أحد عشر ميلا.

وهنين مدينة حسنة صغيرة في نحر البحر عامرة عليها سور متقن وأسواق وبيع وشراء؁ وخارجها زراعات كثيرة وعمارات متصلة. ومن هنين على الساحل إلى مرسى الوردانية ستة أميال؁ ومنها إلى جزيرة القشقار ثمانية أميال؁ ومنها إلى جزيرة أرشقول؁ وكانت فيما سلف حصنا عامرا له مرسى وبادية وسعة في الماشية والأموال السائمة. ومرساها في جزيرة فيها مياه وضواحي كثيرة المراكب. وهي جزيرة مسكونة ويصب بجذائها نهر تافنة.

فالطرق؁ كما ترى؁ كانت متوافرة في المغرب الأوسط؁ بحيث أنك لا تجد منطقة منعزلة عن الأخرى؁ وكيف لا والطرق من الضروريات؁ فإن فوائدها أكثر من أن تحصى. إن الدولة لا يستقيم

(1) مراد الاطلاع جـ 1 ص: 272.

(2) الادريسي.

أمرها إلا إذا كانت العاصمة في اتصال دائم بالولايات القرية منها والقاصية، وعلى بصيرة مما يجري فيها من أحداث سياسية أو حركات تجارية أو أزمات مختلفة.

فالحكام ساهرون على بث الطمأنينة في قلوب الرعية، وهذه الطمأنينة هي وليدة الأمن الذي تنشره الجيوش. فلولا وجود الطرق لتعطلت حركاتها ولما وصلت إلى هدفها.

ومتى كثر الاطمئنان عظم العمران وزادت حاجيات الناس الذين لا يجدون حلها إلا في الأسواق. وهذه الأسواق ترد عليها من كل ناحية المحصولات الفلاحية والمنتجات الصناعية. ونفاقها يذر على التجار والصناع والفلاحين الأرزاق، فينعمون، وعلى إدارة الجبايات الأموال الغزيرة فيشمخ سلطان الدولة وتتفنن في اتخاذ المعامل والحصون واختطاط المدن وتشيد المؤسسات من مارستانات ومساجد ومدارس وأساطيل وغير ذلك من المرافق.

وبفضل المسالك تمكن الجغرافيون والمؤرخون من الطواف في مناطق البلاد، فحدثونا عن جغرافيتها وعن حياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفنية والحضارية، وبواسطتها أيضا كان العلماء والدعاة يتحركون طول البلاد وعرضها لنشر العلم وبث آرائهم بين الناس، والحجاج يتوجهون من جميع أطراف القطر إلى ملتقى ليذهبوا جميعا إلى الديار المقدسة، والتجار يصدرون ما يكثرون عن حاجات السكان وإيراد ما ينقصهم.

فالبلاد، إذن، لا يسودها النظام والاطمئنان والرخاء إلا إذا احتوت على شبكة كثيفة من الطرق تمتد في أنحائها، فتربط المدن

والقرى والحصون والمراسي. وجميع الرحالة الذين تحدثوا عن المغرب الأوسط في العهد الوسيط متفقون على أن الطرق كانت متوافرة فيه. فخيرات البلاد والسلع الواردة من الخارج برا وبحرا كانت تتوزعها جميع المدن والقرى في جميع المناطق من القالة إلى الغزوات ومن بجاية إلى أعماق الصحراء. فالبلاد كانت عامرة غنية بالنسبة إلى ذلك الوقت. فكانت فلاحية قبل كل شيء ومحصولاتها وافرة من بر وشعير وأثمار وسمن وزيت وعسل ولحوم وسمك وصوف وكتان وقطن، وربما زادت على حاجاتها. ألم يمد زيري بن مناد بكمية عظيمة من الزرع الخليفة الفاطمي في أيامه الحالكة حين خالف عليه أبو يزيد بن كيداد الخارجي؟ ألم يكن المغرب الأوسط من قبل خزينة روما؟ وقد رأينا أن المواد الأولية متوافرة. فالصوف والوبر والكتان والقطن والحلفاء والطين بجانب الحديد والرصاص كانت تشغل يد الصناع. فالتجارة بفضل ازدهار الفلاحة والصناعة كانت نافقة في الداخل والخارج.

وغاباتنا تجود بالخشب والزفت والقطران، فتساعد بذلك على صنع السفن الحربية والتجارية، فالأولى تحمي البلاد من الهجومات المعادية الطارئة، والثانية تصلها بالعالم الخارجي. فالصادرات والواردات ترجع على القطر بالرفاه. على كل حال، فإن المغرب الأوسط قد جلب أنظار الرحالة العرب، فتحدثوا عنه وعدادوا محاسنه. فنجتزي بما قاله المقدسي حول خصائصه الطبيعية والعمرائية والاقتصادية في القرن الخامس في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: «هذا الإقليم، إقليم المغرب كبير سري كثير المدن والقرى وعجيب الخصائص والرخاء، به ثغور جليلة وحصون كثيرة، ورياض نزيهة، وبه جزائر عدة، قد غابت في الزيتون مدنه وبالتين والكرمات.

أرضه تجري خلالها الأنهار وتتلأ غيطاها الأشجار. أما افريقية فقبضتها القيروان. ومن أهم مدنها المسيلة وأشير وسوق حمزة وجزيرة بني مزغناية ومتيجة وتنس وسوق إبراهيم والغزة والقلعة ومرسى الدجاج».

إن هذا الرخاء الذي كان يتمتع به المغرب الأوسط هو وليد جهود عناصر شتى من السكان. فإن الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية قد مزقت وحدة كثير من القبائل البربرية. فجماعات غادرت مواطنها الأولى وتشتتت في أنحاء البلاد، يخبرنا اليعقوبي بوجود لواته في طرابلس وفي ناحية قابس وشمال الأوراس، بينما البكري يرى أنهم كانوا بمصر وبالفران وبطرابلس وبقابس وبالقرب من تاهرت وبأزمة وبمجانة وبالمغرب الأوسط. أما أوربة الذين كانوا بالمغرب الأقصى فانبثوا في عهد اليعقوبي في ناحية نقاوس، والبكري يذهب إلى أنهم كانوا بنكور وبناحية عنابة وبالمغرب الأقصى.

وبنودمر الذين كانوا منبثين في أرض تمتد بين الزاب وتيهرت في عهد اليعقوبي، ذكر البكري أنهم كانوا بتنس وبندرومة. ومطماطة التي كانت بتخوم طرابلس تنقلت في عهد اليعقوبي إلى ما بين تيهرت وملوية ونراها فيعهد البكري بشمالي تيهرت تجاه البحر وبمنطقة ندرومة. وهوارة التي كانت بالفران أصبحوا بالأوراس وبشمال جبل السرسو حيث ابتنوا قلعة تسمى باسمهم. وفي عهد البكري نجد لهم أثرا في ناحية زغوان وفي جبال المعاضيز وفي تاهرت وفي شمال قهوذة وبالمغرب الأقصى وفي ناحيتي بني راشد وتبسة. أما بنو إرنيان فيعثر عليهم في بلاد زناتة مثل مكناسة الذين كانوا في القرن التاسع بنواحي

بسكرة والأوراس وتيهرت. وبنو يفرن الذين منهم مر نجيصه وبنو واركو مهدهم الأول شرق المغرب الأوسط. فانبئوا بنواحي تلمسان مثل بني واسين، ومغراوة هم الآخرون كانوا مشنتين فمنهم بنو خزر ولغواط وبنو ريغة. كانوا يملكون تلمسان، وبسطوا نفوذهم أكثر من مرة على تيهرت وسجلماسة، وذلك كلما لم يقصهم عنها صنهاجة ولعل تشتت شمل البربر يظهر بصفة أجلى فيما استوعبه جبل الونشريس حينذاك من قبائلهم. فاستقر به بطون من مكناسة وخرسون وأوربة ويصلاتن وزولات وبني واتمشوس وزوارة ونزار ومطغرة ووارترين وبني بلال وايزكرو وبني أبي حكيم وهوارة.⁽¹⁾

وكانت عناصر بشرق المغرب الأوسط تنتمي إلى البيزنطيين والرومان. فقد بقوا متمسكين بدين إِبائهم ويتكلمون باللاتينية في عهد البكري فذهب أثرهم، فقد ذابوا في الجماعة بتوالي الأيام.

ولعل القبيلة الصنهاجية لم تتفكك أوصالها مثل غيرها، لحما بمنقطتهم ونشوبها، فكان لهم الغلبة التي تدعو إلى التلاحم. فالتفت بتلكاتة التي منها الأسرة المالكة ونوغة وبنو عثمان وبنو مزغنة وبنو جعد وبطوية وبنو أفاون وبنو خليل. فإن هذه القبيلة العتيدة أخذت في طريق توحيد المغرب العربي، لكنها لم تصل إلى هدفها، قصدها عنه الزحف الهلالي برا والنورماندي بحرا.

(1) الإدريسي: صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص: 84

النظم النظام السياسي والإداري

كان الصنهاجيون أمراء وظلوا يتمتعون بالاستقلال الذاتي، ولكنهم يدينون بالتبعية الاسمية للخليفة الفاطمي التي تتمثل في ذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة وتطريزه على ثياب الأمير وعلى الأعلام التي لا يخالف لوفاها اعلام الخلافة. وكان الأمراء يتوارثون الملك ويتخذون ولاية العهد. فإذا تولى أمير جديد بعثوا للخليفة الفاطمي في القاهرة يطلبون منه سجل التقليد والاعتراف بشرعية حكمه ويلتمسون الخلع والألقاب والأعلام. وظلت الولاية وراثية في أعقاب بلكين أبي الفتوح بافريقية من سنة 362هـ إلى سنة 542هـ حين استولى النورمانديون على مدينة مهدية. وظل بنو زيري يدينون بالتبعية للخليفة الفاطمي إلى سنة 443هـ/1051م حيث قطعت الخطبة للمستنصر الفاطمي.

أما الحمّاديون فكانوا من عهد حماد يخطبون لبني العباس، وبينما كان الزيريون تأتيهم سجلات التقليد مشفوعة بالأعلام والهدايا والألقاب التشريفية مثل نصير الدولة (باديس) وشرف الدولة وعَضُد الدولة (المعز بن باديس) وتاج الخلافة (الحسن).

كان الحمّاديون سلاطين مستقلين متجافين عن ألقاب الخلافة أدبا معها. فليسوا قرشيين مثل بني أمية والعباسيين والفاطمين ولا يمتون للسلالة الغالبة بصلة. فاقترضوا على اسم السلطان والأمير، ولم

ينتموا في راياتهم وبنودهم بلون واحد، ووشوها بالذهب، واتخذوها من الحرير الخالص ملونة، واستمروا على الإذن فيها لعمالهم حتى إذا جاءت دولة الموحدين ومن بعدهم من زناتة قصرُوا الآلة من البنود والطبول على السلطان وحظروها على سواه من عماله.

والزيريون والحمّاديون اتخذوا الطبول والأبواق، فإن سر قرع الأولى والنفخ في الثانية إرهاب العدو في الحرب، فإن الأصوات الهائلة لها تأثير في النفوس بالروعة. فإن زناتة من أمم المغرب يتقدم الشاعر عندهم من أمام الصفوف ويتغنى فيحرك بغناؤه الجبال الرواسي ويبعث على الاستماتة من لا يظن بها ويسمون ذلك الغناء تاصوكايت.⁽¹⁾ والزيريون مثل الحمّاديين لم يتخذوا حجابا يكونون همزة وصل بينهم وبين الشعب.

إن الأمراء الأولين، أبا الفتوح وأبا الفتح ونصير الدولة كانوا يستقرون بأشير ويجعلون على رأس ولاية افريقية عاملا لا يمت للسلالة الصنهاجية بصلة، ويشترط فيه أن يكون كاتباً ينوب عن الأمير فيجني ويعقد للعمال ويفتش الجيوش.

كان لزيري بن مناد كاتب اسمه عبد الله بن محمد الكاتب. لما تولى بلكين أمر ولايته احتفظ به، فجعله كاتب سره ووزيره الأول، وبقي يمارس عمله ويشرف على افريقية في عصر المنصور أبي الفتح إلى أن قتله هذا الأمير للأسباب التي ذكرناها في القسم الأول

(1) المقدمة ص 258.

وعوضه بيوسف بن أبي محمد ثم بمحمد بن أبي العرب الذي بقي على رأس افريقية إلى أن توفي في عهد باديس، وخلفه ابنه أبو القاسم ثم أبو البهار بن خلوف ثم منصور بن رشيق في آخر أيام باديس إلى أن عزل سنة 406هـ/1016م في عهد المعز.

هل كان هؤلاء العمال يعينون بكتاب ويعزلون بكتاب؟ هذا ما لم يذكره التاريخ. إلا أننا نعلم أن باديس قد عهد لفلفول بن سعيد على ولاية طبنة وكتب سجلا له بذلك.

ومن النظم الحمادية نذكر أن حمّادا قد قلد أمور صنهاجة إلى غلامه خلف الحميري الذي صار بعد ذلك واليا على أشير سنة 406هـ/1015-1016م، وأنه كان للناصر بن علناس وزير اسمه خلف بن أبي حيدرة الذي كان من قبل وزيرا لبلكين بن محمد، لكنه قتل بسعاية رجالات صنهاجة فيه وعوض بأبي بكر بن الفتوح الذي قتل هو الآخر. ومن ثم انتقلت الوزارة إلى بني حمدون إلى أن انقرضت الدولة الحمّادية. فوزراء الحمّاديين، كما ترى، هم الآخرون، لم يكونوا من السلالة الصنهاجية.

والأمير في حاجة إلى مكاتبة غيره من السلاطين والملوك والخلفاء، فمن الضروري، إذن، أن يكون له ديوان الرسائل والبريد. فقد وردت على أبي الفتوح بلكين، وهو في المغرب الأقصى، رسائل من القاهرة قرأها وبعثها إلى عامله بالقيروان.

النظام المالي

إن المعز لدين الله، قبيل أن يغادر افريقية، جعل على جباية أموال الولاية زيادة الله بن القاسم وعلى الخراج عبد الجبار الخراساني وحسن بن خلف المرصدي وأمرهما بالانقياد ليوسف بن زيري. فأراد بذلك أن يفرق الإدارة المالية والإدارة السياسية.

وفي سنة 380 توفي المرصدي، فأمر أبو الفتح المنصور بولاية محمد بن عبد القاهر بن خلف الخراج مع سلامة بن عيسى. فجلسا معا في ديوان خراج المنصور،⁽¹⁾ وهذا الديوان كان بدار الإمارة التي كانت تحتوي على الدواوين وبيت المال ومكتبة. والخراج هو ما يؤخذ على الأرض التي تزرع حبوبا ونخلا وعنبا وفاكهة، وما يؤخذ من المزارعين على سبيل الهدية مثل الغنم والدجاج، وما يؤخذ على ما يصاد من السمك.

فكان يجمع الخراج ويرسل منه الجزية إلى دار الخلافة. وكانت ضرائب أخرى بجانب الخراج يؤديها التجار وأصحاب الحرف، والجزية المفروضة على أهل الذمة. وهذه الجبايات كانت منظمة تنظيما دقيقا على ما يظهر، ويحرس عليها رجال متخصصون مثل الذين ذكرنا. وكانت تدخل من جرائها على الخزينة السلطانية أموال طائلة. يروي البكري أن المكوس التي تجبي عند باب من أبواب المنصورية كانت تبلغ ستة وعشرين ألف درهم. ولا يستغرب من ذلك، فكانت البلاد تنعم بالرخاء، نظرا إلى حركاتها التجارية وغلاتها الزراعية والنشاط

(1) البيان ج 1 ص 351.

الذي كان يقوم به الناس. فابن الأثير وابن عذاري وابن خلدون يذكرون لنا الشيء الكثير عن الأموال التي كانت تنفق في شتى المناسبات. تزوجت السيدة أم الخلو بنت نصير الدولة أخت شرف الدولة. فنظر الناس من صنوف الجواهر والأسلاك والأمتعة النفيسة وأواني الذهب والفضة ما لم يعمل مثله ولا سمح لأحد من الملوك فيه. قوم ما هو لها، فكان زائدا على ألف دينار. وهذا لم يرقط لامرأة قبلها بافريقية⁽¹⁾.

ولما توفيت السيدة زوجة نصير الدولة كفت فيما لم يذكر أن ملكا من الملوك كفن في مثله. فحكى من حضره من التجار أن قيمته مائة الف دينار، وجعلت في تابوت من عود هندي قد رصع بالجواهر. وكانت مسامير التابوت بألفي دينار⁽²⁾.

وأرسل باديس إلى الحاكم الفاطمي هدية جلييلة شيعها بالطبول والبنود، وكان فيها مائة فرش لها سروج محلاة شدت في ثمانية عشر حملا أقفاصا، وكان فيها ثمانية عشر حملا من الخز والسمور والمتاع السوسي المذهب النفيس⁽³⁾.

السكة

إن الزيريين كانوا يضربون السكة، وذلك منذ عهد زيري بن مناد، ولكنهم ينقشون عليها اسم الخليفة الفاطمي، لأنهم كانوا يدينون له بالتبعية. فكانت تضرب بالمنصورية والقيروان والمهدية.

(1) البيان ج 1 ص: 393-394

(2) نفس المصدر ص: 390

(3) نفس المصدر ص: 375

إلا أن المعز أمر في شعبان من سنة 441هـ بتبديل السكة. ثم بث في الناس قطع سكة الفاطميين وزوال أسمائهم من جميع الدنانير والدراهم بسائر عمله، وقد كان قطع أسمائهم من الرايات والبنود، وكان مبدأ ضرب السكة بأسماء بني عبيد ورسمها في الرايات والطرز سنة 296هـ إلى أن قطعها المعز سنة 441هـ وذلك مائة وخمس وأربعون سنة.

يخبرنا البكري بأن دار الضرب في القيروان كانت تحتل مكانا مجاورا لدار الإمارة⁽¹⁾ بالقرب من المسجد الجامع حيث تقوم غالب مصالح الحكومة مثل دواوين الخراج والجند والرسائل. ولعل الضرب كان ملحقا بديوان الخراج لاتصال مهمته به. وكان للدار ناظر خاص على نظامها ومسير العمل بها، ويرجع نظره إلى الأمير أو إلى الوالي مباشرة.

والحماديون ضربوا السكة ويبدو أن أول من ضربها باسمه من بني حماد هو المنصور بن الناصر،⁽²⁾ ولم يصف لنا المؤرخون نقوده. إنما نقود يحيى بن العزيز فقد وصفها لنا ابن خلدون قائلا: «إن سكة (يحيى) في الدينار كانت ثلاثة سطور ودائرة في كل وجه. فدائرة الوجه الواحد: "واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله، ثم، توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون»: والسطور: لا إله إلا الله محمد رسول الله يعتصم بحبل الله يحيى بن العزيز بالله الأمير المنصور. ودائرة الوجه الآخر (بسم الله الرحمن الرحيم. ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاث وأربعين وخمسائة). وفي سطوره: «الإمام أبو عبد الله المقتفي لأمر الله

(1) خربها السنيون سنة 407هـ/1016م

(2) المقدمة ص: 262

أمير المؤمنين العباسي»⁽¹⁾. وقد عثر على سكة في حفریات قلعة بني حماد، ويرجع صنعها إلى عصر أمراء بني حماد الصنهاجيين أصحاب القلعة أواخر القرن الخامس للهجرة.⁽²⁾

النظام الحربي

إن جيش الدولة الزيرية في أيامها الأولى كان يتألف من الصنهاجيين وحلفائهم من البربر، ومع توالي الأيام من عسكر منظم من صنهاجيين وعبيد ومن زناتة. أما جيش الحمّاديين فكان يتألف من صنهاجة وحلفائهم زناتة. فمنهم الرجالة والفرسان، آلاهم الحرية السيف والرمح والحربة والمذبة والدبوس. وكثيرا ما كان أمراء صنهاجة يأمرّون بالتمييز، فيجلسون في قبتهم، فيبرز كل قائد في عسكره. فقد استعرض باديس جنوده بضواحي المسيلة في نفس اليوم الذي مات فيه. قد اهتم الزيريون والحمّاديون معا بإنشاء الأساطيل لحماية سواحل البلاد من غارات الأعداء مثل البيزيين والجنوبيين والنورمانديين. أسسوا دور صناعة السفن الحربية والتجارية. وأهم مركز بحري في المغرب الأوسط هو بونة، وقد قام أسطولها بدور هام استطاع أن يمد الأسطول الزيري، وقد أغار غير ما مرة على صردانيا وكورسيكة.

(1) العبر ج 6 ص: 363 سنة 543هـ/1148-1149م

(2) المقدمة ص: 261

النظام القضائي

كان الزيريون لا يدينون بالتبعية للفاطميين في عقائدهم، ونظمهم السياسية والإدارية والحربية فحسب بل في نظامهم القضائي أيضا. إن القضاء وتوابعه من المظالم والحسبة من اختصاص السلطان، يقلد القاضي وصاحب المظالم والمحتسب بسجل يقرأ على منبر الجامع ويشترط فيهم أن يكونوا مخلصين للدولة ولا تجاهلها. فالقاضي يكون من الشيعة إلا إذا لم يكن في المصر من يصلح لهذا الأمر من الشيعيين فيعهد به لبعض السنين وعلى شريطة خضوعهم لأحكام مذهب الشيعة. إن سلطة القاضي كانت موزعة بين القاضي وبين قاضي المظالم والمحتسب. فوظيفة الأول فض المنازعات المرتبطة بالدين. ووظيفة المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام. ووظيفة المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضي والمحتسب.

والقضاء يشرف عليه قاضي الجماعة وهو بمثابة وزير العدل في الوقت الحاضر ويساعده على القيام بمهمته قضاة الأمصار وقضاة الأطراف. ويختص في النظر في قضايا وخصومات أفراد الجيش قاضي الجند.

من اختصاص قاضي الجماعة الإشراف على موارد الأحباس وسجلات الفتاوى الفقهية وعلى الصلاة في أيام الجمعة والأعياد. وإنما الزواج والطلاق فيشرف عليهما قاض خاص من قضاة الأمصار وقضاة الأطراف، وينوب عن القاضي في أمر الميراث صاحب الموارث وفي الفتاوى الفقهية المفتي كالمزاري.

أما المظالم فكان لها ديوان خاص يعرف بديوان المظالم وهو هيئة قضائية عليا، ورئيس هذا الديوان يسمى صاحب المظالم كمحمد بن عبد الله الذي توفي بافريقية سنة 398هـ، وكانت وطأته قد اشتدت على أهل الريب والفساد بالضرب والقتل وقطع الأيدي والأرجل، لا تأخذه فيهم لومة لائم.⁽¹⁾، فسلطة صاحب المظالم أعلى من سلطة القاضي: يقول ابن خلدون: «وهي (خطة المظالم) وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدي، وكأنه يمضي ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه ويكون نظره في البيئات والتقارير واعتماد الإمارات والقرائن وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح واستحلاف الشهود، وذلك أوسع من نظر القاضي»⁽¹⁾ وكانت محكمة المظالم تنعقد برئاسة الأمير أو من ينوب عنه. وكان صاحب المظالم أكثر حرية من القاضي في أحكامه.

أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكانت منظمة بافريقية قبل الفاطميين، وقد حدد سحنون واجبات المحتسب، اختصاصاته عندما مارس مهام الوظيفة في بدأ حياته الإدارية. لما استولى الفاطميون على افريقية والمغرب جعلوا الحسبة من نظمهم، لكنهم وجهوها توجيها خاصا يخدم الاتجاه الاسماعيلي ويحارب المذاهب الأخرى خاصة منها المذهب المالكي. وهكذا كانت في عهد الزيريين.

(1) البيان ج 1 ص: 371

يقوم المحتسب بمقاومة المنكرات: يحمل الناس على احترام مصالح المجتمع ويمنعهم من الغش والتدليس وينظر الموازين والمكايل ويحكم بدم المباني المتداعية ويمنع معلمي الكتاتيب من ضرب الصغار ضرباً مبرحاً. وزيادة على هذا كله له النظر في ضرب العيار، ويعينه على مهمته نواب في الأسواق التي يختص كل منها بنوع خاص من أنواع الاقتصاد.

وما قلناه في نظم الزيريين نقوله في نظم الحمّادين إلا أن الأولى تمارس في إطار المذهب الاسماعيلي والثانية في إطار المذهب السني. ونسجل في الأخير ملاحظة هي أن صلاة الأمير تكون في المسجد الجامع وفي مقصورة خاصة على سنة الملوك والسلاطين.

الحياة الثقافية

دخل الإسلام إلى المغرب وانتشرت الثقافة العربية الإسلامية في حواضره مثل القيروان وطبنة وتلمسان وتيهرت، ويرجع الفضل في ذلك إلى الولاة ثم إلى الأمراء الذين دفعوا بها إلى الأمام دفعا بحيث لم يأت عهد الزيريين والحمّادين إلا وأصبحت البلاد تنافس المشرق والأندلس في جميع مسارب هذه الثقافة الفكري منها والأدبي والعلمي والفني والحضاري.

المذاهب

فتح العرب افريقية والمغرب وضرب الدين بجرانه فيه. اعتنقه البربر وحسن إسلامهم، لكنهم غضبوا حينما رأوا جور وتعسف بعض الولاة وعماهم الذين أرادوا أن يتصرفوا في المغرب على حسب مزاجهم، فاحتقروا البربر، والبربري غيور على حريته وشرفه ومبادئ إسلامه. يريد أن يكون الوالي الممثل للسلطة الحاكمة قدوة للشعب ولا يفرق بين عناصره ويطبق تطبيقا دقيقا ما جاء به القرآن والسنة. وبلغ السيل الزبي لما رأوا من الأمويين والعباسيين ميلهم للعرب، والإسلام قد سوى بين المسلمين. وقد زاد غضبهم حدة حيث ظهرت الخارجية التي تدعو إلى ما يسائر نزعات البربر من ديمقراطية ومساواة، وأخذ أصحابها يثوثها في البربر، ففشت فيهم، وضرب فيها بنو يفرن بسهم وانتحلوها وقاتلوا عليها. وكان أول من جمع لذلك منهم أبو قره صاحب تلمسان، ثم من بعده أبو يزيد مخلد بن كيداد صاحب الحمار وقومه بنو واركو ومرنجيصة. دخلت الشيعة إلى افريقية والمغرب الأوسط، ولكن المذهب الاباضي وقف في طريق انتشار المذهب الباطني. فلا بد، إذن، من القضاء عليه وتعويض كتب المعصومة بكتب عقائد الاسماعيلية. فتنبع العبيديون رؤساء الجمهوريين في المغرب الأوسط وفي تيهرت يقتلونها، فهرب أغلبهم إلى جبال أوراس المنيعه وإلى جبال بني راشد، فحلوا في مدينة تأويلا، وإلى ورجلان في الصحراء والي جبال نفوسة وجرفة، ثم تتبعوا آثار القبائل الجمهورية في أنحاء المغرب.

وكان المالكيون يكرهون الشيعة. وهذا الكره له أسبابه. فإن الإسماعيلية يعتقدون أن الفيض والإبداع شيء مستتر. ولهذه الفكر نتائج بعيدة المدى، إذ أنها تؤدي إلى القول بأن الوحي لم ينقطع عند محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) إذ جاء بعده محمد بن إسماعيل والأئمة من بعده ليكونوا مصدرا للتأويل وليفسروا القرآن تفسيراً باطنياً، فإنهم قد خلعوا على العقل الأول المبدع الأول بعض الأسماء الحسنى، فهم يصفونه بالحياة وهم يقولون إنه الأول والكلمة والعالم الأول والقدرة والقادر الأول، ويجعلونه من صفات الحياة أصل الصفات ومركزها وهي تتقدم في الوجود على غيرها من الصفات وتدور حولها كل الصفات الإضافية.⁽¹⁾ فلهذا اتهم المالكيون بإنكارهم لله وبأنهم استعاضوا عنه بالعقل الأول.

والإسماعيلية يعتقدون بأن الوحي لا ينقطع لأنه فيض من العقل الأول وهو الناطق على العقول لمفارقة الأخرى. فأخذوا يوزعون الأسماء الحسنى على هذه العقول ولهذا عزي للإمام جعفر الصادق⁽²⁾ أنه قال: «نحن آيات الله الكبرى وأسماءه الحسنى وأمثاله العليا وكلماته الصدق والعدل، فمن توسل بخيرنا لم يخط، ومن دعا لغيرنا لم يجب».⁽³⁾ فالإمام عند الإسماعيلية هو الواحد الأحد الفرد الصمد المنتقم الجبار.

(1) راحة العقل للكرماني ص: 13.

(2) بل افترى عليه، فكان المنحرفون يحاولون التمسح به لبث آرائهم الفاسدة حتى ينسفوا الصرح الإسلامي. ولكن كان يقف في وجوههم ويشدد في البراءة منها أقلم يكن حجة الإسلام في أيامه أستاذ المثل أبي حنيفة ومالك؟
(3) الرسالة المذهبة للقاضي النعماني بن محمد ص 30.

والإيمان عندهم هو الباطن. ويشترط فيه المعرفة والتصديق القلبي. وهذه المعرفة قائمة في التأويل الباطني لآيات الكتاب، وقد يعلوها وقفا على الأئمة من أهل بيت الرسول، أي لم يفتحوا أبواب هذه المعرفة للمؤمنين بل جعلوها وقفا على الأئمة. وأتباع الأئمة لابد لهم من المعرفة إلا أنه محذور عليهم أن يعرفوا بأنفسهم واعتمادا على عقلهم أن ينقلوا المعرفة من منبعها الوحيد العارف بحقيقة التأويل الباطني أي الإمام، الأمر الذي يؤدي إلى وجوب إتباع الأئمة والانقياد لهم. فمبادئهم، كما ترى، متطرفة، أغضبت، وأثارت أهل السنة عليهم فناظروهم وساجلوهوا. ولكن، قاسوا من جراء ذلك مخنا لا تنسى فاستشهد عدد عظيم منهم، ولم ينج أحد من أذى الإسماعيلية من أهل المذاهب الأخرى، واعترى المذهب المالكي نوع من الركود نحو نصف قرن حتى كانت مناهضة الرافضية عندما اعتلى المعز بن باديس عرش المملكة 15 محرم سنة 407هـ، وكان يميل إلى أهل السنة. فهجم الناس على أهل الشيعة الروافض فقتلوههم وانتهبوا أموالهم وخربوا ديارهم، وذلك كرد فعل لما قاسوه منهم. فإن سياسة الفاطميين أضرت بالحياة الاجتماعية والدينية إضرارا كبيرا. ورحل الفاطميون إلى مصر وقد تركوا أمر هذه البلاد لبني زيري فترسموا خطاهم في بث الدعوة الإسماعيلية في كل مكان بسطوا فيه نفوذهم. فقد تفانى بلكين أبو الفتوح في الولاء للفاطميين ودخل المغرب الأقصى وتوغل في ربوعه وأقام الدعوة للخليفة الفاطمي على منابر جوامعه⁽¹⁾. وكانت الخطبة للفاطميين تقتنن بنشر المذهب الإسماعيلي بين أهالي البلاد. فقد شجع الصنهاجيون المشاركة بإغداق الأموال عليهم وبتوليتهم المناصب العالية (1) ابن خلكان ج 2 ص 55.

في الدولة، وقد وضحت هذه السياسة وضوحاً تاماً في عهد المنصور بن بلكين، فسياسته كانت نفس السياسة التي انتحاهها الخلفاء الفاطميون. فكان عامل القيروان يعقد في دار الإمارة مجلساً يحضره الدعاة المتضلعون في عقائد المذهب الاسماعيلي ويدعى إلى هذا المجلس العلماء السنيون، فيناظرونهم في فضائل أهل البيت ويرغبونهم في الدخول في مذهبهم بالحسنى. فإذا دخل السني في هذا المذهب أغدقت عليه الأموال، وإذا أبى نكل به وعذب⁽¹⁾.

وكان هؤلاء الدعاة الاسماعيليون يحاضرون في مدارس القيروان ويقربون عقائد مذهبهم إلى أذهان الناس حتى أصبحوا يدخلون فيها أفواجا. فكانوا يناظرون الفقهاء السنيين. فقد روى الدباغ أنهم بعثوا في طلب أبي سعيد وكان من فقهاء القيروان السنيين. فلما دخل المجلس لقيه الداعيان الاسماعيليان أبو طالب وأبو عبد الله وناظراه في فضائل أهل البيت ورغباه في الدخول في المذهب الاسماعيلي. فأبى وقال: «لو نشرتني في اثنين ما فارقت مذهب مالك». وكانت الدولة الفاطمية في مصر ترقب جهود بني زيري في نشر المذهب الاسماعيلي ومحاربة أهل السنة. فكانوا يعينون الدعاة ويسندون إليهم إمامة هذا المذهب. فلا يجد الأمراء الزيريون بدا من الاعتراف بإمامة هؤلاء الدعاة وتأييدهم وشد أزهم وتسخير الجند والشرطة في خدمتهم.

وكان الأمير نفسه يحضر مجالس هؤلاء الدعاة ويستمع إلى محاضراتهم ويرقب جهودهم. فكل من بلكين والمنصور وباديس والمعز

(1) الدباغ: معالم الإيمان جـ 3 ص: 113-115

بدء أيامه عمل على نشر المذهب الاسماعيلي ورفع لوائه ومحاربة أهل السنة وتسخير الجند والشرطة في النيل من فقهاء المالكية والتنكيل بهم.

إلا أن السنين كانوا يعملون في القيروان في نشر دعوتهم سرا، وكانت العامة تفد إلى مساجدهم ومجالسهم للاستزادة من فقه الإمام مالك، ولكن ذلك كان لا يجري في غفلة من الدولة ومن المشاركة الذين كانوا يتربصون الدوائر بأهل السنة. وكان من مظاهر ازدياد نفوذ أهل السنة في عهد باديس أن عهد إلى فقيه سني يدعى أبا الحسن بن أبي الرجال بتربية ابنه المعز. وكان أبو الحسن سنيا مالكي المذهب معروفا بالورع والتقوى والتقشف والتفقه في الدين.

فأخذ يحجب إلى الأمير، ولي العهد، عقائد المذهب السني وبث في قلبه كراهية للمذهب الاسماعيلي وللخلفاء الفاطميين. وكان اختيار هذا الفقيه التيهرتي لتربية ولي العهد فوزا بعيد المدى للمذهب السني في افريقية ظهر أثره في مذبحة الشيعة. فإن هذه المذبحة التي وقعت في عهد المعز بن باديس سنة 407هـ نالت من الإسماعيلية في افريقية فأضعفت شأنهم وفرقت كلمتهم وشتت شملهم في الوقت الذي علت فيه كلمة أهل السنة واشتد ساعدتهم بانضمام الأمير إليهم وتشجيعه إياهم.

ولعل المعز تراجع في موقفه من الشيعة ليخفف من وطأة البدو على مملكته التي تفككت وحدثما وتضعضع عمراتها، ولكن، لات حين مناص. فأذن الشعب لم تكن لندائه صاغية، فتمادى في عدائه للعقائد الشيعية وفي تطهير البلاد منها ومن أصحابها. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، فإن الأعراب لم يستفزههم تثبيت تلك العقائد التي من أجلها

أرسلوا. فأتناهم عنها ما وجدوه من الخطب والخيرات. فراحوا يثبتون أقدامهم طول البلاد وعرضها، فامتزجوا بالبربر وعمدوا إلى مصاهرتهم مما أدى إلى إقبال البربر على تعلم العربية التي ساعدتهم على أن يحصلوا على ثقافة إسلامية أكثر عمقا من ثقافتهم المتواضعة. فأتجهوا إلى كتب الدين والفقه وحاولوا أن يعمقوا ثقافتهم الإسلامية السنية. وهذه الثقافة الإسلامية السنية قد أثرت في العرب الهلاليين أنفسهم، وكان معظمهم من القرامطة. فنبذوا بتوالي الأيام عقائدهم وانتحلوا المذهب المالكي. فالسنة استفحل أمرها واستوعبت الشعب المغربي بأكمله. وكيف لا وهو يحرم المناقشات الكلامية بين الفرق الإسلامية حول مسائل لها خطرها مثل خلق القرآن والقدر وحرية الإرادة وصفات الله ورؤية الله في الآخرة.

ومما يجدر بالذكر أن أهل افريقية الشمالية آثروا المذهب المالكي على المذهب الحنفي الذي كان يزاحمه.

إن المغرب الأوسط قد وقاه الله من الشيعة، فبينما كان ذلك الصراع قائما بينها وبين السنة في افريقية كان المذهب المالكي ضاربا أطنابه في أوساطه. فقد نبذ حماد الشيعة وفرض على رعيته السنة وبقي من خلفه من الأمراء الحماديين عليها إلى أن انقرضت الدولة. ولكن بما أنهم ليسوا قرشيين كانوا يخطبون على المنابر لبني العباس، وبني العباس سنيون. أما تلمسان فمنذ توفي صاحبها أبو قرّة اليفرني الخارجي واستولى عليها الأدارسة أخذ سكانها بتلايب المذهب المالكي. فالأدارسة أنبتوا دعائمه فيها وفي المغرب وقد حكموا رقعتهم حكما سنيا. وقد استقر الإمام الداودي بتلمسان وكان مالكي التزعة وكان

له نفوذ في الوسط التلمساني. ومما زاد المذهب رسوخا فيها استيلاء المرابطين عليها. فكانوا سنيين ويعد قيامهم مرحلة هامة من مراحل انتشار الاسلام السني المالكي في المغرب. ولكنهم اهتموا بفروع الفقه وخاضوا في الخلافات خوضا جعلهم ينسبون كتاب الله وعلوم الحديث والتفسير وذلك لجهلهم بها. فاستحقوا بهذا غضبة الإمام الغزالي وثورته عليهم في كتابه «إحياء علوم الدين».

الحركة العلمية والأدبية

قد أنجبت الجزائر أعلاما في الميدانين العلمي والأدبي في ظل الأغلبة والرستميين والفاطميين. ولم تعقر في العهد الصنهاجي. فقد اشتهر حينئذ من رجال الدين المحدث الكبير أبو بكر بن يحيى بن عبد الملك بن محمد بن يحيى القرشي الجمحي الوهراني. فقال فيه تلميذه أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني: "كان شيخنا هذا متصرفا في العلوم قوي الحفظ حسن الفهم وكان علم الحديث أغلب عليه" لم يكن يخفى على الفقهاء أمثاله ما كان يدور بين الشيعة والمالكيين في افريقية، فلم يزداهم ذلك إلا حماسة وتشبثا بمذهبهم. فظل رائدهم في أحكام الكتاب والسنة. توفي الجمحي الوهراني في سنة 431هـ/1039م.

وكان يعاصره عبد الملك مروان بن علي الأسد القطاني البوني. سكن حاضرة قرطبة. فتعاطى الفنون الدينية ولا سيما الحديث. فأراد أن ينمي معارفه. فقصد المشرق. ثم عاد إلى بونة وتفرغ إلى لتدريس وتوفي بها سنة 439هـ/1047م. لم يكن باع الجزائريين في العلوم اللسانية قصيرا في ذلك الوقت. فقد تخصص أبو القاسم يوسف بن

علي جبارة بن محمد بن عقيل الهندي البسكري في علوم اللغة والقراءات. ولد سنة 403هـ واتجه إلى المغرب وقصد المشرق. وصل خبره إلى الوزير نظام الملك سنة 458هـ، فاستدعاه إلى الإقراء بمدرسة نيسابور وقرره أستاذا فيها. فجلس للتدريس ولم يفارقها حتى توفي سنة 465، وقد خلف تآليف.

والحسن بن علي بن طريف التيهري أولع من صغره بالعلم. تخرج على أئمة الأندلس وكبار علمائها في القرن الخامس الهجري. فأصبح من أئمة عصره في النحو واللغة وسيظهر بعده بقليل ابن معط صاحب الألفية النحوية التي عمل ابن مالك ألفيته على مثالها. توفي الحسن بن علي سنة 501هـ/1 تموز 1108م. أما ثابو محمد عبد الله بن يونس بن طلحة بن عمرون الوهراني فقد اشتهر في العلوم وكلف بها من صباه، فتبحر في الرياضيات وتضلع في الطب. سافر إلى الأندلس في تجارة له سنة 429هـ/1037م وفتنته إشبيلية، فسكنها.

وهناك فئة أخرى من الجزائريين جلبتهم سمعة القيروان في الميدان الثقافي وكانت تزخر بالعلماء والأدباء. فقصدوها وكان في طليعتهم ابن أبي الرجال الشيباني التاهري. فكان عالما أدبيا. له كتاب في أحكام النجوم قد نقله إلى الاسبانية يهوذا بن موسى سنة 1256م، ثم نقله من الاسبانية إلى اللاتينية بطرس رجوى وإيجيد يوس التبالدي، ومن آثاره العلمية أيضا أرجوزة في الأحكام الفلكية طبعت في آخر كفاية الطالب في الأحكام الفلكية لغزال موسى وشرحها أحمد الحسن بن قنفذ القسنطيني سنة 1313م.

وتعرف حياة ابن أبي الرجال الأدبية عن ابن رشيق المسيلي وقد رَوَى لنا عنه أشعارا كثيرة تجدها في كتابنا «تأريخ الأدب الجزائري». كان يصنع الشعر فصاحة ولسنا وافتخارا بنفسه وحسبه وتحليدا لمآثر قومه ولم يصنعه رغبة ولا رهبة ولا مدحا ولا هجاء. فكان أحد دهاة السياسة الواردين على القيروان من تيهرت. قد اتصل بباديس، فكلفه بتربية ابنه المعز. ويذكر المؤرخون أن هذا الرجل هو الذي لقن المعز مذهب مالك وكرهه في مذهب الشيعة، الأمر الذي دفعه لبند طاعة الفاطميين وإعلان استقلاله عنهم بعد ذلك.

فقد أثر في حياة ابن رشيق المسيلي في نواحي ثقافته واتجاهه كما أثر فيها طبعاً شيوخ آخرون فإن ابن رشيق كان يستوعب كثيراً من ألوان النشاط الثقافي الحيوي الذي كان يقوم من حوله في القيروان وينتفع بما كان قبله. خلف كتباً كثيرة أهمها العمدة التي قال فيها ابن خلدون: «هو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة ولم يكتب أحد قبله ولا بعده مثله». لقد خلدت ذكره واعتنى الأدباء بها في عصره وبعده اعتناء كبيراً وأعجبوا بمباحثه في النقد الأدبي والبلاغة».

وكانت تعيش في هذه البيئة الزاخرة بالعلماء والأدباء شخصية جزائرية أخرى وكان خطرهما كبيراً في الأدب، وهذه الشخصية تتمثل في عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي. ولد عبد الكريم بالمحمدية التي تسمى اليوم المسيلة من مقاطعة الزاب الجزائرية، وتلقى دراسته الأولى في تلك البلدة. ثم ارتحل إلى القيروان حيث اكتمل ثقافته الواسعة في علم اللسان والأوزان، وأصبح بعد حين كاتباً حاذقاً وشاعراً بارعاً وذا مكانة واسعة في النقد. وقد شاع صيته في هذا اللون من الأدب بفضل

كتابه الممتع الذي يوري فيه رأيه في الشعر والشعراء ويوضح أساليب النقد ومناحيه، فتأثر به مواطنه الحسن بن رشيق وأخذ بآرائه في كثير من الأحيان. فقرأ العمدة يتضح لك ذلك. وتأثر كذلك الحصري وابن شرف. لقد أعانت عبد الكريم تلك البيئة على الحصول على خصوصية كبيرة في الأدب. وقد اتصل بأولي الأمر، فكتب لتميم بن المعز بن باديس. وله قصائد طوال منها القصيدة التي مدح بها المعز بن باديس مستهلا فيها بوصف دار البحر بالمنصورية ويقول فيها:

يارب فتیان صدق رحت بينهم والشمس كالدنف المعشوق في الأفق
مرض أصائلها حسرى شمائلها تروح الغصن المطور في اللورق

وروى له صاحب زهر الآداب أبياتا في رثاء عيسى بن خلف صاحب خراج المغرب وقد تناول دواء كان سبب حتفه. وروى له ابن رشيق في عمدته مقطوعة وقد وصف فيها فيلا.

ومن معاصريه الجزائريين الحسن بن محمد التميمي النحوي اللغوي النسابة... التاهرتي أصلا القيرواني طلبا للأدب، وأبو محمد عبد الله بن محمد التنوخي المشهور بابن قاضي ميلة. ذكره ابن بسام الأندلسي في ذخيرته والعمرى في مسالكة وابن خلكان في وفياته وابن رشيق في عمدته. فقال فيه هذا: «شاعر لسن مقتدر يؤثر الاستعارة ويكثر الزجر والعيافة ويسلك طريق ابن أبي ربيعة وأصحابه في نظم الأقوال والحكايات».

وكانت شخصية أخرى عاصرت ذا وأولئك. وتلك الشخصية تتجلى في ابن الربيب الحسن بن محمد بن أحمد التميمي التيهرتي نسبه

إلى تيهرت ويدعى هو الآخر القيرواني لقضائه معظم حياته بالقيروان طلبا للعلم والأدب. فلم يلبث أن صار قوي الكلام. فإن رسالته إلى ابن حزم الأندلسي لأكبر شاهد على تفوقه في النشر الفني.

وتعاطى صناعة القريض، فأصبح شاعرا بارعا تشهد بحذقه وقوته تلك القصيدة التي قالها في محمد بن أبي العرب. وصفه ابن رشيق بأنه بلغ نهاية الأدب وعلم النسب. وكان قوي الكلام يتكلفه بعض التكليف. وفي الذخيرة يورد له ابن بسام الرسالة التي بعث بها إلى أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم والتي وصف فيها تقصير أدباء الأندلس وتفريطهم في حق أثارهم وفضائلهم ومآثر بلادهم. فهذه الرسالة تدل على أن الجزائريين كانوا على بينة من أخبار الملوك والأمراء والكتاب والوزراء والقضاة والعلماء في الديار الأندلسية، فليس بين البلدين إلا «روحة راكب أو دلجة قارب»⁽¹⁾ وتدل أيضا على ما وصل إليه الحقل الأدبي من الخصوبة في إفريقية، وقد شارك الجزائريون في هذه الخصوبة من جميع جوانبها إلى حد بعيد. فكان منهم الشاعر والكاتب والناقد. ولعل أكبر ناقد في القرن الخامس الهجري ابن رشيق المسيلي الجزائري.

فإن العرب عرفوا النقد الأدبي كغيره من ألوان المعرفة منذ الجاهلية، وقد مر بأطوار شتى في المشرق والمغرب، وكانت الأصداء النقدية تتلاقى في البيئة القيروانية التي كان يعيش فيها ابن رشيق فتمتزج بما فيها من أصوات. كان فيها اللغويون والعروضيون، كان لهم رأيهم في الشعر وفي اللغة والغريب والمحسنات اللفظية والبلاغة، وكان فيها

(1) الحسن بن محمد بن أحمد بن الربيب: انظر الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص: 113 وإلى تاريخ الأدب الجزائري ص: 96 (ط2) (2) عبد الرحمان ياغي: حياة القيروان ص: 400

النقدة والأدباء والشعراء... ولكن طريقهم في النقد الأدبي تتناول أخبارا نقدية متناثرة وأحكاما على الأدب متفرقة وآراء في الشعر جزئية غير مقتضبة إلى أن يجيء ابن رشيق فيختص في نقد الشعر عامة ويوب البحت ويجمع له عدته وينظم منهجه، بحث منهجي علمي. والجدير بالذكر أن هؤلاء المغاربة المقيمين بالقيروان لم يقولوا شعرا في الحمّادين، على ما نعلم، فاستأثر بهم بلاط الزيريين، فراحوا يتغنون بمدحهم وينشدون مفاخرهم، فإن الجو السياسي لم يكن دائما صافيا بين الدولتين الشقيقتين.

إلا أن هذه الحركة الفكرية، التي امتاز بها عهد المعز والتي لم تعرف مثلها إفريقية من قبل، لم يطل أمدّها. فقد فسد الأمر بين المعز وبين الأعراب، فنقضوا الصلح المبرم سنة 442هـ بينهم وأشعلوا نار الحرب. فدارت الدائرة على المعز. فدخل القيروان ولكنهم حاصروها بمجموعهم. فلم ير الأمير بدا من الانتقال إلى المهدية الحصينة، فدخل العرب القيروان ومن انضم إليهم من جيش المعز. فخرّبوا وسلبوا ونهبوا ما وجدوه فيها وفي صيرة. فتشتت السكان وهاموا على وجوههم، وتفرقت مجامع العلم والأدب، وكان حظ المغرب من هؤلاء الهاربين كبيرا. فقصّدوا القلعة ومدنا أخرى. فنونية ابن رشيق تحدّثنا عن حالة القيروان في أيام عزها وعما صارت إليه من خوف وذعر وذلة وهوان.

فامتلاّت عاصمة الحمّادين بالعلماء والأدباء والفنانين الماهرين. فنهضت الثقافة بها نهضة كبيرة، فبلغت أوج عظمتها. وكان وقتئذ على رأسها الناصر بن علناس. كان هذا العاهل محبا للعلم مصطفىا أهله، فتقاطر على القلعة العلماء والأدباء منهم أبو الفضل بن النحوي.

أصله من توزر. وأخذ العلم بافريقية عن أئمة كبار مثل اللخمي والمازري وابن زكريا الشقراطسي وعبد الجليل الربيعي.

وكان ميالا إلى النظر والاجتهاد. قصد المغرب الأقصى فدخل سجلماسة وقرأ بها أصول الدين وأصول الفقه. فكان متأثرا بآراء الغزالي ييث كتبه أينما حل ولاسيما الإحياء. لقد جاء في البستان⁽¹⁾ أن أبا الفضل انتسخ هذا الكتاب وجعله ثلاثين جزءا. فإذا دخل شهر رمضان قرأ في كل يوم منه جزءا، وكان يقول: «وددت أني لم أنظر في عمري سوى هذا الكتاب». فوقع على أبي الفضل إقبال ما جعل ابن بسام أحد رؤساء البلد يقول: «هذا يريد أن يدخل علوما لا نعرفها». وأمر بإخراجه من المسجد. فاضطر أبو الفضل إلى أن ينتقل من سجلماسة إلى فاس. فتصدر هناك للإقراء. فضايقه قاضيها ابن دبوس. فقرر أن يتوجه إلى القلعة. فدخلها سنة 494هـ وانتفعوا من علمه. ومن تلاميذه ابن الرمامة رئيس المفتين بفاس، والفقيه أبو عمران الصنهاجي وأبو بكر بن المخولف وأخوه محمد وغيرهم كلهم من المغرب الأوسط.

وكان أبو الفضل يحسن قرض الشعر، وقد برع في نوع منه، وقلده فيه من أتى بعده وهو شعر التوسلات والابتهالات، والمنفرجة خلدت ذكره، قد اعتنى بها الأدباء، تجدها في عنوان الدراية للغبريني ص: 194. اليك مطلعها:

اشتدّي ازمة تنفرجي قد آذن ليلىك بالبلج

(1) ص. 301.

وبقي ابن النحوي بالقلعة أكثر من 13 سنة قضاها كلها في العبادة والتدريس محبوبا من الناس محترما من لدن أمراء بني حماد إلى أن توفي فيها رحمه الله سنة 503هـ.

ومن شعراء القيروان الذين قصدوا الناصر ابن الكفاه الذي قال فيه:

قالت سعاد وقد زمت ركائبها مهلا عليك فأنت الرائح الغادي
فقلت: تالله لا أنفك ذا سفر تجري بي الفلك أو يحدو بي الحادي
حتى أقبل ترب الزر منتصرا بالناصر بن علناس بن حمادي

أسس الناصر بجاية، وأقام بها من أسباب الحضارة ما لم ير مثله شرقا ولا غربا. أسس المدارس والمعاهد العلمية وأمر أن توزع المنح على العباقرة والمبرزين في كل فن. فازدحم على تلك المعاهد العلماء والحكماء والأطباء والأدباء وأهل الفنون الرياضية والهندسية، قال ابن خلدون: «ظهر عند الحماديين من العلماء والشعراء والكتاب والمؤرخين والأطباء والرياضيين وغيرهم ظهوروا لا عهد لجزائر به من قبل».

وأمّ بجاية والعواصم الأخرى الكثير من علماء الأندلس والشام ومصر والحجاز والعراق والعجم. فاستفادت الجزائر من علومهم وثقافتهم. وقد بلغ إقبال الناس على العلم يومئذ أنه كان يجتمع على المدرس الواحد ما يربو على مائة طالب، ولا فرق في ذلك بين المسلم وغيره. فترى المدرس يتلقى طلبته على اختلاف مللهم وأجناسهم بصدر رحب تأدية لأمانة العلم.⁽¹⁾ قال شارل سينيوبوس في

(1) تاريخ عبد الرحمان الجليلي ج1 ص329.

كتابه تأريخ الحضارة. كان أهل بيزا الايطاليون يتزلون مدينة بجاية في الجزائر، فتعلموا منها صنع الشمع، ومنها نقلوه إلى بلادهم وإلى أوروبا، وبجاية تعلم الرياضي المهندس ليورنار فييناتشيو⁽¹⁾ العلوم الرياضية وخاصة منها علم الجبر والمقابلة وأدخلها إلى أوروبا التي كانت خالية وقتئذ من العلم والعلماء.

ويمتاز ذلك العصر بحرية الأديان واحترام العقائد بالغرب الأوسط أكثر من أي وقت مضى. كانت بالمدن الحمّادية طوائف مسيحية، إما من بقايا الروم والرومان أو من البربر الذين فقدوا جنسيتهم ونسوا أصلهم أو من أوريبيين نزحوا إلى المغرب أو من أوروبا. فكان الحمّاديون يحسنون معاملتهم ويحفظون حقوقهم على أقليتهم. وكان لبابوات روما علاقات مع الحمّادين، ولا سيما مع الناصر بن علناس. أسس مسيحيو القلعة كنيسة بحمي جراوة يطل عليها قصر المنار، وقسيسهم يومئذ عزون، وتسميه العامة الخليفة أي خليفة المسيح. ابتنى لنفسه دارا حذاء الكنيسة، وقضى نحبه بالقلعة. ولما انتقل الملك الناصر إلى غاصمته الجديدة، انتقل إثره الكثير من السكان من بينهم النصارى. فاهتم بأمر هؤلاء وأبى إلا أن يكون لهم قسيسهم. فاقترح عليه أرشفاك قرطاجة القسيس سرفاند. فصادق عليه الناصر.

لما سافر سرفاند إلى رومة أعطاه الناصر رسالة شخصية ودية مصحوبة بهدايا إلى البابا فريوار السابع (Grégoire 7). واشترى جميع الأسرى الذين عثر عليهم بمملكته وأرسلهم إلى البابا واعدا إياه بعق كل أسير مسيحي يعثر عليه من بعد. فلما عاد سرفاند إلى المغرب

(1) Fibenaccis

أرسل معه كبار رجال الكنيسة رسائل شكر وثناء إلى الناصر. وبعث له رئيس الكنيسة أيضا رسالة خاصة سنة 469هـ/1076م ذكرها الأستاذ قلفان في كتابه المغرب الأوسط في عهد الزييريين. إليك نص تلك الرسالة التي تعد أهم رسالة من بابوات روما إلى ملوك المغرب.

"من فريوار ايفيك عبد عبيد الله إلى الناصر ملك موريطانية السطيفية بافريقية سلاما ورضا الكنيسة....."

كتبت لنا سيادتكم النبيلة هذه السنة تطلب منا أن نعين القسيس سرفاند ايفيك على مقتضى الشريعة النصرانية، الأمر الذي بادرنا بتنفيذه نظرا لعدل طلبكم. وقد أرسلتم إلينا (هذه المناسبة) هدايا، وقد أفديتم المسيحيين الذين كانوا أسرى بمملكتمكم تقديرا لبطرس وحبا لنا، وقد وعدتمونا بعث كل أسير مسيحي يعثر عليه من بعد. فإن الخالق، الذي لولاه لما قمنا بأي شيء، قد ألهمكم هذا الحلم وقاد قلبكم للقيام بهذا العمل الكريم.

إن الله العزيز، الذي يريد أن ينقذ جميع الناس وأن لا يهلك أحدا، لا يرضيه شيء أكثر من محبة الإنسان لأخيه بعد الحب الذي يجب على هذا الإنسان نحو نفسه ومن العمل بهذه الحكمة: عامل غيرك بما تريد أن تعامل به.

ويجب عليكم وعلينا أن نفعل الخير أكثر من الأمم الأخرى حيث إننا نعبد إلهنا واحدا على طرق مختلفة وأن نحمده ونقدسه كل يوم، فإنه خالق الأجيال ورب العالمين، فإن أعيان مدينة روما، عند سماعهم منا بصنيعكم الذي ألهمكم الله إياه، أعجبوا بسمو عواطفكم

وشادوا بذكركم. فإن اثنين منهم، نديمنا البريك وسنسيوس اللذين تربيا معنا منذ طفولتهما بقصر روما، يرغبان رغبة شديدة في أن تكون بينكم وبينهما صداقة وتعاون ويسعدهما أن يجدياكم نفعا في هذه البلاد. فإنهما يبعثان لكم بعض رجالهم يحدثونكم عن تقدير سادقكم لما قمتم به ولجلالتكم وعن سرورهم بخدمتكم هنا. فنوصي فخامتكم بهم حبا وخيرا، ونسأل عطفكم عليهم ورعايتكم لهم بقدر ما يكون عطفنا لكم واعتناؤنا بما يهمكم.

والله تعالى يشهد أنه هو الملهم لهذه الصداقة التي نعدكم بها، وكم نتمنى لكم من حفظ ومجد في هذه الدنيا وفي الآخرة. نسأله من صميم فؤادنا أن سنفضلكم، بعد عمر مديد، في نعيم القديس إبراهيم".

فهذه الرسالة تعد أهم رسالة من بابوات روما إلى ملوك المغرب تدل على العلاقات الودية بين المسلمين والمسيحيين وعلى تسامح ملوك بني حماد الديني، فلا شك أن هذا التسامح كان يعم اليهود أيضا. فكانوا يعيشون مطمئنين في ظلال هذه الدولة الواعية.

تلت هجرة القيروانيين هجرة أخرى كانت من الأندلس على إثر قيام البربر فيها بعدة فتن قضت على الزهراء⁽¹⁾ والزاهرة⁽²⁾ وشتتت القرطبيين بالخصوص. فهاجر كثير منهم إلى المغرب الأوسط وبجاية بالذات.

وقد خلع يوسف بن تاشفين ملوك الطوائف عن ممالكهم. ومن جملة هؤلاء عز الدولة الواثق أبو محمد عبد الله بن المعتصم بن صالح،

(1) شيدها عبد الرحمان الناصر.

(2) شيدها المنصور بن أبي عامر

فارتحل هذا الأمير بأهله وماله من الأندلس إلى المغرب، فترل على المنصور ملك بجاية فأكرمه، زاره أثناء مقامه ببجاية الشاعر الاندلسي ابن اللبانة، فقال «ما علمت جور الدهر حتى اجتمعت ببجاية مع عز الدولة ابن المعتصم ابن صالح. فإنني رأيت منه خير من يجتمع به كأنه لم يخلقه الله إلا للملك والرئاسة مع حفظه لفنون الأدب والتواريخ وحسن استماعه واسماعه ورقة طباعه ونظافة ذهنه»⁽¹⁾ ولعل ما قاله فيه ابن اللبانة هو نفس ما دار بخلد المنصور الحمّادي، فاقطعه مدينة دلس ونواحيها، فأصبح ذا سيادة وحكم فيها، فأمكنه أن ينسى بذلك ما ألم به من حزن لفراق بلاده وعزه فيها، وكان عز الدولة أدبيا أثبت له التاريخ شعرا رقيقا، فأليك مقطوعة منه تتضمن شكواه من الدهر وتصور غربته وفقده سلطانه ونفوذه.

لك الحمد بعد الملك أصبح خاملا بأرض اغتراب أمر ولا أجلي
وقد اصدأت فيها الهوادة منصلي كما نسيت ركن الجياد بها رجلي
ولا مسمعي يصغي لنغمة شاعر وكفي لا تمتد يوما إلى بذل
طريدا شريدا لا أومل رجعه إلى موطن بوعدت عنه ولا أهل
وقد كنت متبوعا فأمسيت تابعاً لدى معشر ليسوا بجنسي ولا شكلي
يخوضون فيها لا أرى فيه خائضاً وقبلهم قد اقصدت مقتل النبيل
وقولي مسموع وفعلي محكم وها أنا لا قولي يجوز إلا فعلي
وقد كنت غرا بالزمان وصرفه فقد بان قدر العز عندي والذل
عزاودك، كم ليث يصاد بغيلة وصبح من بعد النشاط لفي حبل

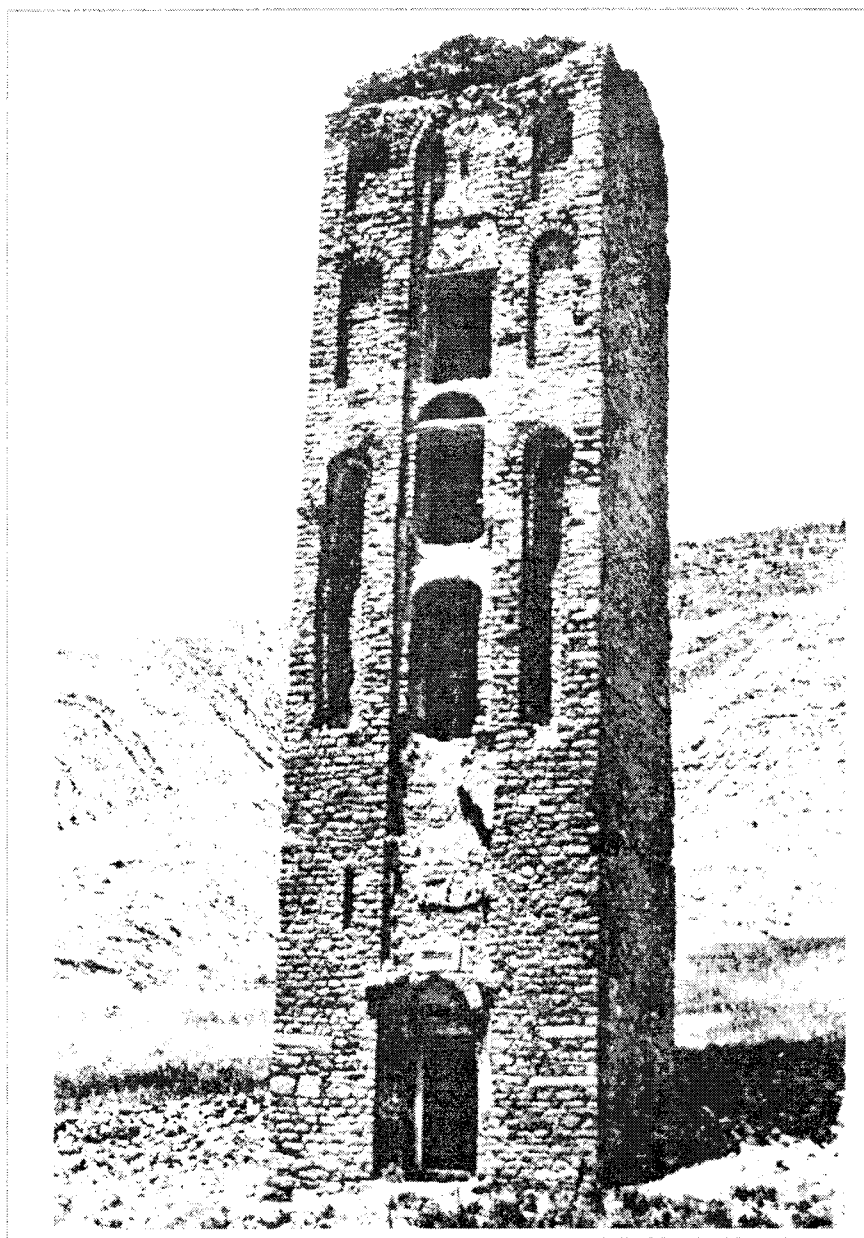
(1) نفح الطيب ج 4 ص: 34

ولعله قد قال هذه الأبيات مدة مقامه ببجاية، وقد استوحش من استقراره بها قبل أن يتربع علي كرسي ولايته الصغيرة دلس. وقد أصبحت هذه المدينة بفضل عمل الأندلسيين الذين تقاطروا عليها، مركزا ثريا، فكان فيها كما يقول الإدريسي: «الديار والقصور والمتزهات» وازدهرت الفلاحة حتى تمكن أهلها من أن يرسلوا من غلاتها إلى غيرها من المدن، وهذا الأمير وهؤلاء الأندلسيون قد جاؤا بثقافتهم وعوائدهم، وقد اتصلوا بأهل البلد، فأثروا وتأثروا والهجرة الثالثة كانت من صقلية حيث تسلط عليها النورماند، فقد حينئذ المسلمون سلطانهم السياسي في تلك الربوع.

لكن الملك روجر اظهر عقلا راجحا، رأى أن التسامح وحده هو الذي يكفل الحكم الصالح للجميع، وكانت الطبقة الارستقراطية التي تتمثل في أعيان الأئمة وطينة القوم من رجال العلم والفكر والصناعة، مؤلفة خاصة من المسلمين، فبذل لهم حماية بصفة فعالة⁽¹⁾ وقد سلك خلفاؤه خطته، وقد قال لشوط: «لقد دام الرقي المادي العربي والحضارة الأدبية العربية أمدا حتي عصر فريديريك، ولكن البابا أخذ يستثير العامة ورجال الدين وأوربا كلها ضد هذا العاهل، فثارت ثورة التعصب الكنيسي فأخذ رجال الكهنوت يمعنون في تتبع «الكفار»⁽²⁾ والتنكيل بهم وإحراقهم ونال المسلمون من ذلك جانبا عظيما، فأصبح حينئذ المسلمون يغادرون جزيرة صقلية جماعات وأفرادا كلما وجدوا للخروج سبيلا. فلم يبق منهم هنالك إلا الأقل

(1) توفيق المدني : المسلمون في جزيرة صقلية ص 191

(2) الذين لا يتبعون المسيحية



يعيشون في ذل ومسكنة⁽¹⁾ وبلغ السيل الزبي عندما مات صاحب افريقية⁽²⁾ أبو زكريا بن أبي محمد الذي كان قد أبرم صلحا مع ملك صقلية على أن يعيش مسلمو الجزيرة مطمئنين لا خوف عليهم ولا على أموالهم، تكالب النصارى على المسلمين وأركبواهم البحر واجتازوا بهم إلى أرض افريقية.

وقد نبغ في الجزيرة رجال كثيرون خلدوا على صفحات التاريخ اسمها منهم المازري وابن ظفر وابن القطاع وابن حمديس، ويهمنا من هؤلاء هذا الأخير، فإنه سكن المغرب، الأوسط وحظي عند ملوكها وأمرائها، ولد ابن حمديس في مدينة سرقوسة من صقلية سنة 446هـ، فلم تمض على ابن حمديس أيام الشباب حتي استولي النورماند على صقلية فرأى مصرع قومه ومصائبهم، وقد صور لنا ذلك في شعره فقد نزع عنها، إذ لم يستطع البقاء تحت حكم المسيحيين، فقصده الاندلس واتصل بأمر اشبيلية المعتمد بن عباد، فمدحه ونال جوائز، وعاش في ظلالة الوارفة إلى أن اعتقل المعتمد وذهبوا به إلى اغمات بالمغرب الأقصى فتبعه ابن حمديس، ثم توجه إلى المهديّة، عاصمة افريقية- حينئذ - ومن ثمّ دخل المغرب الأوسط اتصل بكرامة بن المنصور الحمّادي والي بونة ثم واصل طريقه إلى العاصمة، فاستقبله المنصور بحفاوة وأغدق عليه صلاته، السنية فمدحه بشعر جيد ووصف منشأته الفنية. أصغ اليه سمعك وهو يصف دارا بناها الملك المنصور ببجاية.

(1) توفيق المدني: المسلمون في جزيرة صقلية ص 206

(2) سنة 647هـ/ 1260م

اعمر بقصر الملك ناديك الذي أضحى يجديك بيته معمورا
 قصر لو أنك قد كحلت بنوره أعمى لعاد الى المقام بصيرا
 واشتق من معنى الجنان نسيمه فكاد يحدث بالعظام نشورا
 نسي الصبيح مع الفصيح بذكره وسما، ففاق خورنقا وسديرا
 لوان بالايوان قوبل حسنه ما كان شيئا عنده مذكورا
 أعيت مصانعه علي الفرس الألى رفعوا البناء وأحكموا التدويرا
 ومضت على الروم الدهور وما بنوا للموكهم شبيها له ونظيرا
 أذكرتنا الفردوس حين آريتنا غرفا رفعت بناءها وقصورا
 فالمحسنون تزيدوا أعمالهم ورجوا بذلك جنة وحريرا
 والمذنبون هدوا الصراط وكفرت حسناهم لذنوبهم تكفيرا
 فلك من الأفلاك إلا أنسه حقر البدور فأطلع المنصورا
 أبصرته فرأيت أبداع منظـر ثم انتيت بناظري محسورا
 فظننت أني حالم في جنـة لما رأيت الملك فيها كـبيرا
 وإذا الولا ئد فتحت أبوابه جعلت ترحب بالعفاة صـيرا
 عضت علي حلقائهم ضراغـم فقرت بها أفواهاها تكبـيرا
 فكأنها لبدت لتهصر عندها من لم يكن بدخولها مأـمورا
 تجري الخواطر مطلقات اعـنة فيه فتكبو عن مداه قصـورا
 بمرخم الساحات تحسب أنـه فرش المها وتوشح الكافـورا
 ومحصب بالدر تحسب تربـة مسكا تضوع نشوة وعـبـيرا
 تستخلف الأبصار منه إذا أتى صبحا على غسق الظلام منـيرا

ذكر المقرئ هذه القصيدة في نفحه⁽¹⁾، وأورد لنا أخرى لا تقل
 روعة عن الأولى يصف فيها بركة عليها أشجار من ذهب ترمي فروعها
 المياه، وعلى حافاتها أسود تقذف المياه من أفواهاها، فأنصت إليها:

(1) نفح الطيب جـ 2 ص: 37

وضراغم سكنت عرين رئاسـة
فكأنما غشى النضار جسمها
أسد كأن سكوتهما متحـرك
وتذكرت فتكاتهما فكأنما
وتخالها، والشمس تجلجلولها
فكأنما سلت سيوف جـداول
وكأنما نسج النسيم لـماتـة
ومديعة النمرات تعبر نحوها
شجيرة ذهبية نزعـت الى
قد صولجت أغصانها فكأنما
وكأنما تأبى لوقع طيـرها
من كل واقعة ترى منقارها
خرس تعد من الفصاح فإن شـدت
وكأنما في تلك غصن فضة
وتريك في الصهر يج موقع قطرها
ضحكت محاسنه إليك كأنما
ومصفح الأبواب تبرا نظـروا
تبد ومسامير النضار كما علـت
خلعت عليه غلائلا ورسيـة
وإذا نظرت إلى غرائب سقفه
وعجبت من خطاف عسجده التي
وضعت به صناعاتها أقلامها
وكأنما للشمس فيه ليقـة
وكأنما باللا زورد مخـرم
وكأنما وشوا عليه مـلاءة

تركت خـرير المافيه زئـيرا
وأذاب في أفواهها البلـورا
في النفس لو وجدت هناك منيرا
أقعت على أدبارها لتشـورا
نارا وألسنها اللواحس نـورا
ذابت بلا نار فعدن غديـرا
درعا فقدر سردها تقديـرا
عيناى بحر عجائب مسجـورا
سحر يؤثر في النهى تأثـيرا
قنصت بمن من الفضاء طيـورا
أن تستقل بنهضها وتطـرا
ماء كسلسال اللجي ن نمـيرا
جعلت تغرد بالمياه صفـيرا
لانت، فأرسل خيطها مجرورا
فوق الزبرجد لؤلؤا منشـورا
جعلت لها زهر النجوم ثغـورا
بالنقش فوق شكوله تنظـيرا
تلك النهود من الحسان صدورا
شمس ترد الطرف عنه حسـيرا
أبصرت روضا في السماء نضـيرا
حامت لتبني في ذراه وكـورا
فأرتك كل طريدة تصويـرا
مشقوا بها الترويق والتشجـيرا
بالخط في ورق السماء سـطورا
تركوا مكان وشاحها مقصـورا

قال المقرئ: ثم مدح المنصور بعد ذلك وختم القصيدة بقوله:

يا ملك الأرض الذي أضحى له
ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصور للملوك فقدمت
واستوجبت بقصورك التأخيرا
فعمرتها وملكك كل رئاسة
منها ودمرت العدا تدميرا

فابن حمديس يظهر في كلتا القصيدتين وصافا حاذقا بل فنانا
ماهرا، حيث نلمس في شعره عذوبة اللفظ وروعة الصورة وحلاوة
الموسيقى. فستان ما بين نزعتة ونزعة ابن هانيء. فابن حمديس سني
فيقول:

يا ملك الأرض الذي أضحى له
ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصور للملوك قدمت
واستوجبت بقصورك التأخيرا
فعمرتها وملكك كل رئاسة
منها ودمرت العدا تدميرا

والآخر شيعي فيقول في جعفر بن علي صاحب المسيلة:
ما شئت لا ما شاءت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار

فقد أعجب ابن حمديس المقام في بجاية، معقل الثقافة حينذاك، فاستوطنها نهائيا إلى أن توفي سنة 528 هـ/1132م معززا مكرما من طرف المنصور ومن لدن من جاء بعده من الملوك. وغادر صقلية أبو عبد الله محمد بن أبي فرج بن فرج المازري المعروف بالذكي كما أشرنا إلى ذلك من قبل. ولد بصقلية سنة 427هـ وكان من كبار العلماء مبرزا في علوم اللغة والنحو وسائر فنون الأدب. ورد على قلعة بني حماد، ولكنه لم يبق فيها طويلا فإنه كان يحب الأسفار، فرحل إلى المشرق، وساح جهات العراق وفارس حتى وصل إلى الهند. وقع له مخاصمات مع جماعة من الأئمة ومات متسوحا بأصبحان سنة 515 هـ.

وأبو زيد عبد الرحمان بن علي بن محمد القرشي المعروف بابن الحجري هو الآخر غادر صقلية، وكان فقيها نحويا لغويا أحد الأفاضل المنتصيين للأستاذية والإقراء دخل تونس واتصل بمشائخ هناك كأبي زيد عبد الرحمان إسماعيل بن الجداد التونسي، ومن ثم دخل إلى بجاية فأخذ عنه العلم فضلاء كثيرون مثل أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الوغليسي، وقد أجاز له. فالحماديون كانوا لا يألون جهدا في تقريب العلماء والأدباء الذين تلهج ألسنتهم بالمدح الذي يجدون فيه متاعا فقال فيهم يوسف بن مبارك:

هناك النصر ونيل النجاح

في يومكم هذا بسمر الرماح

فأنتم الصيد الكرام الألى

شادوا العلا بالنائل المستماح

ما منكم الا همام حوى
 مناقبا جلى ومجدا صراح
 لا ترهبون الدهر أعداءكم
 وتمنعون العرض من أن يباح
 وتبذلون الرغد يوم الندى
 وتسعون الحرب يوم الكفاح
 وترفعون الجار فوق السهى
 وتكرمون الضيف مهما استباح
 لازلتم تجنون زهر العلا
 في معرض العز بحد الصفاح

وكان يحاضر هذا الشاعر على بن الزيتوني. فقال العماد عن ابن
 بشرون:

«انه شاعر المغرب الأوسط وأديبه وألمعيه وأرييه، وهو صاحب
 توشيح وتوشيح وتقصيد وتقطيع، وقد صار لشعره غناء». ذكر لنا ابن
 بشرون هذا النموذج من شعره.

نماه عن محارمه نمناه	وقربه لخالقه تقناه
وقال الله ليس سواي رب	ولا لشريعة أحد سواه
هو البر العطوف على البرايا	وبالأيتام يرحم من أتاه
وسد به عرى الإسلام حتى	رأينا النجاح وانعقدت عراه

أَمِينٌ عَدْلُهُ غَمْرُ الْبِرَايَا	فَمَا يَخْشَى عَلَى أَحَدٍ قَضَاهُ
مَسِيحٌ خَطْوُهُ فِي كُلِّ عِلْمٍ	وَمَنْ ذَا يَقْتَضِي أَبَدًا خَطَاهُ
أَبِي شَأْنُهُ طَلَبُ الْمَعَالِي	وَمَنْ يَحْصِي ثَنَاهُ أَوْ نَدَاهُ
لَقَدْ ظَفَرَتْ يَدُ عَلَقَتِ نَدَاهُ	وَمَنْ نَوَاهُ قَدْ ثَبِتَ يَدَاهُ

ومن معاصري علي بن الزيتوني ذلك الطبيب الشاعر، ابن أبي المليح، خرج الأمير، عبد الله بن عبد العزيز الحمّادي، في حفل عظيم صباح عيد الأضحى إلى المصلّى. فكان ذلك فرصة سانحة لهذا الأديب لنيل عطف الأمير، فرفح إليه قصيدة يمدحه فيها:

وَجَالَتْ بِهِ جَرْدُ الْمَذَاكِي كَأَنَّمَا	عِذَا رَى وَلَكِنْ نَقْطَهُنْ تَحْمَحُمُ
بَصْفَاءُ كَالْتَبَرِ الْعَتِيقِ صَقْلِيهِ	وَدَهْمَاءُ يَتْلُوهَا كَمِيتٍ وَأَدَهْمُ
وَأَشْقَرُ لَوْ يَجْرِي وَلِلْبَرَقِ جَهْدُهُ	لَكَانَ لَهُ الرِّهَانُ التَّقْصِدُ
وَقَامَ لَوَاءُ النَّصْرِ يَتَّبِعُ رَايَهُ	بِمَا الْعِزُّ مَقْصُودٌ عَلَيْهَا مَتَمُّ
فَلَمَّا قَضَى حَقَّ الصَّلَاةِ مَعْظَمَا	ثَنَى وَالْهَدَى فِي وَجْهِهِ يَتَوَشَّمُ
فَلَا زَالَ يَقْضِي نَفْلَهُ وَفَرُوضَهُ	وَبَرْدَ عِلَاهُ بِالْمَدَائِحِ مَعْلَمُ

وهناك شعراء آخرون عاشوا في تلك الآونة هم علي بن مكوك الطيبي، وحماد بن علي الملقب بالبين، وأبو حفص بن فلفول. وكان هذا الأخير وزميله ابن دفرير من كتاب يحيى بن عبد العزيز آخر ملوك الدولة الحمّادية.

حالة الاقتصاد وما ترتب عنه من أسباب الحضارة

لم يهتم أولو الأمر برفع المستوى الثقافي فحسب بل كرسوا جهودهم على تشجيع الاقتصاد نظرا إلى ما يرد عنه من مال على الخزينة السلطانية. فأصبحت الفلاحة نشيطة رغم الجفاف الذي كان يعترى القطر من حين لآخر، وقد حدثناك عنها، وأصبحت الصناعة مزدهرة.

بينهما كان أهل الأرياف يعيشون في أخصاصهم أو خيامهم عيشتهم البسيطة الرخية حيناً أو الشقية حيناً آخر ويكتفون بما تصنع أيديهم الماهرة ما يحتاجون إليه من حصائر وقطائف وثياب وآلات منزلية من الدوم أو الحلفاء أو الطين، كان الأشراف والأغنياء في المدن والأمصار في حاجة إلى ما يواكب منزلتهم الاجتماعية وأذواقهم الراقية الرفيعة. فمتى كثر ثروة السكان تزايدت لديهم عوائد الترف ومذاهبه. فمن الطبيعي أن تستحكم لديهم الصنائع في سائر فنونه، فتفنن الصناع في صناعة ما يرضي شهوات هذه الطبقة المترفة في المطاعم والملابس وسائر أحوال المنزل.

«كان للملوك عمائم مذهبة يغلون في أثمانها تساوي العمامة الخمسمائة دينار أو الستمائة دينار وأزيد. وكانوا يعمموها بأتقن صنعة، فتأتي على صورة تاجين. ببلادهم صناع لذلك. يأخذ الصانع على تعميم عمامة منها دينارين وأزيد.

وكانت لهم قوالب من عود في حوانيتهم يسمونها الرؤوس يعممون عليها تلك العمام»⁽¹⁾

(1) كتاب الاستبصار ص 19

فلهؤلاء الملوك، وللطبقة الممتازة كان يصنع بالقلعة الأكسية القلعية النسج المطرزة بالذهب واللبايد الجيدة والسروج المكللة بالأحجار الكريمة، ولنسائهم الحلي المختلفة والثياب الحريرية من ديباج وغيره.

لم يكن بالقلعة فقط معامل الصوف، الذي له من النعومة والبصيص ما يجعله يتزل مع الذهب بمزلة الإبريسم،⁽¹⁾ بل معامل الورق الذي كان يصنع بافريقية منذ عهد الأغالة والفاطمين، ومعامل الخزف والزجاج أيضا.

أما بجاية فقد اشتهرت هي الأخرى بصنع هذه المنتوجات وبإنشاء المراكب والسفن مثل جارها بونة، فالحشب في الأودية والجبال كثير. ويذكر لنا الإدريسي أنه كان بهاتين المدينتين من الصناعات كل غربية ولطيفة.

وفي قسنطينة ووهران وتلمسان من الحركة الصناعية ما يشبه تلك التي بالعاصمة.

لم يفتر استخراج المرجان من مرسى الخرز⁽²⁾ وبونة. فقال البكري: «بشرقي بونة مدينة الخزر فيه المرجان» و«مرجان الخرز، يقول صاحب الاستبصار، أنفس مرجان الدنيا وأنفق شيء بالهند والصين». فالأسواق كانت تغشاها المحصولات الفلاحية والمنتوجات الصناعية المحلية والسلعة المستوردة من الخارج.

فكانت القوافل غادية رائحة، وأهل بجاية والقلعة والمسيلة وورجلان وتيهرت وتلمسان يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار

(1) ياقوت.

(2) القالة

الصحراء وتجار المشرق، وتباع البضائع بالأموال المقنطرة، يقول البكري عن القلعة: «وهي اليوم مقصد التجار، وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب» قال جورج مرصي: «وحوالي سنة 457هـ-1065م، صارت القلعة مدينة تجارية عظيمة وارفة الخيرات، وقصدها أرباب الصنائع من المشرق وافريقية» ونلاحظ هنا ظاهرة أن الحركة التجارية مع دول السود ضعفت شيئاً ما. فإن الدولة المرابطية المجاورة استولت في غانة على منابع الذهب، ثم سيطرت على طريقه، فحرمت المدن الحمّادية من مورد من أهم مواردها وحياتها الاقتصادية، فولى أرباب التجارة الجزائريون وجوههم شطر الأسواق الأوروبية.

فتضاعفت حركة الموانئ ونفقت التجارة، والتجارة تدر الأرباح على أصحابها.

فكان دخل مرسى الخرز من تجارة بيع المرجان فقط عشرة آلاف دينار سنوياً، وكان مستخلص بونة عشرين ألف دينار، فالخزينة السلطانية كان يرد عليها أموال طائلة عن طريق الضرائب المفروضة على الفلاحين والصناع والتجار فهذا الاقتصاد الزاهر كالذي كانت الدولة الحمّادية تتمتع به، قد ساعدها على إنشاء حضارة من أرقى الحضارات.

(1) الإدريسي

الفن المعماري

المؤسسات الدينية والفن المعماري

اعتنى الحمّاديون بالفن المعماري، وأبوا إلا أن يكون لهم من المباني ما كان لبني عمهم بإفريقية، وللفاطميين بمصر، والمباني، تدل على ما وصلت إليه الدولة من عزة وسلطان فأحضروا المهندسين من إفريقية وحتى من المشرق لتشييد المشاريع العمومية والقصور لهم، فأسسوا الأسوار والقناطر والمدارس والمساجد، ولا زالت آثار المسجد الجامع ماثلة أمام أعيننا بالقلعة. يظهر هذا المسجد كثير الشبه في تخطيطه بمسجد القيروان، إلا أنه يختلف عنه فيما يخص الأعمدة والمقصورة، ومقصورة مسجد القيروان حديثة العهد، فهي من إحداث الفاطميين، يصلي داخلها الأمراء احتياطاً لما قد يطرأ عليهم من الاعتداءات، وأخذ عنهم الحمّاديون هذه العادة. والمسجد مستطيل طوله 64 متراً وعرضه 56 متراً، وبه 84 عموداً لم يبق منها إلا قواعدها، وله 13 بلاطة، و8 أساكيب، والحراب تحوي في الجدار، وله فناء مكشوف يتوسطه صهريج، وكان يحيط به سور فيه أحد عشر باباً، أما المئذنة، فكانت آية من آيات الجمال، كانت تقوم وسط السور الغربي وكانت ذاهبة في السماء، ولكن طولها اليوم لا يزيد على خمسة وعشرين متراً، فهي علي شكل برج مربع كشكيلاتها بالمغرب الأقصى والأندلس، ترى في واجهتها الجنوبية باباً ذا قوس علي هيئة حدوة الحصان مرفوعة فوق عمودين، ويعلو الباب خمس نوافذ، السفلى والعليا منها مسدودتان، وعلى يمين ويسار النوافذ فصوص مزخرفة، فمن العبث أن نبحث عن مئذنة مزخرفة علي هذا الشكل

في إفريقية لذلك العهد، فإنها تعد بادرة لفن مآذن القرن الثاني عشر باشبيلية (جيرالدا) وبالرباط (صومعة حسان) وبمراكش (الكتيبة). وقد بحث الأثريون عبثا عن أصل هذا الشكل الجميل، من الزخرفة الذي تتحلى به مئذنة القلعة، ومن بين ما عثر عليه من الخرابات تيجان أعمدة مزينة بالخط العربي، الجميل، والوريقات، وقطع من الاسطوانات ولوحات ذات خط كوفي، وأثر آخر مطلي عليه خط لامع جميل.

وقد شيد المنصور مسجدا ببجاية إذ لا تتصور أن تكون قاعدة الملك بدون مسجد جامع، ولكن لم نعر على أثره ولا على موقعه، وذلك من جراء القذائف التي صبها الاسبان على المدينة سنة 1510، فكان على ما يبدو أكبر من مسجد القلعة. فقد جاء في مخطوط⁽¹⁾ يعود إلى القرن الثاني عشر نقله احد البجائيين سنة 1866 م وأنه كان مستطيلا طوله 222 ذراعا وعرضه 150 ذراعا، وبه 412 عمودا رخاميا، وله 14 بلاطة، وكان حائط المحراب وجوانبه، مغطى بالرخام الأبيض وجدرانه مزخرفة بالكتابات، وكانت تعلوه مكتبة وحجرات يقيم بها الأساتذة المكلفون بإلقاء محاضراتهم فيه⁽²⁾ ومن آثار بني حماد جامع مدينة الجزائر.

فقد ذهب الأخ عبد الرحمان الجيلالي وغيره من المؤرخين أنه من تأسيس المرابطين، فكيف نتصور ذلك، وإن هؤلاء لم يستولوا على المدينة البتة؟ فليس من المعقول إذن أن نعزي تشييده إليهم، وأن كان يشبه في شكله وهندسته المعمارية جامع تلسمان المنسوب إلى ابن تاشفين المرابطي

(1) صاحبه يسمى حمادا وينتمي إلى الاسرة المؤمنية

(2) بجاية ص : 31

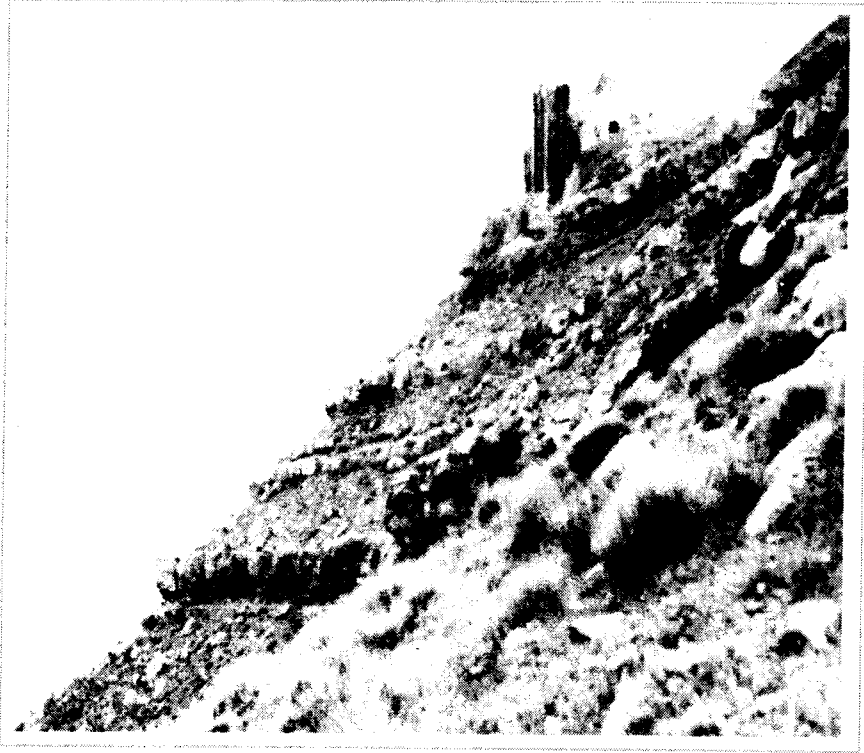
فالفن المغربي الأندلسي قد أخذ حينئذ يمتزج بالفن الجزائري بحكم الجوار، وقد ساعد هذا الامتزاج وجود صناع حذاق من الجالية الأندلسية التي استقرت بالجزائر منذ القرن الخامس الهجري.

وقد ذكر الشيخ أبو راس أن هذا الجامع من مؤسسات بني زيان وأن مؤسسه أبو تاشفين الزياتي، فالواقع أن أبا تاشفين لم يكن مؤسسهُ، بل ما قام به هو توسيعه وترميمه فقط، فلو قال الشيخ: إن أبا تاشفين ادخل تحسينات على المسجد وأقام منارته الحالية لكان أقرب إلى الصواب، وقد ذكر السيد (ديامند) قائلا: «أنه لا تزال بشمال إفريقية عدة منابر هامة ترجع إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وأقدم هذه المنابر منبر المسجد الجامع بالجزائر الذي بناه المرابطون سنة 1082م (474هـ)، وتتكون زخارفه من حشوات مربعة تزيناها زخارف هندسية متشابكة وأشجار نخلية وتوارق في أسلوب مغربي إسباني حمله إلى شمال إفريقية الفنانون الأندلسيون» فتورط الأستاذ (ديامند) فيما تورط فيه غيره، فالمرابطون وصلوا فعلا إلى نواحي الجزائر وحاولوا اقتحامها لكنهم صدوا عنها، فالمسجد إذن ليس مرابطيا، فالشيء، الذي غلط المؤرخين فقالوا: أن المرابطين هم الذين شيدوا ذلك المسجد هو أن المقرئ غلط في اسم باني المسجد بل حرفه فقال: ابن تاشفين عوض أبي تاشفين الذي أمر بتوسيعه وترميمه وبتشييد صومعته.

فقد سبق أن قلنا أن زيري بن مناد أمر ابنه بلكين أن يجدد بناء الجزائر ولمدية ومليانة، فهل يخطر بالبال أن يمثل أمر أبيه بدون أن يشرع، قبل كل شيء، في تشييد مسجد جامع في كل منها والعادة تقتضي ذلك؟

القصور

أراد بنو حماد أن يباهوا غيرهم، فبنوا القصور. إن القصر المسمى
بدار البحر هو أهم ما اكتشف من الآثار، قام بذلك الأستاذ بايلي.
فإنه يقع شمال المسجد، فقد وصفه صاحب الاستبصار.



إنه يمتاز ببركة في وسطه طولها سبعة وستون مترا وعرضها سبعة وأربعون مترا وعمقها متر وستون سنتمترا. فإنها تذكر الزائر ببركة الحمراء التي هي أضيق منها بكثير. وتحيط بالبركة القاعات والرواقات المعمدة المشتملة على بدائع الزخرف الفني كالرخام المنقوش والجبس المزين بالأشكال الهندسية. وهذا القصر يعد نموذجا لما بني في صقلية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر. وقد يكون قصر السلام آية مثله. وبأعلى الجبل المطل على وادي فرج شيدوا قصرا يعلوه منار. فقد بناه ((بونياش المسيحي)). في أعلاه مرايا ترسل بواسطتها العلام بالنيهار، وتوقد النيران ليلا لإرسال إشارات الحراسة منه إلى منائر أخرى على الجبال المقابلة.

إن بجاية كانت أجمل الحواضر الصنهاجية. فما عدا المناظر الطبيعية لم يبق من جمالها شيء من شأنه أن يرضي الزائرين والأثريين. فالقصور التي ذكرها ابن خلدون مسحتها أيدي الزمان، ويصعب العثور على مواقعها وبالأحرى على بعض غرفها أو جدرانها، ويحتمل أن قصر اللؤلؤة كان مشيدا في أعلى كدية البريجة العليا. وصفه صاحب الاستبصار فقال « وفي بجاية موضع يسمى اللؤلؤة، وأنف جبل داخل في البحر متصل بالمدينة، فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة لم ير الزائرون أحسن منها بناء ولا أنزه موضعا. فيها طاقات مشرفة على البحر عليها شبابيك الحديد، ومجالسها مبنية حيطانها بالرخام الأبيض من أعلاها إلى أسفلها، قد نقشت أحسن نقش وأنزلت بالذهب، وصورت فيها الصور الحسنة، فجاءت من أحسن القصور». وقال ابن خلدون: «وبني بجاية قصر اللؤلؤة، وكان من أعجب قصور الدنيا»، وقال أبو راس: (وكان بناؤه حوالي سنة 470هـ) أما القصران الآخريان قصر الكوكب

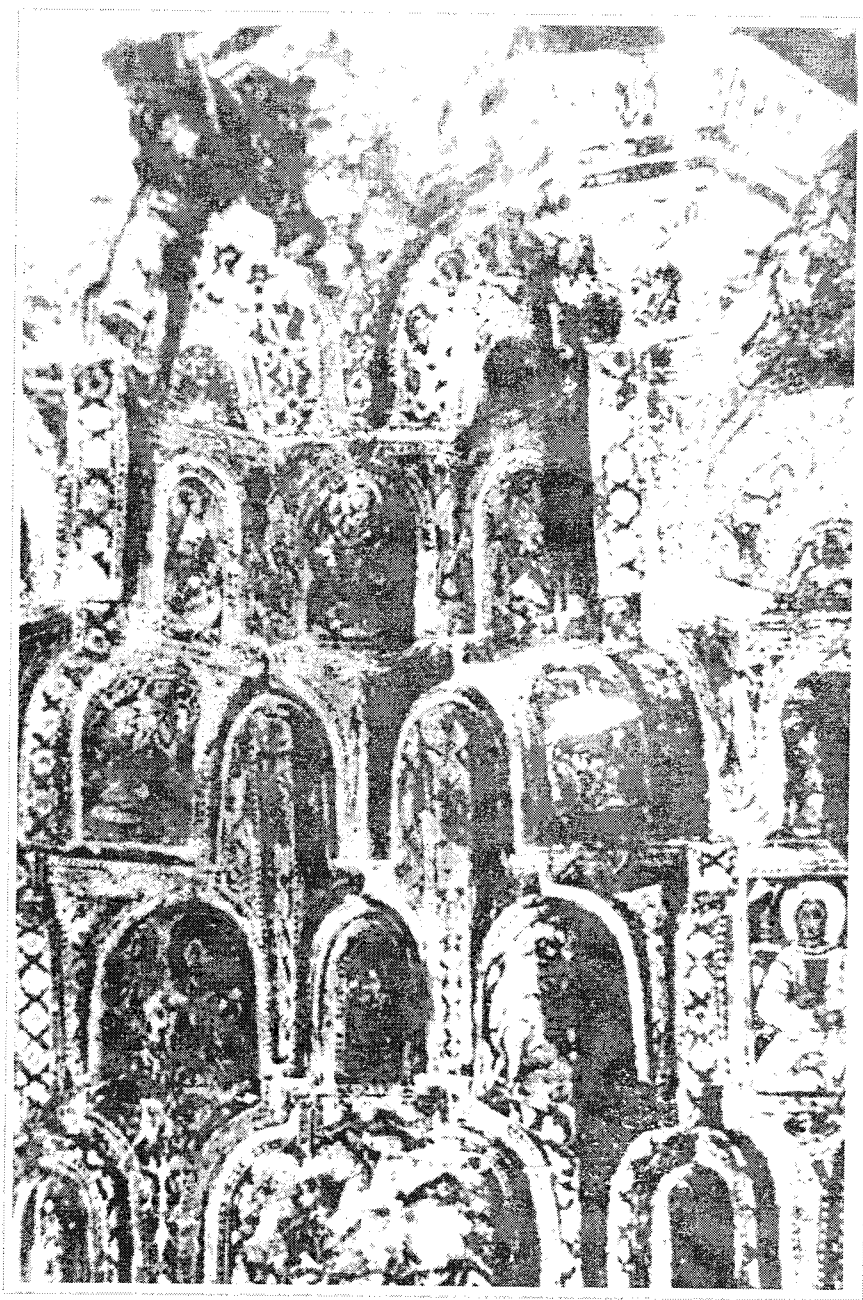
وقصر أميمون، فقد شيدا في الجهة العليا من المدينة يرى من أعلاها البحر ولا نعرف إلا النادر عن هندستهما. وصف ابن حمديس أثار الصنهاجيين ببونة وبجاية وقد سبق أن ذكرنا لك قصيدتين من شعره في ذلك.⁽¹⁾

وبكى أبو عبد الله محمد بن حماد قصور أسلافه الدارسة وندب معالها ورسومها يقول:

ابن العروسان لا رسم ولا طلل	فانظر تلرى ليس غلا المهمل والجبل
وقصر (بلارة) أوردى الزمان به	فأين من شاد منه السادة الأول
قصر الخلافة أين القصر من خرب	غير اللجين وفي أرحابها زحل
وليس ييهجنني شيء أسير به	من بعد أن نهجت بالمنهج السبل
وما ورا الكوكب العلوي معتصم	وقد عرا الكوكب التعبير والندل
وقد عفا قصر حماد فليس له	رسم ولا أثر باق ولا طلل
ومجلس القوم قد هب الزمان به	بحدث قل فيه الحادث الجلل
وإن في القصر قصر الملك معتبرا	لمن تغرره الأيام والجدول
وما رسوم المنار الآن ماثلة	لكنها نبذ يجرى بها المثل
حتى المصلى بليت آيتها وعفت	جدارا طلت بها الطلل
كرجعك الطرف كانت كل آبرة	فما تراه كذلك العمر والأجل

والمنار الذي ذكره في هذه القصيدة يصفه في المقطوعة التالية فكان آية من الآيات في الجمال تحف به المناظر الطبيعية الفتانة فقال:

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة	بوادي الجوى ما بين تلك الجداول؟
وهل أسمع تلك الطيور عشية	تجاوب في تلك الغضون البلابل؟
وهل أردن عين السلام على الصدى	فابرد من حر الضلوع النواهل؟
وانظر طيقان المنار مطلة على	الواجنات الزاهرات الحمائل
فإن ثنت الأيام عنها اعتنى	وانزلتني في غيرتك المنازل
فصبر جميل غير أن صبابتي	ستبقى بقاء الطالعات الأوافل



فقد أخذت بمجامح قلبه تلك الطبيعة التي قام على ذارها المنار الذي
يفضله على إيوان كسرى والخرونق والسدير أنصت إليه:

على عين السلام سلام صب	غداؤها مأوه العذب النمير
تأود أيكها وجرت صباه	وشم لهما كما فتق العبير
وأبرد ما يكون الجو فيها	وأندى حين يجتدم الهجير
وما أدرى أيجري فوق در	أم ابتسم بمتبعها الثغور
وقد قام المنار على دارها	كما قام العروس أو الأمير
بناء يزدرى إيوان كسرى	لديه والخرونق والسدير

قطيعة القلعة

جميلة، ولعل طبيعة الناصرية أجمل منها. فأنصت إلى أبي علي
حسن بن الفكون حين يقول:

دع العراق وبغداد وشاملها	فالناصرية ما إن مثلها بلد
بر وبحر وموج للعيون بس	مسارع بان عنها الهم والنكد
حيث الهوى والهواء الطلق مجتمع	حيث الغنى والمنى والعشية الرغد
والنهر كالصل والحبات مشرفة	والنهر والبحر كالمرآة، وهويد
فحيثما نظرت راقى وكل نو	أحي الدار للفكر للأبصار تتقد
أن تنظر البر فالأزهار يانعة	أو تنظر البحر فالأمواج تطرد
يا طالباً وصفها، إن كنت ذا نصف	قل جنة الخلد فيها الأهل والولد

يظهر من شعر ابن حمد يس وابن حماد أن قصور الدولة التي
تحدث عنها كانت آية من آيات الفن المعماري، فإن آثار البلطينة
ببارم تؤيدها. جاء في شعر ابن حمديس، إن سقف البلطينة الذي
شيد سنة 1132م. كان مزخرفاً، وفي ذلك العهد كان النورماند قد
استولوا على صقلية، وآثروا الفن الإسلامي في بناياتهم وبالأخص

الفن الصنهاجي، فكانوا مغرمين بالحضارة الحمّادية فلم يدخلوا إلى بلادهم معالم الحضارة «النصرانية» لم يبنوا على الطراز الأوروبي، فوضعوا قصورهم على شكل قصور افريقية، والقلعة وبجاية بالخصوص، فمن المغرب الأوسط كان المهندسون يذهبون إلى صقلية، و يبنون لأمرائها قصورا شبيهة بما بنوه للصنهاجيين، فقصر العزيز والقبة وسقف كنيسة البلطينة وهياكل أخرى عليها الطابع الجزائري، نجد فيها القاطعات ذات الفصوص والردهات التي تذكر بإيوان كسرى، وقاعات الشرف مثل قاعات قصور زيري بن مناد بأشير، ونجد أيضا القباب المقرنصة فهو الفن الحمّادي بعينه، فإن السقوف والآثارات الأخرى ككنيسة، «البلصينة» صورة ناطقة لسقوف قصر ببالرم مزخرفة بصور تمثل الصيد والحيوانات التي ذكرها ابن حمد يس في شعره واصفا قصور بني حماد، أليست سقوف المنصور ببجاية؟ فليس من شك في ذلك إلا أننا إذا استثنينا هذه المعلومات نصبح لا نعرف شيئا عن رسوم هذه القصور ولا عن هياكلها، فإن الأسد الذي ذكره ابن حمد يس عثر عليه الأستاذ مرصى، فلا شك أن حيوانات أخرى كانت مصورة في سقوف القصور الحمّادية.

إن قصور الصنهاجيين تتميز بساحات تحيط بها الرواقات والقاعات وذلك ميزة قصور أهل الشرق. وهذا الشكل كان معروفا بالمغرب وقف على أثره الأثريون في تيهرت وسدراتة^{*} فالسور الذي يحيط بالقصور متين ومدعم في زواياه بأعمدة مربعة أو اسطوانات على غرار الآثار العباسية والأموية، نجدها في قصر أخضر⁽¹⁾ المشيد سنة 764م

(1) طوله 170 م وارتفاع سوره 21م.

بالعراق على بعد نحو 40 كيلو مترا غرب الجنوب الغربي⁽¹⁾ لكربلاء وبالأخص بسورية بجبل سيدي بقصر الخير الغربي وفي قصر المشتى الذي يعود بناؤه إلى الوليد الثاني (724/744م)⁽²⁾ وقصر طوبة⁽³⁾ المستطيل الذي يذكرنا بقصر زيري بن مناد بأشير. فإن مدخل قصر أشير المتلوي يشبه تماما قصر القائم الفاطمي بالمهدية. ونجد ذلك بدار البحر وفي الجهة العليا لقصر السلام. أما القاعات ذات الردهات فهي اقتباس من الإيوان الفارسي، وكانت توجد بسدراته في القرن العاشر وربما قبل ذلك العهد بفن الفسطاط الذي ينتمي إلى المدرسة العراقية. ومعلوم أن الطولونيين، أمراء مصر، قد أدخلوا في النصف الثاني من القرن العاشر إلى مصر الشكل البغدادي وشكل سامراء. فإن قاعة الاستقبال لقصر زيري بن مناد مماثلة لمثيلتها بالقصر الأموي بالمشتى. لوحة جميلة لباب منقوشة عليها خطوط كوفية عثر عليها بالقلعة حديثا. فإنها تشبه اللوحة التي اكتشفها الأستاذ بايلي، فكلاهما مزخرفة بخط جميل فاطمي. وعثر بأشير على خطوط على قبر مماثلة للخط الطلوني المصري والخط السدراقي. وعلى قبر آخر يرجع إلى سنة 113هـ - 1022م خط كوئي مماثل لخط مقصورة جامع القيروان يعود إلى منتصف القرن الحادي عشر. وهناك كتابات على قبور ببجاية تمكنا من تتبع تقدم الخط الكوفي. فلم تثبت قدمه قبل هذا العهد

(1) يقع على بعد 100 كم غرب تدمر، وفي متحف دمشق تصاوير منه فيها أثر من الفن الساساني.

(2) يقع على بعد 32 كم جنوب عمان للإقامة به في الشتاء، ويمتاز بواجهته المزينة بزخارف دقيقة محفورة في الحجر الجيري عناصرها الفروع والأزهار والمراوح النخيلية وفيها رسوم طيور وحيوانات حقيقية وخرافية ورسوم إنسانية أيضا.

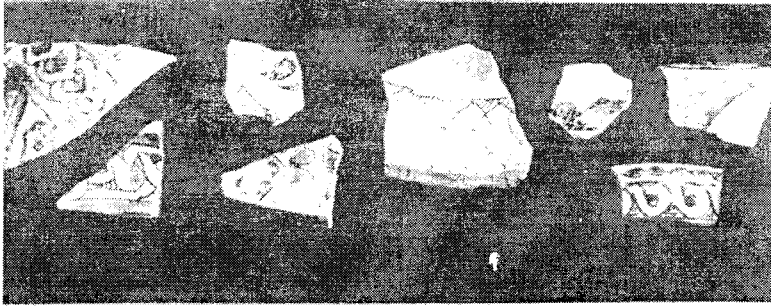
(3) بني في البادية جنوبي الأردن على بعد نحو 100 كم من عمان بأمر الوليد الثاني ليقيم فيه أيام الربيع، ويظهر فيه هندسة في البناء العربي.

ونرى أن فراغ ما بين الحروف تملأه نقوش زهرية ما يزيد ذلك الخط جمالا ورونقا.

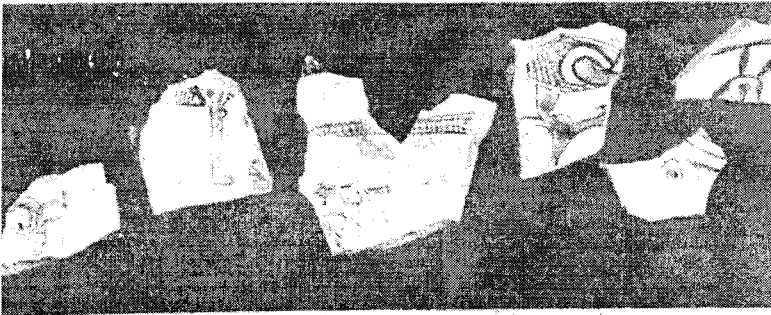
وهناك أدوات من الجبس عثر عليها بالقلعة وبأشير من الأهمية بمكان للبحث في طرق الزخرفة على العهد الصنهاجي قطع تمثل وردة وقطع افريزية وقطع صدفية وقطع مقرنصة.

هذه القطع كلها تدل على وجود هذه الأنواع من الزخرفة التي ستصبح كلاسيكية في صقلية والأندلس بعد ذلك العصر. وقد اكتشف الأستاذ بايليبي حجارة تمثل شبكة من الزخارف (خلية النحل)، فما هي إلا المقرنص في بدايته. وهذا النوع من الزخرف سيزدهر في تلمسان وفاس وصقلية، ولم يعرف استعماله من قبل في المشرق. وما كان يعرف من هذا النوع فهو شيء آخر يخالف تماما مقرنص القلعة. فالمقرنص، إذن، ظهر لأول مرة بالقلعة، ومقرنص تلمسان وصقلية وغيرهما يشابه مقرنص القلعة، واستخدم صناع القلعة العناصر النباتية، إلا أنها استخدمت أيضا في الأندلس. لم تكن العلاقات دائما معتكرة بين الصنهاجيين والمرابطين، فينتمون إلى أصل واحد. فكثيرا ما كانت الاتصالات بين الدولتين ودية ومتعاونة، فلا يستغرب إذا قلنا إن الأساليب الفنية المرابطية غزت الفن الصنهاجي، وبكل من تلمسان وندرومة مسجدة عليه مسحة أندلسية مغربية يعود تشييده إلى ذلك العهد. ويستنتج من هذا أن هناك تيارين: تيارا شرقيا مغربيا تقليديا، ولكن، أخذ يتقلص شيئا فشيئا وتيارا مغربيا شرقيا جديدا ومجددا. فإذا، قبل استيلاء الموحدين على بجاية دخل هذا التيار الجديد إلى القلعة وبجاية، ولكن، لم يقو فيتغلب على الفن القديم.

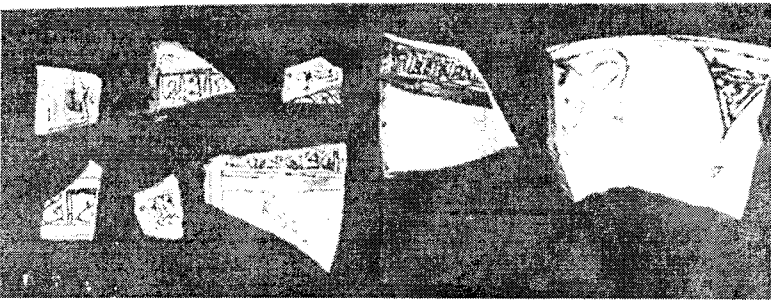
شكل رقم (4) حجر قبر مادي مكتوب عليه بالخط الكوفي مائلي:
كل نفس ذائقة الموت إنما حياة الدنيا إلا متاع الغرور



الحجر من القبر المادي مكتوب عليه بالخط الكوفي مائلي



الحجر من القبر المادي مكتوب عليه بالخط الكوفي مائلي



كان الصنهاجيون يعتنون بصحة الرعية. فقاموا بتشديد
 البيمارستانات لعلاج المرضى، وعينوا لها أطباء يقومون بمهماتهم أحسن
 قيام، ولكن هذه البيمارستانات قد عفت يد الدهر عليها ولم يبق منها
 ما يدلنا على رسومها ولا على مواقعها، فقد تلاشى ما شهدته من أثرها
 محمد الحسن الوزان ولم نتوصل بأسماء أطبائها. إلا أن هناك أسماء أطباء
 جزائريين عاشوا في تلك الفترة وردت هنا وهناك في كتب المترجمين،
 فمنهم ابن النباش أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خالد البجائي. كان
 على حسب ابن أبي أصيبعة،⁽¹⁾ ذا عناية بصناعة الطب مواظبا على علاج
 المرضى، وذا معرفة جيدة بالعلوم الطبية. وكان له، كجميع الأطباء في
 ذلك العصر مشاركة في العلوم الفلسفية. ولعله كان أحد أطباء
 البيمارستانات ببجاية. فقد رحل إلى مرسية وبقي بها مدة طويلة، وقد
 عاصره طبيب آخر هو عمر بن البدوخ. ولد بالقلعة والتحق ببجاية. فكان
 يعرف الأدوية ويطب بها. غادر المغرب الأوسط وقصد الشرق وجال في
 ربوعه، واختار دمشق لسكانه فبقي بها يعالج الناس، ونفعهم كثيرا، ومات
 بتلك المدينة عام 575هـ، وخلف كتباً في الطب منها حواش على كتاب
 القانون لابن سينا، وشرح الفصول لأبي قراط في أرجوزة، وكتاب خبرة
 الألباب في الباءة. وحدثنا العماد الأصفهاني عن طبيب آخر كان ماهرا
 وكاتبا شاعرا في بلاط بني حماد هو ابن أبي المليح. كان حاذقا في صناعة
 الطب وأديبا يكتب ويقرض الشعر. وقد مدح عبد الله بن العزيز
 الحمادي بقصيدة، كما سبق أن قلنا،⁽¹⁾ منها هذا البيت.

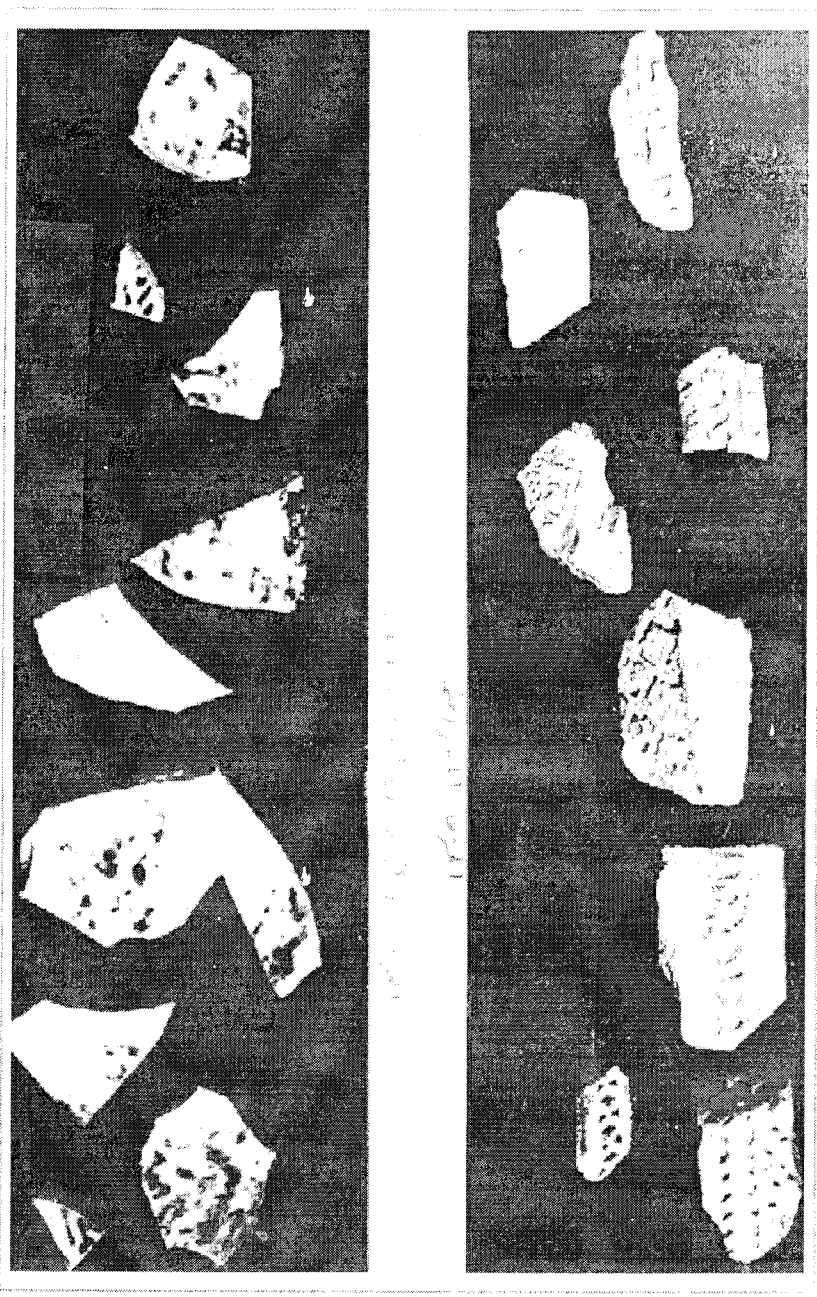
وجالت به جرد المذاكي كأنها عذارى، ولكن نطقهن تحمحم

(1) ص: 180

الخزف

ومما يجدر التحدث عنه أيضا الخزف. فإن الشقق التي عثر عليها في القلعة وفي بجاية وفي أشير كثيرة تدل على عدد الصناعات العديدة في وقت عزها. الأواني المطلية ذات البرين المعدني مختلفة باختلاف المصانع التي أخرجتها وباختلاف الأزمنة. والقراميد الحمادية لا تختلف عن القراميد التي تصنع في هذا العصر بسفح جبل (رحمة) أو بضاف وادي فرج حيث كانت تقع معامل الخزف المطلي. وفي أشير والقلعة وبجاية يوجد الخزف العادي والخزف المطلي والخزف المزخرف بالرسوم والخزف المفروض.

وفي القلعة وفي بجاية كان يوجد الخزف ذو البريق المعدني. فإن الأواني من هذا النوع تستخدم لجمالها عوض الأواني الفضية والذهبية وهذا الخزف يشبه ما يوجد في المغرب الأقصى والأندلس على عهد الموحدين. كان يصنع بالجزائر ويبد جزائرية. أصله من الصلصال المحروق ثم أضيفت إليه بعض المواد التي تكسبه بريقا معدنيا يجعله صالحا لأن يكون بديلا لأواني الذهب والفضة. وربما صناعت المغرب الأوسط اقتبسوا صنعه من المشاركة لأنه أنتج في العصر العباسي وانتشر في العراق ومصر. وهناك من يظن أن الأواني التي عثر على شقق منها أرسلت هدية إلى أمراء القلعة، فمحال أن يكون ذلك، لأن المسافة طويلة ويصعب أن يؤتى بها من المشرق إلى المغرب. فلا شك أنها صنعت في البلاد وصنعها أهل البلاد، وتعلموا هذه الصنعة بالاحتكاك بالمشاركة. تحليلها خطوط كوفية رقيقة وعناصر أخرى نباتية أو هندسية. كل هذه الآثار الخزفية شبيهة بمعاصرتها الفاطمية.



فقال الأستاذ مرصي: «يظهر أن صناعة الفخار يومئذ بلغ مبلغا عظيما، يظهر عليها تأثير الفرس ومصرفنا وعملا». وكانت هذه الصنعة معروفة بالأندلس وتمثله في قصر الزهراء، وجميع الشقف التي عثر عليها تشابه مثيلاتها بالقلعة (وبجاية) وعثر في القلعة وبجاية كذلك على قطع زجاجية وأشياء أخرى حديدية، إن التيارات الفنية كانت تذهب من الشرق إلى الأندلس عن طريق مصر وإفريقية والمغرب الأوسط. والتأثر كان يعم البناء والخزف والزجاج والبرونز والجبس.

إن كل ما عثر عليه من بقايا الفن يدل على أن صناع المغرب الأوسط كانوا حذاقا ماهرين. فإن قصر أشير كان آية الأندلسيين يشرفهم، والمنار ودار البحر وصومعة المسجد تدهشك بروعة تناسقها، ويروعك دقة الصنعة وإتقان العمل في جميع تلك الألوان المطلية البراقة، ولا ننس أولئك الصناع الذين أقبلوا من القيروان حيث كانت تلك المدينة مضايقة من طرف الأعراب أو حيث هجروها نهائيا عندما استولى عليها بنو هلال. فإن بجاية كانت زاهرة وقت الحمّادين. ومن سكانها عدد كبير من الأندلسيين الذين نقلوا إليها الحضارة الإسبانية المغربية قبل أن يستولي عليها الموحدون. ولكن هذه الحضارة الإسبانية المغربية نفسها متأثرة بالحضارة الشرقية. فالحضارة الحمّادية، إذن، مشرقية. فأينما وليت نظرك في قصور القلعة وبجاية وفي أثارها وجدت ما ينطق بأثر الفن الشرقي. فقد شاع وأخذ بتلاييه أولو الأمر والأعيان، وحتى الأمكنة التي وطأها صنهجة نشأ فيها ذلك الأثر. فانظر إلى بلكين بن زيري ابن مناد عندما دخل إلى فاس، فإن أول ما قام به هو اتحاف

مسجد عدوة الأندلس بمنبر على طراز شرقي فقال الأستاذ مرصي: «إن الحضارة الحمّادية تظهر تحت تأثير المشرق، وآثارها لا نظير لها ببقية وطن المغرب، وهي شاهد قوي على رقي الحضارة الإسلامية المغروسة بالجزائر، ولا زالت معالم الحضارة الصنهاجية بادية في غرناطة، فإن أعمام باديس وأعمام أبيه ثاروا عليه. ف وقعت حرب بين الفريقين قتل فيها عم أبيه ماكسن بن زيري، فهرب الباكون منهم صولة باديس وخافوا عاديته على أنفسهم على صغر سنه. فدخل جماعة منهم الأندلس مع أميرهم زاوي بن زيري.⁽¹⁾ فأمكنهم أن يقبضوا على زمام الأمر بغرناطة وأحوازها، وكان لهم شأن عظيم في الحضارة. فلا زالت آثارهم هناك: سور باب وجزء من الحمراء رغم ما قامت به الدولة النصرية من المباني. فإن هذه البقايا من حضارتهم تذكرنا بالمعمار الجزائري الحمادي. والأساليب الصناعية لازالت ماثلة هنا وهناك في الأندلس وبالأخص ببرج ((من صباتودو)) وبنواحي مدرية».

الفنون الجميلة

إن الحمّاديين عاشوا حياة باذخة في قصورهم محفوفين بالعلماء والأدباء والفنانين من موسقيين ورقاصين. رجع ابن تومرت المصمودي من المشرق ووقف في طريقه ببجاية، فرأى مطربين، فهجم عليهم وأخذ يبعث آلاهم وكسرهما، يزعم أن ذلك يلهيهم عن دينهم، وآلاهم حينئذ الناي والعود والقانون والجنك والغائطة أو الزرنة والزمارة والطرب والطبل والدف. وكانت هذه الموسيقى متأثرة بالموسيقى

(1) الإحاطة جـ 1 ص: 439

الإفريقية التي كانت هي الأخرى متأثرة بالموسيقى الشرقية، وكانت متأثرة أيضا بالموسيقى الأندلسية، وكيف لا وببجاية جالية أندلسية هامة. فكان الملوك والأمراء والأعيان ينشطون هذا الفن، يتخذون بمجالسهم المغنيين والمغنيات. وإلى جانب هذه الأغاني الفنية التي لازلنا نسمع بعضها في يومنا هذا عاشت أغاني العرب في باديتهم وأغاني البربر في جبالهم.

أما الراقصات فكن يقبضن المناديل ويحركنها، وقد تسربت هذه العادة من الفرس إلى الجزائر، ولا زالت متبعة إلى اليوم بالعاصمة وقسنطينة وعنابة ومدن أخرى.

والخزف يرينا من جهة أخرى أنواعا من الموسيقيين والمشوذين والصيادين والحاصل إن الجزائر لم تعرف فمضة عمرانية كالتي عرفتھا في فترة الصنهاجيين.

الخاتمة

إن التأريخ يعيد نفسه. فكان بالمغرب قبل الميلاد دولتان: النوميدية والزناطية. فالأولى عاصمتها قرطبة، قسنطينة الحالية، والثانية صيغة الواقعة بمصب نهر تافنة، وكل من الدولتين تريد أن تهيمن على البلاد على حساب الأخرى. وكان في نفس الوقت القرطاجيون والرومان، وكل من الفريقين يريد أن يهيمن على الحوض الأبيض المتوسط ويستأثر بالمراكز التجارية المنبثة على سواحله ويقضي على نفوذ خصمه على المغرب باتكائه على إحدى دولتيه وتحريضها على الأخرى، فيقع هكذا تطاحن بين الدولتين المغريبتين العريقتين، فتضعف شوكتهما، فينقض الغالب حينذاك عليهما ويستولي على البلاد.

فنفس الحادث تقريبا وقع في القرنين الرابع والخامس للهجرة في بلادنا. فكان تطاحن بين الأموية والفاطمية واتكأت هذه على صنهاجة⁽¹⁾ والأخرى على زناتة. فظل الصنهاجيون في قتال مع الزناتيين. فالآلاف من الأرواح طحنتها رحي الصراع القائم بين العبيدين والمروانيين. فمن البديهي أن تتأثر البلاد عمرانيا واقتصاديا. لكن هذا الصراع لم يدم أمده، انتهى عندما أعلن حماد والمعز بن باديس استقلالهما عن العبيدين من جهة وانقراض الدولة الأموية من جهة أخرى، إلا أن العداوة بين صنهاجة وزناتة لم تنته، فتمادت، ولكن مع شيء من الفتور إلى أن جاء من يفض النزاع بين الطرفين ولم يكن فاطميا ولا أمويا بل أمير دولة الموحدين الفتية، عبد المؤمن بن علي

(1) وعلى كتامة أيضا. فلولا هؤلاء لما كانت الدولة الفاطمية ولولا صنهاجة لما دامت.

الندرومي الذي شاءت الأقدار أن يوحد افريقية الشمالية بشريا وسياسيا وفكريا. ساد البلاد الاطمئنان وازدهرت اقتصاديا وحضاريا في ظل ناصر بن علناس وولده المنصور. وأمكن هذين العاهلين أن يهيئنا على افريقية والمغرب الأوسط، وكان في استطاعتهما أن يقوما بتوحيد افريقية الشمالية قبل عبد المؤمن، لكن المشكل العربي من جهة والمشكل النورماندي من جهة ثانية وقفا في وجههما، فبقيت الرعية بعدهما مفككة الأوصال. فالعرب طارئون لا يفكرون في تكوين دولة عربية صرفة ولا في الانقياد إلى السلطة المركزية.

والزناطيون قد أمهكتهم الحروب المتوالية ولا يرون بعين الرضا أن يرزحوا لصنهاجة الذين استأثروا بالملك دونهم مع أنهم ليسوا من أرومة أفضل من أرومتهم. والصنهاجيون أنفسهم قد كلت شوكتهم لتقلص عددهم من جراء الحروب المتواصلة بينهم وبين خصومهم منذ زيري بن مناد، ولضعف عصبيتهم وتلاحمهم، فدبت في مفاصل دولتهم جراثيم الموت، فلم تجد منهم شخصية حازمة قادرة على إنقاذها، فترجع إليها روحها وقوتها، فتستأنف الحياة من جديد، فتفرض وجودها وتطهر البلاد من النورماند وتأتي على الاضطرابات الداخلية بقطع دابر عناصر الفساد وتذهب صعدا إلى ذروة المجد التي عرفت في أيام الناصر والمنصور. فماتت، ويالأسف، بترول يحيى بن العزيز عرش أجداده الأجداد وبسط النفوذ المؤمني على افريقية الشمالية جمعا.

كانت زناة تثير الفتن، فتتعطل الحركات الفلاحية والتجارية أحيانا، فتشقى الأمة شقاء في أقواتها وأموالها وأرواحها. ولكن السلطة تتغلب في الحين على الموقف، فإنها حريصة على نشر الأمن وبث

الطمأنينة في قلوب رعاياها، فيستأنفون أعمالهم، فيرجع للبلاد خصبها ورخاؤها. وقد تحدث لنا الجغرافيون عن هذا الخصب وعن هذا الرخاء. لا غرو، فإن شبكة كثيفة من الطرق كانت تخترق البلاد طولاً وعرضاً، فيسهل عليهم التنقل عبر المناطق كلها وتسجيل كل ما يأسر أنظارهم اجتماعياً وعمرانياً واقتصادياً. فمن عادة البربر المثابرة على العمل بخلاف البدو الذين زحفوا من مصر إلى أفريقية ومن ثم إلى المغرب، فيكرهون ممارسة الحرف ويؤثرون أن يعيشوا على حساب من خانتهم القوة للدفاع عما ملكت أيديهم، فكم من عشائر بربرية تشتت شملها نتيجة وحشيتهم، وكم من بقع أصبحت ياباً، وكم أعانوا العناصر المفسدة على العصيان والخروج على السلطة الحاكمة، فإن مشكلهم ليعد من أخطر المشاكل التي أودت بها إلى حتفها.

إلا أن المغرب لمدين لهم بشيء مهم علينا أن ننوه به. فإنهم عربوا البلاد. فزاحمت لغتهم لغة البربر وألزمتهما أن تبرح لها البسائط والهضاب وأن تزوي في قمم الجبال ريشاً تموت بالكلية، فحركة التعريب القائمة اليوم عبر البلاد تنذر بذل. فالجزائر عربية منذ حل بها العرب في القرن الأول الهجري ويدهم القرآن فستبقى على الدوام متمسكة بلغتها وثقافتها وعقيدتها العربية الإسلامية ومتفتحة في نفس الوقت تأخذ وتعطي كعادتها منذ فجر التاريخ. فالجزائريون مجبولون على حب الثقافة والرقي، فقد تعثر على أثارهما في كل مكان من قطرنا. فزر المتاحف تجدد الأحجار المنحوتة والآلات العظيمة والخزفية والحديدية والنحاسية والحلي من مصوغ المعدنيات والحجارة الكريمة.

وجل عبر البلاد تعثر على أثار المباني الفخمة والصور المنقوشة على الصخور. فكل ما يقع عليه بصرك إن دل على شيء فإنه يدل بالدرجة الأولى على أن الجزائريين أخذوا في طريق التحضر منذ عهد سحيق. فقد اتصلوا عن طريق الغزو والرحلة والتجارة بالحضارات المصرية والهيلينية والفينيقية والرومانية وجزر البحر المتوسط، فتأثروا وأثروا.

ودخل الإسلام وانتشرت الثقافة العربية الإسلامية، وأخذ بتلابيها الأهالي، فكان منهم الفقهاء والعلماء والأدباء والأطباء والصناع ولا سيما في عهد أمراء صنهاجة الذين كَرَعُوا من حياض هذه الثقافة حتى رَوُوا. فتراهم يقربون إليهم رجال العلم والأدب ويغدقون عليهم الصلات التي تساعد على مواصلة جهودهم في قرض الشعر والكتابة والبحوث العلمية والتصنيف فهم مفعرة دولة وشارة عزها ضاع بعض نتاجهم وبقي الآخر مصونا في رفوف الخزانات داخل البلاد وخارجها. ورحبوا بالترلاء فتلاقى في القلعة وبجاية وقسنطينة والمسيلة وتلمسان المغربي والمشرقي والصقلي والأندلسي والأوروبي والأبيض والأسود. فعرفت الثقافة إشعاعا لم تعرفه من قبل.

ولم تزل الثقافة بزوال بني حماد. فقد بقيت تشعّ في العهدين الموحدى والحفصى. فقد شهد أثارها محمد الحسن الوزان (ليون الإفريقى) الذى زار بجاية فى القرن العاشر للهجرة (القرن السادس عشرم.). فىقول أن مساجد (بجاية) ومدارسها فيها طلبة وفقهاء يدرسون الفقه والرياضيات.

وقد دخلت الشيعة إلى البلاد مع الفاطميين، ولكن فقهاء السنة كانوا لها بالمرصاد.

فقد ضحوا بالنفس والنفيس في سبيل محوها من افريقية والمغرب. وحاول أبو يزيد مخلد بنت كيداد الزناتي، صاحب الحمار أن يقاومها، هو الآخر، ويستعيضها بالخارجية، وكانت هذه قرمطية لا تمت إلى السنة بصلة. فلو قدر لها النجاح لكانت أكثر خطرا على الدين من الشيعة. فهذه البدع كلها طهر الفقهاء البلاد منها بحيث استوعبت السنة شعوب افريقية والمغربين الأوسط والأقصى، وقد واصل المذهب السني تقدمه، فدراسة الفقه لم تبقى مختصة بعلم الفروع، فامتزجت بعلم الأصول، وظهر الاشتغال بعلم الكلام على طريقة النظر والتأويل، وكثر الاجتهاد.

ولعل هذه الثورة التي عرفتھا العلوم الدينية في المغرب يرجع الفضل في اندلاعها وصول كتب الغزالي إلى ربوعه من ناحية وللرحلة التي ما انفك المغاربة يقومون بها من حين لآخر في العالم الإسلامي من ناحية أخرى. وراج الاقتصاد بجانب هذه الثقافة رواجاً در على الخزينة السلطانية، عن طريق الضرائب، مالا وافرا مكن الدولة من أن ترفع من شأن المستوى الاجتماعي ومن أن تشيد حضارة لامعة فاقت ما سبقتها من الحضارات ووصل صداها إلى ما وراء البحر المتوسط.

وصفوة القول، إن الأمراء الحمّادين انتحوا سياسة واعية، فقد عملوا على تقريب قومهم إليهم وإشراكهم في تدبير بعض شؤون الدولة، مما يفسر عدم أو قلة من ينازعهم في الملك من الأعيان. فاستتب لهم بذلك الأمر، وراحوا ينشرون ما أمكنهم من أسباب

الاطمئنان والرخاء. فعاشت الرعية فيما قدر لها من الرغد، إلا إذا
اعترى البلاد جفاف تقل من جرائه محصولات الأرض فيشقى الناس أو
وباء يذهب بالمئات من الأرواح.

فقد برهن ملوك المغرب طيلة أيامهم على أنهم قادرون على
سياسة الملك كغيرهم من الأمم، فالسياسة ليست ملكا لنوع خاص
من الأجناس، وإنما هي وليدة التجربة والتأمل والعبرة والوعي، وبالتالي
إنها ملك لكل كائن حي درب نفسه على هذه الخصال.

فقد حصلت لدى أمراء صنهاجة واستحقوا بها أن يكونوا ساسة
خيرين لذلك الشعب العريق الذي يأبى الظالم ويهيم بالحرية
والديمقراطية والعدل. إلا أننا نأخذ على الزيريين والحمّادين عدم
تكاثفهم عندما اكتسح البدو البلاد لكسر شوكتهم وإحباط سياسة
صاحب القاهرة ووزيره البازوري. فتفرقت كلمة الدولتين العتيدتين،
فتمركز البدو من هلال واثيج وسليم وعدي، وثبتت أقدامهم بحيث أن
الصنهاجيين، رغم فضائلهم السياسية، قد غلبوا على أمرهم وأخذ ظل
ملكهم يتقلص شيئا فشيئا حتى تلاشى تماما.

إلا أن المشكل العربي هذا لم يكن وحده سبب تدهور الوضع
الصنهاجي، إن ضعف روح العصبية وقلة الوعي السياسي لدى الأمراء
المتأخرين وانغماسهم في الترف الذي هو السم الناقع لكل حضارة
وسلطان، كل هذا كان له أثره فيه أيضا. فلم يلبث أن زال ملك
الصنهاجيين الذين ذهبوا به إلى أوج الحضارة بالنسبة إلى ذلك العهد
والذين شاع ذكرهم في الآفاق طيلة قرنين على الأقل وتبدل به
الموحدون الذين كانوا وقئذ، في طورهم الأول، ذوي عصبية قوية

وبأس شديد وفضائل سياسية تمليها الظروف قوامها توحيد شعوب المغرب العربي بشريا ودينيا وثقافيا واقتصاديا وحضاريا.

فلا يمكن لهذه الشعوب أن تفرض وجودها في المنطقة إلا بهذه الوحدة التي فكر فيها عبد المؤمن ولم يأل جهدا في الوصول إليها. فكلل الله مساعيه بالنجاح. إلا أن تلك الوحدة، ويا للأسف، لم يطل أمدها. فلم يقض يعقوب المنصور، حفيد عبد المؤمن، نخبه حتى أخذت تتفتت، فقد أصاب الدولة الوهن، وأخذ نطاقها يتضايق ويتقلص لفائدة بني مرين بفاس وبني عبد الواد بتلمسان وبني حفص بتونس الذين ذهب بهم شعورهم الفردي وقلة وعيهم السياسي إلى انتهاك حركة الجوار ومحاربة بعضهم بعضا. فلا غرو، والحالة هذه، أن تتمزق الوحدة التي أرادها عبد المؤمن للمغرب العربي الكبير وأن تصبح بعده أضغاث أحلام. فهل تتجمع بين شعوبنا المغربية من جديد؟ فهذا ما نأمله وما يجب السعي إليه، فإن الاتحاد ضروري لضمان قوتنا ومهابتنا ورفاهنا في عالم يسوده الأنانية والجشع والتعدي.

المراجع

أبو مروان بن حيان القرطبي: المقتبس في أخبار بلدان الأندلس تحقيق عبد الرحمان علي الحججي، دا الثقافة بيروت.

ابن أبي أصيبعة: كتاب عيون الأنباء في أخبار الأطباء. القاهرة 1299هـ.
ابن أبي دینار القيرواني:

1 - المؤنس في أخبار افريقية وتونس: نسخة بالمتحف

البريطاني بلندن الطبعة الأولى بتونس سنة 1286هـ.

2 - رقم 56975 المكتبة الوطنية 20 سوق المطارين، تونس.

إبن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس.

ابن الأثير: الكامل دار صادر، دار بيروت.

ابن بسام الشنقريني: الذخيرة في محاسن الجزيرة، مطبعة لجنة التأليف.

ابن حزم أبو علي: جمهرة أنساب العرب: دار المعارف

ابن حماد أبو عبد الله محمد بن علي: تاريخ العبيدين نشره فوندرهيدن (Vonderheydon)

ابن حمديس: الديوان.

ابن حوقل أبو القاسم محمد: كتاب المسالك والممالك والمغاز والممالك نشره دي غويه.

ابن خردادبة: كتاب المسالك والممالك، نشره ديغويه.

ابن الخطيب محمد لسان الدين:

1 - أعمال الأعلام القسم الثالث. تحقيق وتعليق د/أحمد مختار

العبادي والأستاذ محمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب،

الدار البيضاء.

- 2- الإحاطة :تحقيق عبد الله عنان، دار المعارف مصر.
3- اللوحة البدرية.

ابن خلدون عبد الرحمان:

- 1- المقدمة، دار إحياء التراث العربي بيروت.
2- كتاب العبر دار الكتاب اللبناني، بيروت.
ابن خلكان: وفيات الأعيان، دار الطباعة الميرية مصر 1275هـ-
ابن رشيق المسيلي: العمدة -دار الجليل بيروت.
ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار المغرب - مكتبة صادر
بيروت.

ابن مريم : البستان المطبعة الثعالبية الجزائر 1326/1908
ابن هانيء الأندلسي: الديوان: دار صادر، دار بيروت
الادريسي الشريف محمد بن عبد العزيز: كتاب نزهة المشتاق في ذكر
الأمصار والأقطار والبلدان وهو مختصر لكتاب نزهة العشاق
(المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس).
البكري أبو عبيد: كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب طبعه
دي سلان.

البندق أبوبكر الصنهاجي: أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة
الموحدين باريس 1928.

توفيق المدني: المسلمون في جزيرة صقلية تونس 1940.
حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية 1964. مكتبة النهضة
المصرية.

حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، القاهرة. 1957

حسن حسني عبد الوهاب:

1 - بساط العقيق تونس 1913م

2 - ورقات مكتبة المنار - تونس.

خالد الصوفي: تاريخ العرب في اسبانيا عصر المنصور الأندلسي دار
الكتاب العربي.

الدباغ عبد الرحمان الأنصاري:

معالم الايمان في معرفة أهل القيروان.

رقم: 1، 2، 3، 6، 14، 84 المكتبة الوطنية، 20 سوق
المطارين، تونس.

السقطي محمد المالقي أبو عبد الله: في آداب الحسبة: باريس المطبعة
الدولية سنة 1931 مكتبة ارتست لروكس - نشره
الأستاذان: كولان ولفي بروفال.

المسلاوي أحمد:

بن خالد الناصري: الاستقصاء لأخبار دول المغرب

الأقصى، الطبعة الجديدة.

السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير: العصر الإسلامي. الدار القومية
مصر

عبد المؤمن عبد الحق: مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع
طبعة جوينيل ليدن 1853.

عبد الرحمان الجلاي: تاريخ الجزائر العام المطبعة العربية، الجزائر
1954./1373

عبد الرحمان ياغي: حياة القيروان دار الثقافة — بيروت.

عماد الدين الاصفهاني: جريدة القصر وجريدة العصر الدار التونسية
للنشر.

الغبريني: عنوان الدراية المطبعة الثعالبية الجزائر 1910/1328
الغزالي: كتاب إحياء علوم الدين والمنقذ من الظلال.
القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القاهرة
المراكشي: المعجب في أخبار المغرب 1934/1358 مطبعة الثقافة، سلا،
المغرب.

المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم طبعه ديغويه ليدن 1878
المقريري: 1 - اتعاظ الحنفاء بأخبار الخلفاء نشره د/جمال الدين الشيال
القاهرة 1943/1367
2 - كتاب المواعظ والأخبار المعروف بالخطط الشامية: دار
صادر.

المقري: نفح الطيب تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة
مصر

الميلسي: تاريخ الجزائر مكتبة النهضة - الجزائر.
النويري شهاب الدين: نهاية الأدب في فنون الأدب: مخطوط بدار
الكتاب المصري الجزء 22.
ياقوت شهاب الدين الحموي: معجم البلدان القاهرة.
يحي هويدي: تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية مكتبة النهضة
المصرية 1965

اليقوي أحمد بن يعقوب: كتاب البلدان.
مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار نشره الفرد كريم
Alfred krimer بفين، مكتبة المتحف البريطاني لندن رقم
14565 ب.32

مجهول: مفاخر البربر نشره (لفي بروفسال).
مجهول: الحلل الموشية نشره علوش - الرباط 1936,

المجلات:

1 — الثقافية

2 — الأصالة

3 — المجاهد الثقافي

G.L de Beylie: La Kala des benis Hammad-paris Leroux

109L.Didier: L'Algérie et sa civilisation.

E.F.Gautier: Le Passé de l'Afrique du Nord-les siècles obscurs
Payot-paris

L.Golvin: 1- Le Magreb central à l'époque des Zirides

Arts et métiers graphiques Paris

Recherches archéologiques à la galaa des Beni Hammad
Maisonneuse et Larose-paris

H.R.Idris: La berberie orientale sous les Zirides: Xe et XIIe
siècles. Librairie d'Amérique et d'orient Adrien-Maisonneuse
ParisA.Laroui: L'Histoire du Magreb-François Maspero Paris
1970

E. Le Blanc: Le problème arabe

Léon l'Afrique: Description de l'Afrique-Traducion

G.Marçais: 1- La berberie Musulmane et L'Orient au

Moyen âge Aubier_Paris

Manuel d'Art Musulman Edition Auguste Picard 1926

L. Terrasse:L'histoire du Maroc Edtions Atlantide Casablanca

فهرس الموضوعات

3	تقديم أ.د. عبد الجليل مرتاض
13	مقدمة المؤلف
15	التمهيد: التعريف بصنهاجة
	الهيكمل
19	أ- القسم السياسي.....
21	1- الصراع بين الأموية والعلوية وموقف صنهاجة منه.....
28	2- زيري مؤسس أشير.....
30	3- ثورة أبي يزيد.....
52	4- المنصور بن بلكين.....
67	5- باديس بن المنصور.....
69	6- ظهور حماد على مسرح التاريخ.....
82	7- المعز بن باديس.....
88	8- انقسام دولة صنهاجة إلى دولتين زيرية وحمادية.....
92	9- تأسيس القلعة واستقلال حماد.....
94	10- القائد بن حماد.....
100	11- محسن بن القائد بن حماد.....
101	12- بلكين بن محمد بن حماد.....
104	13- الناصر بن علناس بن حماد.....
119	14- المنصور بن الناصر.....
124	15- باديس بن المنصور.....
125	16- العزيز بالله بن المنصور.....
128	17- يحيى بن العزيز.....
131	18- سقوط الدولة الحمادية.....

143	ب - القسم الحضاري.....
	1- عمران المغرب الأوسط: المدن والطرق
145	وامكانيات البلاد الزراعية.....
181	2- النظم.....
181	النظام السياسي.....
184	النظام المالي-السكة.....
187	النظام الحربي.....
188	النظام القضائي.....
190	3- الحياة الثقافية.....
191	المذاهب.....
197	الحركة العلمية والأدبية.....
218	4- حالة الاقتصاد وما ترتب عنه من أسباب الحضارة.....
221	5- الفن المعماري والمؤسسات الدينية.....
224	القصور.....
227	البيمارستانات.....
234	6- الخزف.....
237	7- الفنون الجميلة.....
239	- الخاتمة.....
247	المراجع:.....
253	فهرس الموضوعات:.....

أنجز طبعه على مطابع

كيوان المطبوعات الجامعية

الساحة المركزية - بن عكنون

الجزائر

المغرب الأوسط في ظل صنهاجية

موضوع هذا الكتاب عن بلادنا في ظل الصنهاجيين، وهؤلاء قد ساسوا البلاد ولم يألوا جهدا في تطويرها عمرانيا وحضاريا. وقد حدثنا عنهم المؤرخون القدماء، ولكنهم عثوا بالوقائع الحربية والنزاعات السياسية أكثر من عنايتهم بالناحية الحضارية، فبقيت الأخبار المتعلقة بالتاريخ الحضاري مغمورة وسط الأحداث السياسية، جاء هذا العمل ليسد هذه الثغمة، حتى يكون بحثنا استمرار للجهود وإثراء لها.

حيث سنتنى بجميع جوانبه السياسية منها والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والفنية والثقافية والحضارية، ذلك أن الأحداث الجمة التي عرفتھا الدولة الصنهاجية لم تحل دون بروز حركة ثقافية وعلمية مزدهرة شيدت المدارس والمساجد وطرورت الصناعة وتنوعت الرحلات العلمية إلى أقصى البلاد الإسلامية، وربطت علاقات تبادل مع المراكز العلمية في الأندلس وبغداد ومصر ونسيبور، وشجعت العلماء مما جعل هؤلاء يقبلون عليها من كل فج عميق.



www.opu-dz.com



Edition: 4796

465 دج